القصور في العمارة الإسلامية

تأليف

مجموعة كتاب وباحثين

الكتاب: القصور في العمارة الإسلامية

الكاتب: مجموعة كتاب وباحثين

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

القصور في العمارة الإسلامية / مجموعة كتاب وباحثين

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٣٩ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٦٤٤٥ / ٢٠١٩

القصور في العمارة الإسلامية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

لاشك أن تلك القصور التى بقيت تحت أنظارنا تعبِّر عمارتها وكذلك زخارفها عن الاستفادة الكبيرة التي حصل عليها العرب من فنون البلاد التي فتحوها، هي في نفس الوقت، شاهد على عظمة فن العمارة الإسلامية المدنية على مر العصور.

لقد تميزت العمارة الإسلامية بتنوع مبانيها، ما بين المباني العامة والمباني الخاصة والمباني المدنية والعسكرية، والمباني الدينية كالمساجد والمدارس .. كذلك قد تميز بناء القصور كمقرات للحكم تميز بها العرب المسلمون منذ القدم، والتي تم تكييفها سواء من حيث المسقط الأفقي أو حتى الزخارف لتتناسب مع متطلبات الدين الإسلامي، كتقسيم القصور إلى السلاملك والحرملك، أو في الابتعاد عن التجسيم في الزخارف، واستخدام العناصر النباتية والهندسية وغيرها.

ويعلم الباحثون أن فن العمارة في صدر الإسلام كان غاية في البساطة ، ولم يهتم الخلفاء الراشدون ببناء القصور، فكانت مساكنهم عبارة عن حجرات قليلة لا تفترق عن بيوت الناس إلا بما فيها من الدواوين، حتى إن دار الإمارة وهي أهم ما في المدينة الإسلامية بعد المسجد كانت بسيطة في أول الأمر ثم تدرجت إلى الفخامة خصوصاً بعد الفتوحات وتنافس الحكام في البناء فأصبح يعرف من دون المباني الأخرى بأسماء تدل عليه وتميزه.

اهتم العرب المسلمين ببناء دور الإمارة والقصور بعد أن اتسعت دولتهم وتوطدت أقدامهم في الأقاليم بعد الفتوحات الإسلامية، حيث خرجت فكرة الاهتمام بالمباني وخاصة القصور بعد أن خفت حدة الفتوحات الاسلامية، وبعد

أن أخلد معظم العرب الى الإستقرار، ولم تخرج هذه الفكرة إلى حيز الوجود إلا في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، حيث بدأت الثروات تتدفق من كل صوب، وبدأ العرب يخرجون من بداوتهم ويستبدلون دورهم القديمة البسيطة بقصور فخمة، منمقة الجدران وموزونة الأبعاد ويمثل هذا الاهتمام في اختيار مواقعها وتوظيف أفضل الخبرات لتصميمها وبنائها واستخدام أحسن وأمتن المواد الانشائية لتشييدها، فكانت القصور ودور الإمارة تجاور جوامع المدن الاسلامية الأولى في البصرة والكوفة في حين احتلت القلب أو المركز في واسط ومدينة بغداد وأصبحت الجوامع هي المجاورة لها، أما القصور الخاصة فكانت تقع في أغلب الأحيان على أطراف المدينة وكانت تلك الأبنية بيوت راحة ونزهة وصيد وذات استعمال شخصي بالدرجة الاولى .

وتبلورت هذه الاتجاهات بشكل واضح في العصر الأموي وخصوصًا في منطقة بلاد الشام، حيث حرص رجالاتها على ألا يكون مظهرهم أقل من مظهر الأعاجم على حد تعبير معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة ، فالأمويون كانوا من السباقين في استخدام هذا النوع من المباني وهو القصور، وأصبحت في عهد الأمويين ومن أتى بعدهم قصوراً كثيرة الأبنية ، أسوارها مرتفعة وأبوابها عديدة حتى بلغت العشرة أبواب فأصبحت تشمل على أبهاء واسعة وقاعات عظيمة للجلوس ذات أعمدة عرفت باسم الإيوان، ودهاليز ودور خاصة للخلفاء وعائلاتهم ومستخدميهم وحريمهم.

وتخطيط القصور فى العمارة الإسلامية متشابهة، فمسقطها مربع يحيط بها سور تعلوه أبراج ركنية وضلعية دائرية أو نصف دائرية لها مدخل واحد يوصل إلى فناء مكشوف تحيط به كل المرافق كالأروقة والمساكن والسلالم والأحواض،

وقد تميزت تلك الأبنية بالاتساع والرحابة وكادت تقارب المدن بمقاساتها فقد بلغت مساحة قصر الزهراء خمسة وعشرين ألف متر مربع.

تعد القصور الإسلامية نماذج رائعة للبناء المتين والزخارف الجميلة والذوق الرفيع ، فحوت أجمل ما في العمارة والجمال من رسوم للجدران والمقرنصات والخزف والبرك والواحات والشبابيك والسقوف بألوانها المميزة وأشكالها الأنيقة، وانتشرت تلك القصور في أرجاء المدن الإسلامية وبواديها. كانت قصور الخلفاء الأمويين في البوادي حيث يقيمون فيها لبعض الوقت للاستجمام فاهتموا بإنشاء القصور المزينة بالزخارف النباتية والهندسية والصور والتماثيل، وتمثل قصور الأمويين التي بنوها في بادية الشام الفن الإسلامي في شكله المدني، ومن المرجح إن هندسة هذه القصور تجمع بين الفن الروماني والغساني والفارسي.

ويؤكد المعماريون أن القصور الأموية بنيت وفق شكل معماري متماثل في كثير من تفاصيله التي تبدأ من السور المحيط بالمبنى ثم الصحن الداخلي الذي تشرف عليه أروقة تعقبها غرف في طبقة واحدة أو طبقتين. وما يميز فن العمارة الأموي هو أصالته في النشأة المأخوذ من التقاليد العربية والظروف المناخية.

ومن أشهر قصور الأمويين قصر عمره المنسوب إلى الوليد بن عبد الملك ويقع على بعد مائة كيلو متر شرق عمان ، وفي هذا القصر تظهر آثار فنون ما قبل الإسلام البيزنطية والساسانية وخصوصاً في زخرفة التصاوير البشرية على الجدران وهو مكون من طابق واحد ، ويقسم إلى قسمين قاعة الاستقبال وأفنيتها والحمام وأفنيته. ومنها قصر (خربة المفجر) ويبعد حوالي خمسة كيلو مترات شمال أريحا بناه عبد الملك بن مروان ويتميز بسعته وينفرد بأساليب معمارية فنية لايوجد لها مثيل في سائر القصور فهو يتكون من ثلاثة أبنية ضخمة هي مبنى السكن ويشمل قاعة البلاط وغرف الإدارة وغرف الحريم

ويتوسطها بناء مكشوف ومسجد الصلاة، والحمام. والقصر مؤلف من طبقتين بدون فتحات خارجية، وامتاز بزخارفه الفسيفسائية المؤلفة من مكعبات حجرية ملونة تشكل صوراً وزخارف رائعة التصميم والتنفيذ، كما يحتوي على منحوتات حجرية لتماثيل رجال ونساء موجودة في المدخل المسقوف.

ومن روائع القصور الأموية قصر المشتى الذي ينسب إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ويقع في الصحراء الأردنية قرب عمان ويتألف من مجلس أمامي مزود بغرف جانبية وفناء كبير يتوسطه حوض ماء وتتوزع من القاعة الرئيسية ثلاثة أروقة تمتد عمودية على الجدار الرئيسي وللقصر بوابة واحدة وهو مبني من الآجر المشوي أما واجهة القصر ففيها زخرفة فنية رائعة. وقصر الحير الغربي قرب تدمر المنسوب إلى هشام بن عبد الملك وهو أشبه بالحصن له سور عال مزود بالأبراج وفيه زخارف متنوعة ذات رسوم هندسية ونباتية. وهناك قصور أخرى تشهد إلى ما وصل إليه الأمويون في الفن المعماري وتشترك جميع هذه القصور في تصميم واحد تقريباً لا يختلف إلا في التفاصيل وهي مشيدة بالحجارة، وتتميز بكبر حجمها ومتانة جدرانها، كما توفرت فيها وسائل الراحة والرفاهية من حمامات مزودة بغرف الاستحمام بالماء البارد والساخن وهكذا أصبحت البادية عامرة بهذه القصور وغيرها كثير.

وفي العصر العباسي زاد الاتصال بالحضارات المختلفة، فزاد الإهتمام بالعمارة وزخرفتها، واشتد اهتمامهم ببناء القصور الفاخرة، مثل: قصر الخليفة المعتصم في مدينة سامراء، وقصر المأمون، وغير ذلك. وهكذا نجد تمازج العمارة الإسلامية في العصر العباسي بالعمارة في الحضارات الأخرى والإهتمام بالزخرفة والإسراف في بناء القصور وتشييدها، مما يعد تطورًا لا يتمشى مع روح الاعتدال والبعد عن الإسراف الذي برز في العهد الإسلامي المبكر.

وفي العصر المملوكي (البحرية والشراكسة) اهتمو أيضًا بعمارة القصور، وكان اهتمامهم بالتلوين واستخدمو ألوان الحجر الطبيعي وألوان الرخام أو الآجر ومواد البناء (المونة) الملونة كتزيين خارج البناء بألوان محدودة أهمها البني والغامق والاحمر والاسود، اما الواجهات فهي مخططة بمداميك متناوبة .

وقد حرص المماليك على إقامة مساكن لأُمرائهم بداية من القرن الثالث عشر الميلادي حول مقر الحكم وسكن السلطان أو الحاكم وذلك كان خلال العصرين المملوكي والعثماني وحتى منتصف القرن التاسع عشر وفي العصر العثماني بنى العثمانيون عددًا كبيرا من القصور الفخمة، والتي تجلى فيها الإسراف بشكل واضح، وخاصة تلك القصور التي بنيت في تركيا واسطنبول مركز الحكم العثماني، حيث قام العثمانيون بالإستعانة بأفضل المعماريين والفنانين في بناء قصورهم، كما أنهم قاموا باستخدام الذهب في قصورهم، فبلغت درجة عالية من التبذير والبذخ المبالغ فيها،

حتى وصلنا إلى عصر أسرة مُحَمَّد على المعروف عنه بعصر الإزدهار فى التشييد والبناء حيث تم الإستعانة بالمعماريين الأجانب على غرار العصر العثماني حتى وصلت فخامة قصورهم على الشكل الذى نراها الآن .

وخلاصة القول إن فهم أسس العمارة الإسلامية أمر ليس بالسهل ، ولكنه ممتع ومشوق إلى درجة كبيرة وخاصة للباحثين عند دراسة العمارة المدنية الإسلامية.

والمتتبع للآثار العربية الإسلامية يرى عظمة ما وصل إليه الفن المعماري في عصور النهضة. ولا أدل على ذلك من المساجد والقصور والمدارس والقلاع والمآذن التي لا تزال شامخة تطاول الزمن وتتحدى حوادثه وأعاصيره، فبقيت حتى يومنا هذا تدهش الباحثين والرحالة أينما حلوا وتدفع المتتبع إلى البحث

عن سر هؤلاء الأعراب أصحاب هذه الحضارة العربية. وأكبر مثال القصور التي تركها الأمويون في بلاد الشام فقد كانت عجيبة في بنائها ومواقعها، عجيبة في أسرارها التي ماتت بموت أصحابها وزالت بزوال العصر الذي تمت فيه، ولكنها بقيت حديث المحدثين وموضوع الباحثين والمؤرخين. كما أن هذه القصور تمثل الجانب المدني للعمارة الإسلامية.

وهذا الكتاب يضم بين دفتيه مختارات بحثية لمجموعة من أشهر الباحثين والعلماء الذين كتبوا في مجال " القصور في العمارة الاسلامية " وقد تميزت تلك الأبحاث بسهولة الصياغة ودقة المعلومة وجمال الوصف .

الناشر

القصور.. من روائع العمارة الإسلامية

عمرو إسماعيل

تميزت العمارة الإسلامية بإبداعات وتنوع مبانيها، ما بين المباني العامة والمباني الخاصة وذلك في الدينية والعسكرية، والتجارية وغيرها من المباني، وهنا يقتصر حديثنا عن القصور، والتي تميز بها العرب المسلمون منذ القدم، والتي تم تكييفها سواء من حيث المسقط الأفقي أو حتى الزخارف لتتناسب مع متطلبات الدين الإسلامي، كتقسيم القصور إلى: السلاملك والحرملك، أو في الابتعاد عن التجسيم في الزخارف، واستخدام العناصر النباتية والهندسية وغيرها، ومن هنا نستعرض تصنيف القصور بشكل عام، والخصائص المعمارية التي ميزت تلك القصور.

يذكر الباحثون والمؤرخون أن فن العمارة الإسلامية في الصدر الأول للإسلام كان غاية في البساطة وبعيدا عن الترف والبذخ، ولم يهتم الخلفاء الراشدون ببناء القصور لانشغالهم بالفتوحات، فكانت مساكنهم عبارة عن حجرات قليلة لا تفترق عن بيوت عامة الناس إلا بما فيها من الدواوين، حتى إن دار الإمارة وهي أهم ما في المدينة الإسلامية بعد المسجد كانت بسيطة في أول الأمر ثم تدرجت إلى الفخامة خصوصاً بعد الفتوحات وتنافس الحكام في البناء فأصبح يعرف من دون المباني الأخرى بأسماء تدل عليه وتميزه.

تعد القصور الإسلامية من أجمل المعالم المعمارية في العالم، على الرغم من قلتها وندرة آثارها الآن وذلك لأن استمرار وجودها يقترن باستمرار وجود بانيها؛ فهي بذلك عكس المساجد ذات الوظيفة المستمرة، وقد مرت على

العديد من هذه القصور يد التهديم والتشويه، فقلت بقاياها لاسيما ضمن المدن.

أما القصور المبنية في البادية (الصحراء) فكان مصيرها مختلفاً تماماً. لقد وجدت هذه القصور أصلاً حباً بالخلفاء بحياة الصيد والاصطياف، بالإضافة لرغبتهم بالاتصال بزعماء حلفائهم من القبائل، فتوجب على ذلك بناء قصور على درجة عالية من الفخامة والأبهة، واستخدام الزخارف التي تظهر عظمة الخليفة وخضوع أعدائه مثل لوحة الفسيفساء الشهيرة في قاعة العرش في قصير عمرة في الأردن والتي تظهر الوليد مع الملوك الذين انتصر عليهم المسلمون من أمثال كسرى وملك الإسبان وتظهرهم يقدمون الطاعة للخليفة.

وجود هذه القصور قرب البادية وقربها من القبائل التي من الممكن أن تقوم بغارات للسلب والنهب وخاصة أثناء غياب الخليفة، استوجب أن تكون هذه القصور على شكل قلعة دفاعية من الداخل والخارج، فكانت مزودة بالأبراج وخالية من الفتحات، إلا أنها كان لا بد أن تتأثر بالمناطق التي وجدت فيها، فاستخدم الحجر في بلاد الشام واللبن والجص في مصر، تماشياً مع العمارة التي كانت سائدة في تلك المناطق. أما استخدام الأعمدة الرخامية فهي تظهر تأثراً جلياً بالعمارة الإغريقية المنتشرة بشكل أساسي ضمن حوض البحر المتوسط، والتي كانت متأثرة بدورها بالعمارة المصرية قبلها، بعد أن حورتها لتناسب تقاليدها ومعتقداتها، وكذلك فعل الإسلام من بعد الإغريق.

مفهوم القصر، القصور

المفهوم اللغوى لكلمة قصر:

- كلمة قصر في اللغة العربية تعني البيت الفخم الواسع وجمعها قصور.
- كلمة قصر palace هى مشتقة من الأصل اللاتيني Paelis وتعنى قصر ومقر الحاكم أو الملك أو مبنى أو منزل فخم.

وقيل: أن مفهوم القصور في المناطق الصحراوية عامة يختلف عن المفهوم الآخر للقصور في المدينة والمناطق الحضرية، وهذا المفهوم المغاير يمكن معرفته من خلال ما اتفقت حوله الدراسات الحديثة بأنه: "الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعا نوعيا، والذي تخزن فيه مجموعة بشرية ذات المصلحة الواحدة محصولها الزراعي الموسمي، وتستعمله وقت السلم لممارسة نشاطاتها التربوية والطقوسية والاجتماعية والتجارية ووقت الحرب للاحتماء من الأعداء"، ففي جميع المناطق الصحراوية عامة تعني تسمية القصر بالمحصن لوجود سور عظيم يحيط بالقصر، وهى متفاوتة الاتساع حسب كبر حجم المدينة وصغرها.

وتشير بعض الأبحاث إلى أن نشأة القصور كانت في عصر سليمان عليه السلام وإلى عصر الفراعنة حيث كان يقيم فيها الملك وأسرته وحاشيته وخدمه وعماله وجنوده... الخ. هي سكن العلية من القوم: الأثرياء والأمراء، وهي بالأمراء والحكام ألصق. وقد ذكرت كتب التاريخ وكتب الأدب الكثير عن هذه القصور، ولكن اهتمامات هذه الكتب والأبحاث انصرفت إلى وصف آيات الترف والزخرفة والجماليات، ولم تعوّل على التصميم الهندسي إلا في القليل النادر.

ولكن المبدأ العام الذي قام عليه البيت قام عليه القصر أيضاً، فهناك السور الخارجي الذي يخلو من الفتحات، والصحن الداخلي الذي تشرف عليه الأروقة ومن ورائها الغرف في طابق أو طابقين.

والقصور الملكية كانت عبارة عن مدن تتكون من أماكن للإقامات وأجنحة خاصة ومعبد وقرى مخصصة للعمال؛ فالقصر كان رمزاً لقوة الفرعون وسطوته مما تفرض الاحترام له والطاعة.

ولا شك بأنه وجدت قصور على غاية من الروعة والجمال، بذل فيها من الوقت والفن والمال الشيء الكثير، وقد بقي في الأندلس منها بقية يعد قصر الحمراء في غرناطة من أهمها.

ولا شك أيضاً بأن هذه القصور الباقية تحكي ما توصل إليه المعماريون المسلمون من فن وعبقرية وعلم بالهندسة والزخرفة..

ثانيا: المفهوم الهندسي لكلمة قصر:

القصر يشمل عدة مبان وملاحق للسكن والعمل والإدارة محاط بالحدائق وأماكن الترفيه المختلفة ومرابط للخيول وحمامات وهي محددة ومحصنة في جملتها بحدود كالأسوار تضفي عليها طبيعة خاصة. وتحتوي القصور على مبان تعد آية في الفخامة والجمال من حيث طريقة البناء والزخارف الموجودة على الأعمدة والأسقف والسلالم والأرضيات المغطاة بأجود أنواع الرخام كما يحتوي بعضها على قباب آية في الجمال من حيث التصميم الهندسي.

كما تحوي القصور الحدائق الشاسعة الغناء والتي تنسق وتزرع بأجود أنواع الأشجار والنباتات والأزهار والحشائش والسراخس وغيرها المنقول من البلاد

الأخرى التي فتحت. ونود أن نشير إلى وصف بعض الكتب والأبحاث على قصر من هذه القصور، لنستجلي منه ذلك الجانب غير المنظور: "وكان قصر المأمون بن ذي النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء، وكان روشنه الشهير الذي بني وسط بحيرة القصر، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية، مستقى خصباً لخيال الشعراء، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من تماثيل الأسود التي تقذف الماء من أفواهها، وهي لا تزال تقذف الماء ولا تفتر، وتنظم لآلئ الحباب بعدما نثر".

ونقرأ في نص آخر عن هذا القصر: "وكان الكثيرون من الأمراء الذين توزعوا الخلافة الممزقة.. يملكون قصوراً وبيوتاً تنافس في البذخ والترف قصور بني عباد ومنها.. البناء الرائع الذي بناه المأمون بن ذي النون آخر أمراء طليطلة، واتخذ منه مقراً له. تأنق في بنائه وأنفق فيه مالاً كثيراً، وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير الحكماء والمهندسين، وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض؛ فكانت القبة في غلالة من ماء يسكب لا يفتر والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل.. واستولى المسيحيون على مدينة طليطلة".

إن بناء القصور في العمارة الإسلامية، والعناية بالعمران، وزخرفتها، أمر لا يحرمه أو يمنعه الإسلام ما دام في حدود المباح دون ترف أو إسراف فهى تعبر عن هوية العمارة العربية الإسلامية..

والباحث في أصول عمارة القصور الإسلامية يرى العديد من الشواهد المعمارية الأثرية على روعة وجمالية العمارة الإسلامية وخاصة في العصر الأموي،

وهنا سنخصص دراستنا على عمارة القصور الإسلامية في بادية الشام وشبه الجزيرة العربية.

تاريخ بناء القصور:

اهتم العرب المسلمون ببناء دور الإمارة والقصور بعد أن اتسعت دولتهم وتوطدت أقدامهم في الأقاليم التي تم فتحها من العالم، حيث خرجت فكرة الاهتمام بالمباني وخاصة القصور بعد أن خفت حدة الفتوحات الإسلامية، وبعد أن أخلد معظم العرب إلى السكينة والسلم، ولم تخرج هذه الفكرة إلى حيز الوجود إلا في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، حيث بدأت الثروات تتدفق من كل صوب، وبدأ العرب يخرجون من بداوتهم ويستبدلون بدورهم القديمة البسيطة قصورا فخمة، منمقة الجدران وموزونة الأبعاد، ويمثل هذا الاهتمام في اختيار مواقعها وتوظيف أفضل الخبرات لتصميمها وبنائها واستخدام أحسن وأمتن المواد الإنشائية لتشييدها، فكانت القصور ودور الإمارة تجاور جوامع المدن الإسلامية الأولى في البصرة والكوفة في حين احتلت القلب أو المركز في واسط ومدينة بغداد وأصبحت الجوامع هي المجاورة لها، أما القصور الخاصة فكانت تقع في أغلب الأحيان على أطراف المدينة وكانت تلك الأبنية بيوت راحة ونزهة وصيد وكانت ذات استعمال شخصي بالدرجة الأولى.

وتبلورت هذه الاتجاهات بشكل واضح في العصر الأموي وخصوصًا في منطقة بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، حيث حرص رجالاتها على ألا يكون مظهرهم أقل من مظهر الأعاجم على حد تعبير معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة، فالأمويون كانوا من السباقين في استخدام هذا النوع من المباني وهو

القصور. ولقد أثبت المؤرخون أن عمارة القصور الإسلامية قد عُرفت في العصر الأموي، وشهدت نوعين من القصور:

القصور الرسمية: دار الخلافة ودار الإمارة.

القصور الخاصة (غير الرسمية): ومن هذه القصور (قصر معاوية ﷺ أو قصر الخضراء).

١-قصر دار الخلافة

تمثل قصور الخلافة مقر إقامة الخليفة وعادة ما تكون في العاصمة، ويطلق على المكان قصر الخلافة أو دار الخلافة. ولعل قصر معاوية بن أبي سفيان ﷺ الذي يسمى قصر الخضراء (نسبة إلى القبة الخضراء التي كانت تعلوه) بدمشق خير ما يمثل هذه الفئة. فقد اتخذه معاوية ﷺ مقرًا لإمارته على بلاد الشام (١٩ – ٤١هـ/ ٦٣٩ – ٦٦١م) واستمر في الإقامة فيه بعد توليه الخلافة (٤١هـ/٦٦١م) وحتى وفاته (٦٠هـ/٦٧٩م).

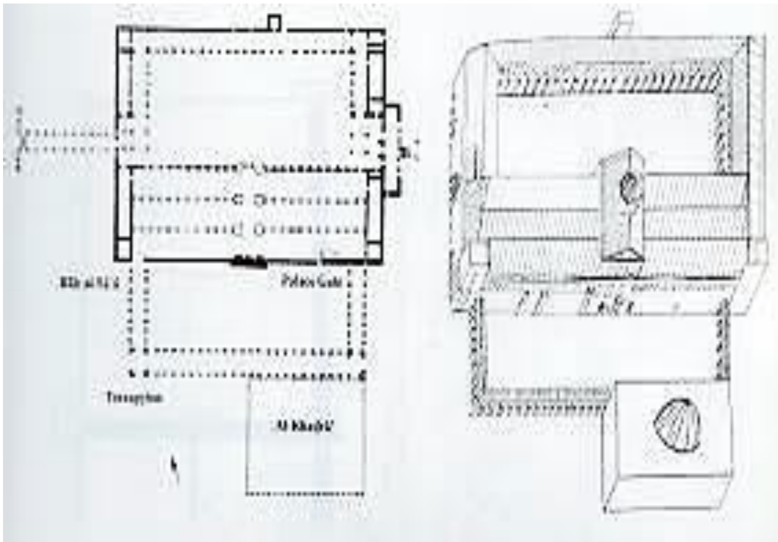
يروى أن معاوية بناه بدمشق من لَبِن وطين، فقدم عليه وفد صاحب الروم فقال لهم: كيف ترون بنائي هذا؟ قالوا: "ما أحسنه إلا أنك تبنيه لنفسك وللعصافير"، يريدون أن العصافير تحفره وتنقُره، ولم تبنِه ليبقى لمن بعدك، فهدمه وبناه بالحجارة.

وتحوي كتب التاريخ والأدب (وبخاصة دواوين الشعراء) معلومات عن هذا القصر وأوصافه في تلك الفترة. ولعل ميسون بنت بَحْدَل الكلبي، زوجة معاوية وأم ولده يزيد بن معاوية، هي خير من وصف هذا القصر (كونها عاشت فيه،

ولكنها لم تُعجب به وفضلت العودة إلى البادية) وذلك في قصيدتها المشهورة، والتي مطلعها:

لَبَيْـــتٌ تَخْفِـــقُ الأَرياحُ فيـــهِ   أَحَـــبُّ إليَّ مِـــنْ قَصْـــرٍ مُنِيـــفِ

ومن ناحية أخرى، فقد بقي هذا القصر مقرًا لإقامة معاوية وابنه يزيد من بعده، ثم آلت ملكيته إلى عبد الملك بن مروان (والذي اشتراه من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعين ألف دينارا وأربع ضياع بأربعة أجناد من الشام). فأقام فيه عبد الملك وأولاده الوليد وسليمان وفترة قصيرة من عهد هشام. ولعل قيام الوليد بن عبد الملك ببناء الجامع الأموي ملاصقًا لقصر الخضراء دفع الخلفاء للبقاء فيه كل هذه المدة ، ولكن هذا القصر ما لبث أن فقد دوره منذ أن انتقل الخليفة هشام بن عبد الملك إلى الرصافة المطلة على نهر الفرات واتخذها دار إقامة وابتنى له فيها قصرين.



(شكل ١)

وأما مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية فقد نقل العاصمة إلى مدينة حران وابتنى له فيها قصرًا بلغت تكلفة إنشائه حوالي عشرة ملايين درهم.

٢- قصور دار الإمارة

وهي الدار التي يقيم فيها الوالي في الاقليم الذي يتولاه. وعادة ما تكون دار الإمارة في المدينة الرئيسة لذلك الإقليم؛ ففي إقليم العراق، قام عبيد الله بن زياد (والي العراق لمعاوية ويزيد) ببناء مقر لإمارة البصرة عرف بقصر الحمراء، كما بنى مقرًا للإمارة في الكوفة سمّاه القصر الأبيض. لكنه لم يسكنه إذ خرج إلى بلاد الشام (٦٤هـ / ٦٨٣م) وقتل وهو في طريقه عائدًا إلى الكوفة (٦٧هـ / ٦٨٦م).

وقام الحجاج بن يوسف الثقفي ببناء مقر للإمارة في مدينة واسط، عرف بقصر الخضراء، نسبة إلى القبة الخضراء التي كانت وسط القصر، وكان ديوان الحجاج ومجلسه اليومي تحت هذه القبة. وكانت مساحة القصر أربعمائة ذراع في مثلها (١٦٠م في مثلها = ٢٥٦٠٠م٢). وللقصر أربعة أبواب، كل منها يُفضي إلى طريق عرضها ثمانون ذراعًا (٣٢م).

وبنى الحرّ بن يوسف بن يحيى بن الحكم الأُموي (والي الموصل أيام هشام بن عبد الملك) قصرًا منيفًا للإمارة هناك، تفنن في بنائه وزخرفته وسمّاه "المنقوشة"، وإنما سميت المنقوشة لأنها كانت منقوشة بالساج والرخام والفصوص الملونة وما شاكلها. وفي مصر، ابتنى عتبة بن أبي سفيان (٤٤هـ / ٦٦٤م) دارًا للإمارة في الإسكندرية. ولما تولّى عبد العزيز بن مروان ولاية مصر لأخيه عبد الملك (٦٥ – ٨٥هـ / ٦٨٤ – ٧٠٤م) بنى مقرًا للإمارة في مدينة الفسطاط

عرفت بالدار المذهبة (٦٧هـ/٦٨٦م) وتقع غربي المسجد الجامع ولعلها لعظم اتساعها كانت تدعى "المدينة".

القصور الخاصة للخلفاء والأمراء

وهي تلك المنشآت التي بناها الخلفاء الأُمويون خارج العاصمة دمشق وفي مناطق متفرقة من أقاليم الدولة. ولا يزال بعضها شاهدًا يحكي عظمة الفن العربي الإسلامي في ذلك الزمن المبكر من عمر الدولة الإسلامية. وقد احتار الباحثون في الأسباب التي دفعت خلفاء بني أمية لبناء هذه القصور وبهذه الكثافة العددية، وفي أماكن تكاد تكون على محور واحد تقريبًا. فقد تكون هذه القصور بنيت للراحة والاستجمام، حيث يقصدها الخليفة (أو الخلفاء) للتنزه والصيد، أو بقصد التقرب من القبائل العربية التي تقطن تلك المناطق والعمل على تجنيد أبنائها في القوة العسكرية، أو ربما كان بناء بعض هذه القصور له صلة بوجود طرق للقوافل من الجزيرة العربية إلى الشام، وأنها كانت تستخدم خانًا لاستراحة القوافل ومكانًا يستقبل فيه الخليفة القوافل الرسمية الخاصة به وحاشيته.

وأما عن أشهر القصور الأُموية التي بنيت لأَيّ من الأغراض السابق ذكرها، فيروى أن معاوية وعبد الملك بن مروان وابنه الوليد كانوا يقضون فصل الشتاء في قصور بنيت لهم في بلدة الصنبرة قرب بحيرة طبرية. وكان ليزيد بن معاوية قصر في حُوَّارين قرب حلب حيث كان يمارس هواية الصيد هناك. أما بلدة صِيدْنايا (٢٨ كيلًا متريًا شمال غرب دمشق) المعروفة بطيب هوائها وبساتينها فقد كانت منتجعًا صيفيًا لبني أُمية منذ أيام معاوية، فلا بد من وجود أبنية خاصة لهم يقيمون فيها.

وحاول الخلفاء الأُمويون بناء بيوت لهم في مدينة القدس؛ فقد دلَّت الحفريات التي جرت قرب المسجد الأقصى في السنوات الأخيرة (١٣٩٠هـ /١٩٧٠م) على وجود قصور ثلاثة تعود لأيام الخليفة الوليد بن عبد الملك.

وأما عن أشهر القصور الأموية التي يمكن مشاهدتها حتى اليوم في أماكن متفرقة من بلاد الشام، فهي: قصير عَمْرة، وبالقرب منه مبنى وقصر أُسَيْس حَمّام الصَّرح، وقَصر الحَرَّانة (في الأردن) (١٠٥ أكيال مترية جنوب شرق دمشق) وقد بناها الخليفة الوليد بن عبد الملك بالإضافة إلى قصر من الرخام رائع جدًا في بلدة عَنْجَر (عين الجَرّ) في البقاع اللبناني.

وأما الخليفة هشام بن عبد الملك، فقد بنى قصرين له في الرصافة، كما بنى قصر الحِير الشرقي (٧٤ كيلًا متريًا إلى الشمال الشرقي من تدمر بسوريا) وقصر الحِير الغربي (٦٨ كيلًا متريًا غربي تدمر). وكان له قصر يتخذه كمشتى في خربة المفْجر (قرب أريحا والبحر الميت بفلسطين) والمشهور بزخارف الفسيفساء فيه بأشكال متنوعة.. هذا بالإضافة إلى قصر له كان على جبل القلعة في قلب العاصمة الأردنية عمَّان.

وأقام يزيد بن عبد الملك في قصر الموَقَّر (٣٠ كيلًا متريًا إلى الشمال الشرقي من عمَّان)، وأما الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقد بنى قصر المشتى (٣٢ كيلًا متريًا جنوب شرق عمَّان) وقصر الطُّوبَة في وادي الغَدف (١١١ كيلًا متريًا جنوب شرق عمَّان).

دور المناخ في بناء القصور

تعتبر دراسة العناصر المناخية للمنطقة، وخاصة المدن الجديدة، عاملا رئيسيا ومهما للكائنات وخاصة الإنسان عند الأعمار. اهتم المعمارى المسلم

عند اختيار الموقع لبناء ما شاء من المدن وخاصة المدنية ثم العسكرية وغيرها من العمارات الأخرى. حيث يعد المناخ أهم العناصر البيئية تأثيرا في تشكيل العمارة، فقد كان له التأثير الواضح في شكل المدن الإسلامية وتقسيمها، ذلك لأن عمارة المناطق الجافة تختلف عن عمارة المناطق الممطرة، كما كان له تأثير في تخطيط الشوارع وتوجيهها داخل المدينة.

نرى أن المعمارى المسلم اعتمد أيضا عند بناء القصور – قلة الفتحات في الجدران الخارجية، ووجودها في الأفنية الداخلية. كما اعتمد تضييق الفتحات من الخارج واتساعها من الداخل، لتعمل كمصفاة للهواء الداخل للمبنى، وكذلك للتخفيف من كمية النور، ومنع الأشعة المباشرة من الدخول فكانت على هيئة المزاغل.

استخدام مواد البناء (اللبن الطينى) كمادة أساسية في عملية البناء عمدت إلى توفير العزل الحرارى.

اعتماد الفناء الداخلي المكشوف والفراغات، الذي يعمل دور المعدل الحراري مع تخزين الهواء البارد لتتم الاستفادة بها طوال اليوم والعمل على تويع جيد للهواء بالمباني.

كما أن زيادة سمك الجدران الخارجية يقوي من العزل الحراري وخاصة في فصل الصيف.

استخدام المرشحات المائية (تمرير قناة الفقارة) داخل القصر، ليتشبع الجو بذرات الماء فيخفف من رطوبة الجو، وأيضا من زراعة البساتين بمحاذاة القصر للاستفادة منها لتخفيف حدة الرطوبة التي يتشبع بها الجو.

فكان للمناخ دور مهم ورئيسى في تشكيل العمارة وبناء القصور واختيار مواقعها .

تطور بناء القصور

- العصر الأموي (٦٦١-٧٥٠)م

شاد الأمويون القصور بعد نقل مقر الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق في بادية الشام وغيرها، ففيها بقايا نحو ٣٠ قصراً، أهمها قصر الحير الشرقي، وقصر الحير الغربي، وقصير عمرة، وقصر المشتى، وقصر خربة المفجر.



(شكل ٢) قصر الحرَّانة

ومن دراستنا للدولة الأموية نستطيع ملاحظة الآتى:

يمكن تقسيم القصور في بادية الشام إلى ثلاثة مقاسات:

- القصور الصغيرة: ٣٠×٣٠م٢ تقريبا (قصر الخرانة).

- القصور المتوسطة: ٦٠×٦٠م٢ تقريبا (وهى الأكثر عددا).
- القصور الكبيرة: ١٥٠×١٥٠م٢ تقريبا (قصر المشتى، الحير الشرقى/ المجمع الكبير).

وقد أرجع سر اختيار الأمويون لهذه الأمكنة لبناء القصور إما لقربها من مصادر المياه أو لربطها بين البدو والريف والحضر من خلال تفعيلها كمنطقة استصلاح زراعي تسهل الاتصال بالقبائل بحكم وجودها على طريق التجارة والحج الذي يصل بلاد الشام والحجاز.

والمتأمل لبناء القصور يرى أن الأمويون جمعوا بين حضارة سكان المدن وترف أهلها، وحبهم لحياة البادية فاقتبسوا فى بناء هذه القصور الموجودة بالصحراء من كل موقع تحت أيديهم من مظاهر حضرية.

وقد حوروا ماأخذ من الحضارات السابقة (البيزنطية) فى الشكل فمثلا أحاطوا هذه القصور بأسوار منيعة تشبه أسوار القلاع الرومانية والبيزنطية ذات الأبراج المربعة، فحورت إلى الشكل الأسطوانى، كما أقتبسوا العديد من العناصر المعمارية الموجودة فى الكنائس البيزنطية ثم أضافوا إليها اللمسات التى تعبر عن الهوية العربية والإسلامية.

ومن هذه القصور قصر عمرة في الأردن تميز باحتوائه على الرسومات الجدارية fresco paintings التي تمثل صوراً بشرية وحيوانية يعتمد عليها بعض الباحثين دليلاً على عدم صحة نظرية تحريم الصورة في الإسلام.



(شكل ٣) قصر الحمراء الأندلس

اتخذ بنو أمية مدينة دمشق عاصمة للعالم الإسلامي، وكانت السيادة الفنية في عصرهم للبيزنطيين والسوريين وغيرهم من رجال الفن والصناعة الذين أخذ عنهم العرب الفاتحون، وبذلك فالطراز الأموي يمثل مرحلة انتقالية من الفنون المسيحية في الشرق الأدنى إلى الطراز العباسي، على أن هذا الطراز كان متأثراً إلى حد ما بالأساليب الفنية الساسانية التي كانت مزدهرة في الشرق الأدنى عند ظهور الإسلام.

في هذا العصر نرى تطورا كبيرا في طرق البناء فقد ابتكر الأمويون فنونا في تشييد الأبنية والقصور والمساجد استفاد منها الحضارات اللاحقة التي أخذت من طراز البناء الأموي ونقلت عنه، فنجد العقود واستخدام الجمالونات الخشبية المحملة على أكتاف من الحجر. كانت الفتحات في الغالب مستطيلة ويتم تحميل الحائط من فوقها عن طريق توزيع حمله على عقد نصف دائري. ودخل استخدام المرمر في الأرضيات.

البداية مع العصر الأموي، الذي بنيت فيه العديد من القصور والتي تميزت ببساطة التشكيل الخارجي، أما الداخل فكان عبارة عن لوحة فنية مزدانة بزخارف الفسيفساء والتصاوير الملونة والمنحوتات الحجرية أو الجصية.

يمكننا أن نلاحظ في القصور الأموية تطور من البساطة إلى حياة الترف والانتقال من القصور المتواضعة إلى القصور الفخمة التي تنقل لنا عظمة هذا العهد وتصور لنا الانتصارات المدهشة التي حققها المسلمون في ذلك العصر..

من أشهر القصور الأموية: قصر هشام المعروف بخربة المفجر وهو واحد من أهم المعالم السياحية في فلسطين خاصة وفي العالم العربي عامة. أغلب الظن أن بنائه كان في الفترة ما بين ١٠٥- ١٢٦هـ أي في عهد حكم كل من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥هـ) والخليفة الاموي الآخر الوليد بن يزيد (١٢٥- ١٢٦هـ)، ولكن اكتشفت في الموقع دلائل كتابية تثبت نسبة هذا القصر إلى هشام وليس إلى الوليد، ولذلك سمي قصر هشام.

شيد القصر بالحجارة المشذبة المقطوعة من الحجر الرملي إلى جانب السقوف الخشبية المغطاة بالقرميد؛ وكانت الأرضيات مرصوفة بحجارة من منطقة النبي موسى إلى جانب الفسيفساء، وكمعظم القصور الإسلامية يتكون قصر هشام من بناء مربع الشكل تحيط به ابراج دائرية عند الزوايا، وهو مكون من طابقين سفلي وعلوي، وفي المنتصف هناك بلاط حجري تنتظم حوله أربعة أروقة بأعمدة، ويقع المدخل الرئيسي للقصر في الجهة الشرقية، وهو عبارة عن ممر معقود تحيط به مقاعد حجرية للحراس ومزين بزخارف حجرية؛ ويحتوي أيضا على حديقة كبيرة وواسعة يحيط بها السور من الخارج، وكان يتم تزويد

القصر بالمياه عن طريق نبعي النويعمة والديوك أسفل جبل قرنطل بواسطة قناة مكشوفة على بعد أربع كيلومترات غربا عن القصر.

يتكون الطابق السفلي من وحدات سكنية مخصصة للخدم وأيضا قاعة كبيرة لاستقبال الضيوف إضافة إلى مصلى صغير خاص بالخليفة يتجه محرابه إلى القبلة، بينما الحمامات تقع في الجزء الغربي من الساحة المركزية وتستطيع الوصول إليها عن طريق درج حجري متصل بها (وهذا الجزء مازال قائما إلى اليوم).

ورغم ضخامة وفخامة الطابق السفلي للقصر إلا أن الجناح السكني للخليفة كان في الطابق العلوي الذي بالإمكان الوصول إليه عن طريق درجين يقع أحدهما في الجهة الشمالية الشرقية من الساحة المركزية والآخر من الجنوبية الغربية، ويحتوي هذا الطابق على الكثير من الغرف السكنية الخاصة بالخليفة وأهله وعائلته.

وبعض من تلك الغرف تطل على الساحة وعلى جدرانها الخارجية المواجهة للساحة الكثير من الرسوم والزخارف والفسيفساءات النباتية والأشكال الهندسية التي تضفي رونقا الفخامة على القصر، وتعتبر الفسيفساء الموجودة على أرضية الحمامات إضافة إلى شجرة الحياة المصنوعة من الموزاييك في غرفة الضيوف من أهم الأعمال الفنية القديمة في العالم، وأيضا من أهم المعالم جذبا للسياح والزوار في المنطقة.

العصر العباسي (٧٥٠-١٢٥٨)م:

وعند انتقال مركز الخلافة من بلاد الشام إلى العراق في عصر الدولة العباسية تم التأثر بالمعطيات الطبيعية للمنطقة بالإضافة للتأثر بعمارة الحضارات

السابقة في بلاد الرافدين وبالعمارة الساسانية التي طبعت المنطقة بطابعها قبل الإسلام مباشرة. ومن أهم المتغيرات اتباع الآجر بدلاً من الحجر فغدا الآجر وكسوته بالنقوش الجصية سمة من سمات العصر.

واتسمت القصور العباسية بالضخامة والمساحات الواسعة وبرحابة باحاتها بالمقارنة مع أبنية الأمويين، وتميزت أيضاً بسماكة أسوارها المدعمة بالأبراج نصف الدائرية، ويعد قصر الأخيضر في العراق مثالاً بارزاً على ذلك وهو مبنى مهم في بداية العصر العباسي، يذكر بالقصور الأموية ولكنه يضم الكثير من العناصر التي أثرت على العمارة العباسية التي تلته.



(شكل ٤) قصر السلاطين توبكابي سراي

يقع ضمن البادية العراقية كان يتوسط زمن إنشائه منطقة خصبة ترويها مياه الفرات وكان يروى بواسطة نظام الأقنية. ينسب القصر إلى عيسى بن موسى بن أخي المنصور، يتميز بتحصينه الجيد ويضم عناصر مبتكرة في فنون التحصين والعمارة العسكرية. استخدم الحجر الغشيم في بناء أسواره الخارجية.

وهو يتألف من سور حصين بداخله قصر مسور، تحيط به الحدائق من ٣ جهات بينما يلتصق في الشمال بالسور الخارجي.

تتوسط الأضلاع بوابات مفتوحة ضمن برج كبير، تؤدي الشمالية منها إلى القصر المسور مدعم بأبراج مسقطها في الأركان ثلاثة أرباع الدائرة، أما في الأضلاع فتتألف من دعامة جدارية يلتصق بها برج نصف دائري. يتوسط المسافة بين كل برجين دعامة جدارية تستند إليها أقواس، وهي ليست للزينة، بل لها وظيفة دفاعية، فهناك فراغ بين الأقواس والجدار يستخدم كسقاطة لصب الزيوت المغلية على المهاجمين، تستعمل من الممر الدفاعي الممتد أعلى السور. ويعتبر هذا العنصر الأول من نوعه في العمارة العسكرية، واتخذ أهمية لاحقاً في زمن الحروب الصليبية هناك أدراج موزعة في الأركان عند الأبواب.

القصر يقع مباشرة خلف البوابة الشمالية ولا يفصله عنها سوى ممر مسقوف يؤدي في نهايته إلى الحدائق المحيطة بالقصر. القصر محاط بالأبراج نصف الدائرية ننتقل عبر بهو فخم مسقوف بقبوة أسطوانية إلى فناء مركزي.

القسم الأهم من القصر هو قصر الأمير يطل على الفناء بواجهة لها ثلاثة أبواب.

الزاوية الشمالية الغربية يحتلها مسجد القصر يوجد بين القصر والسور الخارجي جناح ملحق يعتقد أنه كان مخصصاً لأبناء الأمير.

وشاع استعمال القبوات المتصالبة والدعامات المستطيلة المبنية بالآجر، ومن العناصر المعمارية المميزة استخدام الإيوان والبوابات والتي تظهر تأثراً واضحاًبالعمارة الفارسية ولاسيما الإيوانات، وظهرت أشكال جديدة للأقواس عرفت بالقوس العباسي المرسوم من أربعة مراكز بالإضافة إلى أقواس تزيينية مثل

القوس المفصص والمحاريب التزيينية. ويظهر قصر بلكوارا في سامراء (القصر المنقور) تأثراً كبيراً بالعمارة الفارسية التي سبقت بناء سامراء.

العصر السلجوقي (١٠٣٨-١١٥٧)م:

أما السلاجقة فقد نقلوا عمارة تركستان، موطنهم الأصلي ونشروها في أنحاء الأمة الإسلامية حيث وصلت حدودها غرباً إلى سواحل بلاد الشام وإلى الحجاز واليمن غرباً، وفي هذه الفترة انضمت تركيا للبلاد العربية فانتقلت التأثيرات الأرمنية الأصل للبلاد العربية وأثر المناخ القاسي على نمط القصور فظهرت لأول مرة أفنية القصور المسقوفة والقباب المقرنصة كما أوجد السلاجقة فكرة مجمع المباني الذي استمدوه من بلاد الأناضول وكانت هذه المجمعات تضم قصر الحاكم ومدرسة وبيمارستانا وجامعا ونحو ذلك.

كما استخدم السلاجقة في عصورهم عناصر زخرفية جديدة تماماً، حيث استمدوا من براعة النحاتين الأرمن ليزينوا القصور والمدارس بنحت نافر، ولكنهم طبعوه بالفن والثقافة الإسلامية فظهرت الأشرطة الكتابية بخط الثلث أو الكوفي المزخرف المستعمل في نقش النصوص على المباني ، ظهر الخط المعروف بالنسخي أو الثلث و كان بسيطاً خالياً من الزخارف •

ظهرت المقرنصات كعنصر إنشائي حل محل الحنية الركنية في زوايا الانتقال بالقباب ، ثم أصبحت عنصراً زخرفياً يغطي طاسة القبة أو الأسقف ، أو يشكل أفاريز بين طبقاتها ، ويبدو أن المقرنص تولد عن الحنية التي تشبه المحراب ، بعد تجزئتها إلى مجموعة صغيرة على طبقات متعددة •

ارتقى فن النقش على الخشب والحجر والرخام لتمثيل الزخارف النباتية والعروق الملتفة •

كما ظهر في عمائر الآجر عنصر زخرفي جديد هو الخزف "القاشاني" الذي رصعت به مباني الآجر ، وكان من لون وحيد هو الفيروزي .

نجد أن القصور المتبقية من العصر السلجوقي قليلة جداً، ولذلك يعد القصر العباسي في بغداد جوهرة نادرة تحدثنا عن عمارة القصور في العهد السلجوقي، وهذا القصر يؤكد المؤرخون والوثائق أنه بناء محكم الجدران قوي الأساس غلفت بعض أقسامه بواجهات زخرفية نحتت على الآجر، تتوسط ساحته الداخلية نافورة تبلغ أبعادها (٢١.٥×٢٠م) ويحيط بالساحة رواق يتكون من طبقتين وهو يفصل مابين الساحة وبين مجموعة من الغرف صغيرة الحجم نسبيا، ويستند الرواق في كل طبقة من البناء على ٨ دعامات، إلا في القسم الشرقي حيث يقوم بناء إيوان مهيب يرتفع عقده إلى مستوى الطبقتين تقريباً وهو من أجمل أقسام القصر بناءً وزخرفة ويتميز رواق الطابق الأرضي بجمال المقرنصات التي تزين سقفه ويلي مجموعة الغرف في الجانب الجنوبي ممر عالي السقف قليل الأتساع وينفذ من هذا الممر عبر مداخل إلى ٤ قاعات كبيرة نسبياً بالمقارنة إلى غرف القصر وتتميز بأرتفاع سقوفها أيضاً، ولم يغفل المهندس عن توفير فتحات للتهوية والأضاءة في أغلب أقسام المبنى.

العنصر الأساس للزخرفة يعتمد على تشكيلات من الآجر بحجوم وصور مختلفة تحمل قسماً أو جزءاً من موضوع زخرفي مستقى من التراث الفني الأسلامي فهناك توظيف واضح للمثمنات والمقرنصات والتداخلات الذكية والماهرة للآجر بما يعطي تناظراً راقياً بين الوحدات الزخرفية تتناغم مع الاطار العام لمفردات البناء.

شيد في النصف الأول من القرن السابع الهجري في زمن الخليفة الظاهر المبنى مشيد من الآجر وهنالك اعتقاد أن المبنى بني أساساً كمدرسة ودار علم، وهو مؤلف من طابقين ويحيط بفناء داخلي ومحاط بكلا الطابقين برواق يؤدي إلى الفراغات المختلفة مع وجود إيوان واحد فقط يقابله حرم الصلاة المبنى يتميز بكون الرواق السفلي مغطى بمقرنصات آجرية بديعة. والتي تميز العصر السلجوقي عن باقي العصور، فقد نقلها السلاجقة عن المعماريين الأرمن وطوروها لتناسب أبنية القصور والمدافن.

أما سبب تسميته كذلك فيعود لنمط الأقواس التي شيدت بها أسقف القصر هذا القوس يعرف بالقوس العباسي يرسم من أربعة مراكز، وقد طورت هذه الطريقة في بداية العصر العباسي إلا أن انتشار استخدامها يعود للعصر السلجوقي.

الأيوبيون كانوا استمراراً للسلاجقة لكن عمارتهم تميزت بالتقشف وعدم الإسراف بالزخرفة أما قصورهم فكانت غالباً ضمن سور القلعة، وبالتالي كانت تتميز بتخطيط وموقع متميز لكن بطابع قلعة خالية من الرسوم والنقوش.

العصر المملوكي (١٢٥٠-١٥١٦) :

أما المماليك فكانوا عكس ذلك تماماً فنجد في قصورهم الزخرفة من جميع المدارس التي سبقتهم. تأثرت قصور المماليك بشكل كبير بعمارة العهد السلجوقي وزخرفتها، وعملت على تطويرها بشكل كبير، فكانت قصور المماليك تزدان بالكتابات المزخرفة. أحب المماليك الزخرفة، وبالغوا بها، فقل ما تدخل قصراً مملوكياً إلا وتضيع بين أنواع الزخارف المختلفة، من زخرفة بالخطوط

إلى تلاعب بالأشكال. وقد جاء ذلك تأثراً بطبيعة المماليك وثقافتهم التي جاءت كخليط من كل ما سبقها وكل ما حولها.

أهم القصور يرجع لأهم السلاطين: الظاهر ركن الدين بيبرس، وهو قصر الأبلق في دمشق تقوم مكانه اليوم التكية السليمانية، بناه الفاطميون، لكن الملك الظاهر بيبرس أعاد بناءه بالشكل المعروف اليوم، مستخدماً الحجارة المتناوبة السوداء والصفراء، بما يعرف باسم الأبلق والذي تعود شهرته للعصر المملوكي، على الرغم من أن بداية استخدامه تعود لبداية العصر الأيوبي إلا أن انتشاره يرجع لزمن المماليك.

يتميز القصر بواجهته الخلابة والتي يرسم فيها بواسطة هذا الأبلق مشاهد لأسود ونمور. تفضي البوابة إلى ممر يؤدي إلى قاعات مملوكية مفروشة بالرخام الملون والمفصص والمذهب، وقد هدم هذا القصر في العصر العثماني، لتقوم مكانه التكية السليمانية، التي بناها المعمار الشهير سنان للسلطان سليمان القانوني، والتي تضم جامعاً ومدرسة ومشفى وتكية وغيرها..

العصر العثماني (١٥١٦-١٩١٨):

قدم العهد العثماني ثورة على القصور السابقة في بلاد الأناضول، إذ تأثرت القصور بمفاهيم عمارة جديدة قدمها العثمانيون، مثل القباب الكروية والتي استمدت مباشرة من عمارة الكنائس في تلك المنطقة، وعلى الرغم من أنهم نقلوها إلى البلاد العربية التي بنوا فيها قصورهم إلا أنهم لم يستطيعوا محو الآثار الموجودة قبلاً والمتوارثة عبر العصور، ولذلك نرى في بلاد الشام قصوراً تجمع بين القباب الكروية والزخرفة المملوكية.

وعلى الرغم من اهتمام العثمانيين بشكل رئيسي ببناء المساجد إلا أنهم بنوا مجموعة من القصور الجميلة، لاسيما في اسطنبول ويعد "توبكابي سراي" أو "قصر السلاطين"، أهم هذه القصور:

هو أحد القصور الكبيرة في اسطنبول، بناه السلطان محمد الفاتح وسكنه السلاطين العثمانيون ٤٠٠ عاما من حكمهم الذي استمر ٦٠٠ عاما. بالإضافة لكونه سكنا للسلطان كان أيضاً مقراً لإدارة شؤون الدولة ومكان إقامة الاحتفالات الرسمية. يتألف القصر من ٤ قاعات رئيسية وتحيط بكل منها مبان أصغر، والقصر الذي يمتد على طول الشاطئ كان يشمل مسجداً ومشفى وتكية.

عندما أمر السلطان محمد الثاني (الفاتح) ببنائه كان اسمه "القصر الجديد" أما اسمه الحالي بمعنى (بوابة المدفع) فيعود للنقش الموجود على إحدى بواباته والتي تهدمت اليوم.

القصر يقع في مرتفع من الأرض مطلاً على مضيق البوسفور، حيث كانت تقام القلعة (الأكروبول) اليونانية القديمة، وكانت أعلى نقطة من القصر هي المقر الخاص بالسلطان محمد الفاتح.

وقد طرأ على القصر العديد من الإضافات والتوسعات خاصة في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٠).. شب عام ١٥٧٤ حريق أتلف مطابخ القصر فقام المعماري الشهير سنان بإعادة بنائه وجدد قسم الحريم وبعض الأقسام الخاصة، وذلك في عهد السلطان سليم الثاني.

الأندلس:

لا يمكن الإلمام بعمارة القصور الإسلامية دون التوقف عند الأندلس، تلك الظاهرة الفريدة، التي قدمت حضارة مستقلة امتزجت فيها الألوان الأندلسية بالصبغة العربية فجاءت عمارة لا مثيل لجمالها.

قصر الحمراء في غرناطة ينتصب مثلاً ساطعاً عن هذه الحضارة التي لم يشهد العالم مثيلاً لها بعد. يقع قصر الحمراء على بعد ٢٦٧ ميلا (٤٣٠ كيلومترا) جنوب مدريد، فوق الهضبة الواقعة على ضفة نهر حدرّه اليسرى، وقد قام الزعماء البرابرة ملوك غرناطة ببناء قلعة سميت "قصبة الحمراء" فوق الهضبة..

وفي عهد ملوك الطوائف عندما تولى باديس بن حبوس حكم غرناطة سورها بسور كبير جدا، ثم آثر أن يكون ذاك هو مركز مملكته وحكومته، وبنى داخل هذا السور قصرا سمي بـ "قصر الحمراء" نسبة الى الحجارة التي استعملت في بناء القصر والضاربة الى الحمرة، وفي عهد الملك مُحَمَّد بن الأحمر النصري أضيفت بعض الأبراج الى القلعة كما جُلِب الماء من نهر حدرّه، كذلك قام الملك مُحَمَّد ببناء مسكنه الخاص في جهة الجنوب الغربي من الحصن (في المكان نفسه الذي شُيد عليه قصر الإمبراطور شارلمان)، وفي أواخر القرن السابع الهجري، أنشأ مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الأحمر الغالب بالله مباني الحصن الجديد والقصر الملكي، ثم أنشأ ولده مُحَمَّد في جوار القصر مسجدًا قامت محلّه فيما بعد كنيسة سانتا ماريا، لكن أكثر من تدين له الحمراء بجمالها وبهائها هو السلطان يوسف أبو الحجاج، الذي كان ملكًا شاعرًا وفنانًا موهوبًا، بنى معظم الأجنحة والأبهاء

الملكية، وأغدق عليها من روائع الفن والزخارف، وبنى باب الشريعة المدخل الرئيسي حاليًّا للحمراء، وتم الانتهاء من بنائه في عام ١٣٩١م الموافق ٧٩٢ هـ.

تصميم القصر

يحتوي قصر الحمراء على ثمانية أبراج تبقى منها حاليا ستة فقط، وأيضا خمسة أبواب لا تزال موجودة إلى يومنا، هذا من الخارج بينما من الداخل تتسم معظم أجنحة قصر الحمراء بالفخامة وعجائب الصنع النادرة الوجود في أي مكان آخر، ومنها فناء كبير يسمى بفناء الريحان تتقدمه ساحة البركة وهو فناء كبير مستطيل الشكل تتوسطه بركة المياه وتظللها أشجار الريحان الجميلة. وفي نهايته الشمالية يؤدي إلى بهو السفراء أو بهو قمارش، الذي يُعدّ أضخم أبهاء الحمراء سعةً، أضف إلى ذلك ارتفاع قبته الذي يصل إلى ٢٣مترا، ولهذا البهو شكل مستطيل أبعاده ١٨ × ١١مترا، وفيه كان يعقد مجلس العرش، ويعلو بهو السفراء برج قمارش المستطيل.

بينما الجهة اليمنى لساحة البركة في فناء الريحان تؤدي إلى باحة السرو المجانبة للحمامات الملكية والتي تضم غرفة فسيحة تسمى بغرفة الانتظار، زخارفها متعددة الألوان مع بروز اللون الذهبي ثم الأزرق والأخضر والأحمر وفي وسطها نافورة ماء صغيرة.

وفي شرق بهو البركة، تقع قاعة تسمى بقاعة الأختين لأن أرضها تحتوي على قطعتين من الرخام متساويتين وضخمتين. ومن بابها الجنوبي تؤدي قاعة الأختين إلى أشهر أجنحة قصر الحمراء "بهو الأسود"، وهو بهو مستطيل الشكل أبعاده ٣٥ × ٢مترا، تحيط به من الجهات الأربع أروقة ذات عقود، يحملها ١٢٤ عمودًا من الرخام الأبيض صغيرة الحجم، ولكنها كثيرة الجمال

والرشاقة وعليها أربع قباب مضلّعة، وفي وسط البهو نافورة الأسود الجميلة، وعلى حوضها المرمري المستدير إثنا عشر أسدًا من الرخام الجميل، تخرج المياه من أفواهها بحسب ساعات النهار والليل، وتمثل فوارات قصر الحمراء وجنة العريف نموذجًا متطورًا لما وصلت إليه إبداعات المسلمين في ذلك الوقت.

القصور الإسلامية بطبيعتها متشابهة في تصميماتها ومخططاتها، ولا يعني ذلك أن كل القصور متشابهة كليا، ولكن هناك سمات وخصائص لا يخلو منها أي قصر إسلامي، وهذا لا يرجع الى كونه فنا بقدر ما يرجع إلى كونه نوعا من العيش بالطريقة التي تخدم وتحترم عقيدة المسلم وأخلاقه حتى في الفن..

تميزت تلك القصور الإسلامية الشامخة، بالاتساع والرحابة وعظم المساحة التي تحتلها حتى أن بعضها قارب المدن بمقاساته، فقصر الزهراء مثلا (قرب قرطبة في الأندلس) تبلغ مساحته أكثر من خمسة وعشرين ألف مترا مربعا.. أيضا تميزت القصور الإسلامية بمساقطها المربعة الشكل، والأسوار العالية التي تحيط بها، والتي تعلوها أبراج ركنية وضلعية، دائرية أو نصفية، وتتميز أيضا بمدخل واحد يوصل إلى فناء مكشوف تحيط به كل المرافق، كالأروِقَة والمساكن والإسطبلات والسلالم والأحواض والنوافير التي تحتلّ أحيانًا وسط الصحن..

هذا من ناحية التصميم والمخطط الخارجي العام للقصور.. أما بخصوص الوحدات الداخلية للمبنى فقد برع المسلمون في استحداث طريقتهم الخاصة؛ فقد كانت الوحدات السكنية تصمم بطريقة استفرد بها المسملون وسمِّيت بـ "الطابع الشرقي"، فقد كانوا يعزلون بعض وحدات المبنى ويخصصونها للنساء (الحريم) وسميت بـ "الحرملك"..

أيضا كانت الفتحات المطلة على الطريق العام ضيقة صغيرة حفظا للأعراض وتسدها قضبان من الحديد، بينما كانت الفتحات العلوية ذات سعة وحجم مناسبين تحتوي على فتحات ضيقة مغطاة بمشربيات خشبية لحمايتها من أشعة الشمس.. واشتهرت أيضا القصور الإسلامية بالفسيفساءات الخارقة الجمال التي كانت فن العصور الإسلامية بامتياز، وكذلك الزخارف البديعة ذات الطلة الخرافية التي تأسر الناظر إليها؛ فقد كان من ميزات هذه الفنون أنها تلزم عين المشاهد بالحركة، أو بالحركة والتوقف ثم الحركة، فهي فنون تأخذ بيد المشاهد وتتجول به في جميع ردهات اللوحة، أو المساحة المزخرفة.. ومن المعلوم أن "الحركة" من مميزات الفن الإسلامي بشكل عام، لأنها – في الأصل – خاصية من خواص المشهد القرآني.

العمارة الإسلامية هي النتاج المعماري للحضارة الإسلامية، والتي شارك فيها العديد من الشعوب العربية والأعجمية. وعلى الرغم من تأثر العمارة بالمعطيات المحلية في كل منطقة من المناطق نجد هناك مظاهر مشتركة واضحة جاءت نتيجة الحضارة والفكر الإسلاميين.

العمارة الإسلامية ليست عمارة دينية فحسب، بل عمارة متنوعة مرتبطة بالحضارة الإسلامية، فهي لم تقتصر على المساجد بل شملت كل مناحي الحياة اليومية من قصور وحمامات ومدارس، والقصور الإسلامية – رغم قلتها – إلا أنها سجلت لنا تاريخ مدن وعواصم اندثرت فلم يبق منها سوى أطلال قصر يحكي لنا قصة من مر بها..

إذ جاءت عمائر تلك القصور على هيئة الحصون الصغيرة، حيث كانت تحيط بها أسوار مرتفعة مدعَّمة بأبراج ولها مدخل واحد مزود بحجرات أو أبراج

للمراقبة. أما من الداخل، فكان يتوسط تلك القصور صحون مكشوفة تحيط بها من الجوانب ملاحق ووحدات معمارية بعضها سكني وبعضها الآخر يضم القاعات والمجالس والحمَّام، إلى جانب ملاحق الخدمات. كذلك تمتاز عمائر تلك القصور باستخدام مواد بناء مختلفة منها الحجر المنحوت، والحجر الغشيم، والآجر، والجص.

أما من حيث العناصر المعمارية المتشابهة في عمائر تلك القصور، فإننا نجد العقود نصف الدائرية والعقود المتجاورة، والأعتاب، والقباب، والعقود المعمارية الطولية والعقود المعمارية المتقاطعة، والأعمدة والتيجان الكورنثية المستوحاة من العمائر الكلاسيكية.

ومن حيث العناصر الزخرفية المتشابهة أيضًا في تلك القصور، نجد الفسيفساء وقد استُخدمت بكثرة في الموضوعات الفنية وكذلك الفريسكو (التصوير الجصي).

كما نلاحظ أن جميع جدران الواجهة تتسم بكونها مزخرفة بشكل نحتي ثري، وتعد هذه الواجهة من أغنى النماذج الزخرفية التي قدمها الفنان المسلم في العصر الأموى، حيث يلحظ تنوع كبير في استخدام العناصر الزخرفية النباتية، والحيوانية، والآدمية، والهندسية.

كما زينت واجهة القصور بالنقش البارز، يمتد بين ناتئتين زخرفتا بأغصان نباتية، وهناك شريط طويل ينتظم حول خط متعرج. هذا الخط المتعرج الذي ينبثق عن أشكال من الفن الشعبي يقسم الفضاء إلى ثمانية وعشرين مثلثا رسمت بالتناوب على القاعدة وعلى رأس المثلث، وكل منها مزخرف على نفس الخطة

وأخرى تكون وردية تكون وسط تركيبة زخرفية تتداخل تبعا لشبكة هندسية، عناصر نباتية تقطنها حيوانات أحيانا.



(شكل قصر المشتى)

أما زخرفة الداخل فقد اهتم الفنان المسلم بزخرفة الأسقف والجداريات مستخدما الأشكال النباتية مدعمة بالأشكال الهندسية، وقد أدخلت بعض الصور الحيوانية والآدمية. وقد غلب على الموضوعات الفنية الطابع الساساني وبخاصة في النقوش والتماثيل. كذلك عُثر على مجموعة من القصور الأموية في سوريا؛ منها قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي، وقصر هشام في الرصافة. أما في شرقي فلسطين، فيوجد قصر هشام (خربة المفجر) قرب أريحا وقصر الوليد في خرْبة المنيا، عند طبرية.

وفي الحقيقة، فإن كافة تلك القصور تعبِّر عمارتها وكذلك زخارفها، عن الاستفادة الكبيرة التي حصل عليها العرب من فنون الأقطار التي فتحوها، وهي – في نفس الوقت – شاهد على عظمة فن العمارة الأموية المدنية في تلك الفترة.

اهتم العرب المسلمون ببناء دور الإمارة والقصور بعد أن اتسعت دولتهم وتوطدت أقدامهم في الأقاليم بعد الفتوحات الإسلامية، حيث خرجت فكرة الاهتمام بالمباني وخاصة القصور بعد أن خفت حدة الفتوحات الإسلامية، وبعد أن أخلد معظم العرب الى الاستقرار، ولم تخرج هذه الفكرة الى حيز الوجود إلا في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، حيث بدأت الثروات تتدفق من كل صوب، وبدأ العرب يخرجون من بداوتهم ويستبدلون بدورهم القديمة البسيطة قصورا فخمة، منمقة الجدران وموزونة الأبعاد ويمثل هذا الاهتمام في اختيار مواقعها وتوظيف أفضل الخبرات لتصميمها وبنائها واستخدام أحسن وأمتن المواد الانشائية لتشييدها، فكانت القصور ودور الإمارة تجاور جوامع المدن الإسلامية الأولى في البصرة والكوفة في حين احتلت القلب أو المركز في واسط ومدينة بغداد وأصبحت الجوامع هي المجاورة لها، أما القصور الخاصة فكانت تقع في أغلب الاحيان على أطراف المدينة، وكانت تلك الأبنية بيوت راحة ونزهة وصيد وكانت ذات استعمال شخصي بالدرجة الأولى.

وتبلورت هذه الاتجاهات بشكل واضح في العصر الأموي وخصوصًا في منطقة بلاد الشام، حيث حرص رجالاتها على ألا يكون مظهرهم أقل من مظهر الأعاجم على حد تعبير معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة، فالأمويون كانوا من السباقين في استخدام هذا النوع من المباني وهو القصور، وأصبحت في عهد الأمويين ومن أتى بعدهم قصوراً كثيرة الأبنية، أسوارها مرتفعة وأبوابها عديدة حتى بلغت العشرة أبواب فأصبحت تشمل على أبهاء واسعة وقاعات عظيمة للجلوس ذات أعمدة عرفت باسم الإيوان، ودهاليز ودور خاصة للخلفاء وعائلاتهم ومستخدميهم وحريمهم.

وتخطيط القصور في العمارة الإسلامية متشابهة، فمسقطها مربع يحيط بها سور تعلوه أبراج ركنية وضلعية دائرية أو نصف دائرية لها مدخل واحد يوصل إلى فناء مكشوف تحيط به كل المرافق كالأروقة والمساكن والسلالم والأحواض، وقد تميزت تلك الأبنية بالاتساع والرحابة وكادت تقارب المدن بمقاساتها فقد بلغت مساحة قصر الزهراء خمسة وعشرين ألف مترا مربعا.

تعد القصور الإسلامية نماذج رائعة للبناء المتين والزخارف الجميلة والذوق الرفيع؛ فقد حوت أجمل ما في العمارة والجمال من رسوم للجدران والمقرنصات والخزف والبرك والواحات والشبابيك والسقوف بألوانها المميزة وأشكالها الأنيقة، وانتشرت تلك القصور في أرجاء المدن الإسلامية وبواديها.

كانت قصور الخلفاء الأمويين في البوادي حيث يقيمون فيها لبعض الوقت للاستجمام فاهتموا بإنشاء القصور المزينة بالزخارف النباتية والهندسية والصور والتماثيل، وتمثل قصور الأمويين التي بنوها في بادية الشام الفن الإسلامي في شكله المدني، ومن المرجح أن هندسة هذه القصور تجمع بين الفن الروماني والغساني والفارسي.

وما يؤكده المعماريون أن القصور الأموية بنيت وفق شكل معماري متماثل في كثير من تفاصيله التي تبدأ من السور المحيط بالمبنى ثم الصحن الداخلي الذي تشرف عليه أروقة تعقبها غرف في طبقة واحدة أو طبقتين. وما يميز فن العمارة الأموي هو أصالته في النشأة المأخوذ من التقاليد العربية والظروف المناخية.

ومن أشهر قصور الأمويين قصر عمره المنسوب إلى الوليد بن عبد الملك ويقع على بعد مائة كيلو مترا شرق عمان وفي هذا القصر تظهر آثار فنون ما قبل الإسلام البيزنطية والساسانية وخصوصاً في زخرفة التصاوير البشرية على

الجدران وهو مكون من طابق واحد ويقسم إلى قسمين قاعة الاستقبال وأفنيتها والحمام وأفنيته. ومنها قصر (خربة المفجر) ويبعد حوالي خمسة كيلو مترات شمال أريحا بناه عبد الملك بن مروان ويتميز بسعته وينفرد بأساليب معمارية فنية لايوجد لها مثيل في سائر القصور فهو يتكون من ثلاثة أبنية ضخمة هي مبنى السكن ويشمل قاعة البلاط وغرف الإدارة وغرف الحريم ويتوسطها بناء مكشوف ومسجد الصلاة، والحمام.

والقصر مؤلف من طبقتين بدون فتحات خارجية، وامتاز بزخارفه الفسيفسائية المؤلفة من مكعبات حجرية ملونة تشكل صوراً وزخارف رائعة التصميم والتنفيذ، كما يحتوي على منحوتات حجرية لتماثيل رجال ونساء موجودة في المدخل المسقوف. ومن روائع القصور الأموية قصر المشتى الذي ينسب إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ويقع في الصحراء الأردنية قرب عمان ويتألف من مجلس أمامي مزود بغرف جانبية وفناء كبير يتوسطه حوض ماء وتتوزع من القاعة الرئيسية ثلاثة أروقة تمتد عمودية على الجدار الرئيسي وللقصر بوابة واحدة وهو مبني من الآجر المشوي أما واجهة القصر ففيها زخرفة فنية رائعة. وقصر الحير الغربي قرب تدمر المنسوب إلى هشام بن عبد الملك وهو أشبه بالحصن له سور عال مزود بالأبراج وفيه زخارف متنوعة ذات رسوم هندسية ونباتية.

وهناك قصور أخرى تشهد إلى ما وصل إليه الأمويون في الفن المعماري وتشترك جميع هذه القصور في تصميم واحد تقريباً لا يختلف إلا في التفاصيل وهي مشيدة بالحجارة، وتتميز بكبر حجمها ومتانة جدرانها، كما توفرت فيها وسائل الراحة والرفاهية من حمامات مزودة بغرف الاستحمام بالماء البارد والساخن وهكذا أصبحت البادية عامرة بهذه القصور وغيرها كثير.

وفي العصر العباسي زاد الاتصال بالحضارات المختلفة، فزاد الاهتمام بالعمارة وزخرفتها، واشتد اهتمامهم ببناء القصور الفاخرة، مثل: قصر الخليفة المعتصم في مدينة سامراء، وقصر المأمون، وغير ذلك. وهكذا نجد تمازج العمارة الإسلامية في العصر العباسي بالعمارة في الحضارات الأخرى والإهتمام بالزخرفة والإسراف في بناء القصور وتشييدها، مما يعد تطورًا لا يتمشى مع روح الاعتدال والبعد عن الإسراف الذي برز في العهد الإسلامي المبكر.

وفي العصر المملوكي (البحرية والشراكسة) اهتموا أيضًا بعمارة القصور، وكان اهتمامهم بالتلوين واستخدموا ألوان الحجر الطبيعي وألوان الرخام أو الآجر ومواد البناء (المونة) الملونة كتزيين خارج البناء بألوان محدودة أهمها البني والغامق والأحمر والأسود، أما الواجهات فهي مخططة بمداميك متناوبة.

وقد حرص المماليك على إقامة مساكن لأُمرائهم بداية من القرن الثالث عشر الميلادي حول مقر الحكم وسكن السلطان أو الحاكم وذلك كان خلال العصرين المملوكي والعثماني وحتى منتصف القرن التاسع عشر، وفي العصر العثماني بنى العثمانيون عددًا كبيرا من القصور الفخمة، والتي تجلى فيها الإسراف بشكل واضح، وخاصة تلك القصور التي بنيت في تركيا واسطنبول مركز الحكم العثماني، حيث قام العثمانيون بالاستعانة بأفضل المعماريين والفنانين في بناء قصورهم، كما أنهم قاموا باستخدام الذهب في قصورهم، فبلغت درجة عالية من التبذير والبذخ المبالغ فيها، حتى وصلنا إلى عصر الأسرة العلوية المعروف عنه بعصر الازدهار في التشييد والبناء حيث تمت الاستعانة بالمعماريين الأجانب على غرار العصر العثماني حتى وصلت فخامة قصورهم على الشكل الذي نراها عليه الآن.

وخلاصة القول أن فهم أسس العمارة الإسلامية أمر ليس بالسهل اليسير، ولكنه ممتع ومشوق إلى درجة كبيرة وخاصة للباحثين عند دراسة العمارة المدنية الإسلامية. والمتتبع للآثار العربية الإسلامية يرى عظمة تحير معها الأفهام إلى ما وصل إليه الفن المعماري في عصور النهضة.

هذا يؤكد ما ذهبنا إليه أن الفن المعماري الإسلامي هو الفن الوحيد الذي انسجم أولاً مع التقاليد والمناخ ومع ضرورات الوظيفة وشروطها، وكان بهاء الفن والزخرفة مما نراه واضحا في الآثار المكتشفة في مناطق هذه القصور وما حولها.

وتعد القصور الإسلامية من ضمن أجمل وأعظم المعالم المعمارية في العالم تذخر بها الكتب والتاريخ، على الرغم من قلتها وندرة آثارها الآن وذلك لأن استمرار وجودها يقترن باستمرار وجود بانيها. فهي بذلك عكس المساجد ذات الوظيفة المستمرة، وقد مرت على العديد من هذه القصور يد التهديم والتشويه، وكانت من ضحايا الهبة الغربية الشرسة ضد الديار الإسلامية، فقلت بقاياها لاسيما ضمن المدن؛ فعلى الحكومات والهيئات المستقلة العالمية العمل على ترميم ما تبقى من تلك القصور؛ فهي الشاهد على نهضة تلك العمارة خاصة، وأنها امتازت بالتشكيل والتصميم الهندسي الرائع، فحملت بين ثناياها جمال الزخرفة سواء النباتية أو الهندسية مع التناسق الجمالي فكانت من إبداعات العمارة الإسلامية



قصر عمره



موقع قصر الأبلق – دمشق



موقع قصر خربة المفجر

المراجع:

- العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها – فريد محمود شافعي – جامعة الملك محمد بن سعود ١٩٨٢.

- العمارة فى صدر الإسلام – كمال الدين سامح – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٧١.

- العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية – عبد القادر الريحاوى – دار البشائر للطباعة والنشر ١٩٩٩.

- الفنون الإسلامية – م. س . ديماند – ترجمة أحمد محمد عيسى – دار المعارف بمصر ١٩٨٢.

- القصور الأموية – محمود العابدى – عمان ١٩٥٨ .

- القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية – د. ثروت عكاشة – دار الشروق ١٩٩٨ .

- فتوح البلدان – البلاذرى – دار ومكتبة الهلال– بيروت ١٩٨٨ .

– فنون العمارة الإسلامية وخصائصها فى مناهج التدريس – د. عفيف بهنسى – المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ٢٠٠٣ .

– فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية – نعمت إسماعيل علام – دار المعارف ١٩٩٨ .

– مروج الذهب ومعادن الجوهر – أبو الحسن المسعودى – تحقيق مُحَمَّد هشام النعسان ، عبد المجيد طعمة حلبى – دار المعرفة للطباعة والنشر ٢٠٠٥ .

* كاتب الدراسة باحث في التراث المعماري الاسلامي وله عدة مؤلفات في هذا المجال .

القصور الأموية في الشام

أُصولُها، واعتباراتها السياسية والاقتصادية

هاينز غاوبه*

١- الموقع:

في الصحراء السورية – الأردنية، وعلى حواشيها الغربية، تقع وتنتشر خرائب أكثر من عشرين مبنىً مما صار يُعرف بالقصور الصحراوية.

وقد اكتُشفت بعضُ هذه المباني في القرن التاسع عشر من جانب رحّالة أوروبيين ووُصف جمالُها ورومانسيتُها وسط ذاك المحيط البلقع أَو المُعادي، دون أن يخطر لهم السؤال عن أصولها أَو عن وظائفها في تلك القفار(١). وظل الوضع على هذه الحال حتى مطلع القرن العشرين حين أتى إلَى تلك النواحي المستعرب النمساوي ألواس موزيل(٢)، الذي أجرى بحوثاً مستفيضةً عن بدو سورية والأردنّ، واكتشف أهمَّ تلك القصور المعروف بقُصير عمرة؛ فكتب بحوثاً أورد فيها السؤال بشأن أُصول القصور الصحراوية. وهكذا فقد كان كتابه (قصير عمرة) الصادر عام ١٩٠٧م خطوةً أولى واسعة في التعرف على الفن الإسلامي المبكر، وفي استكشاف تاريخ بلاد الشام فيما بين القرنين الخامس والثامن للميلاد. وعلى خطى موزيل سار أرنست هرتسفيلد(٣) الذي كتب مقالتين عن أصول الفن الإسلامي. ثم في (العام ١٩١٠م) كتب هنري لامنس(٤) دراسته: (البادية والحيرة في ظل السيطرة الأُموية)، والتي حاول فيها تقديم شروحٍ وإيضاحاتٍ ثقافية وسوسيولوجية وتاريخية لقصور الصحراء. ويتوافق موزيل وهرتسفيلد ولامنس على نسبة بناء تلك القصور إلَى الأمويين

الذين أقاموا إمبراطوريةً امتدت ما بين المحيط الأطلسي والهند. في حين يؤرّخها آخرون بين القرنين الرابع والتاسع للميلاد. وفي العقود الأخيرة اكتُشفت كتاباتٌ، كما جرت العودة للمصادر الأدبية، وللفن المعماري الذي بدا في تلك القصور والتزيينات الظاهرة في قاعاتها، ويشير ذلك كلُّه بالفعل إلَى أنّ تلك المباني من صنع الأُمويين أَو تعود إلَى فترتهم.

٢- نظرياتٌ بشأن الوظائف:

ليس هناك اتفاقٌ بين الباحثين بشأن وظائف تلك القصور، كما ساد بشأن حقبة بنائها. فحتى الثلاثينات من القرن العشرين، ذهبت أكثرية الباحثين إلَى أنّ الأمويين استخدموا تلك القصور للنزهة والراحة والاندفاع في المسرات، بعيداً عن صخب المدينة. وما وافق المستشرق الفرنسي جان سوفاجيه(٥) على هذا التفسير بشأن المقر الريفي أَو الصحراوي، في مقالٍ أول (عام ١٩٣٩م)، ثم في دراسةٍ نُشرت بعد وفاته (عام ١٩٦٧م). فقد ذهب سوفاجيه إلَى أنّ المباني الثلاثين التي أحصاها ودرسها من الداخل والخارج، إنما كانت مراكز لمستعمراتٍ أَو مستقراتٍ زراعية، أراد البُناةُ من خلالها إعمار بلاد الشام والاستغلال الزراعي والنباتي.

إنّ ما أودّ القيامَ به هنا إنما ينحصر في إلقاء ضوء على ظروف البادية في الأزمنة القديمة، والتي كانت ذات أهميةٍ خاصةٍ لبلاد الشام في العصر الأُموي. فالحزام الزراعي في سورية الداخلية باتّجاه الشرق، كان إجراءً قامت به الإدارة الرومانية الإقليمية. إذ بين (عامي ٧٥ و ١٠٦م) جرى بناء طريقٍ تجاري طويل من خليج العقبة إلَى بصرى ودمشق وتدمر وإلى سورا على الفرات. وعلى طول هذا الطريق الذي يمر بمناطق صحراوية شاسعة جرى بناء الآبار والمسالح(٦).

وفي القرن الثالث الميلادي، وبخاصةٍ خلال حكم ديوكلتيان (٢٨٤–٣٠٥م) جرى بناء شبكةٍ من الطرق غربي خط دمشق – الفرات(٧). ومن خلال هذا الإجراء كان ديوكلتيان وخلفاؤه يستجيبون للتحدي الذي برز بقيام الدولة الساسانية بإيران (عام ٢٢٦م). وما كان ممكناً مقاومة خيَّالة تلك الدولة الفتية بخط دفاعٍ واحد. ولذلك فقد صارت الاستراتيجية لحماية سورية تتمثل في التحصينات والطرق القوية وأبراج المراقبة والمراكز المسلَّحة وآبار المياه والقرى المحصَّنة. وقد سُمّي ذلك النظام (حدود خانقين)، والمعنيُّ بها قنَّسرين العصور الوسطى الإسلامية، والتي كانت تقعُ وسط ذلك الطريق، كما صار يُعرف حوالي (العام ٢٦٥م)(٨). وقد أدى هذا الطريق إلَى مدّ الحزام الزراعي في سورية الداخلية؛ لأنّ المقصود ما كان مدافعة الفرس فقط؛ بل وحماية الحواضر من هجمات البدو الذين كانوا يتمددون بمواشيهم ومراعيهم إلَى الغرب من خط دمشق – سورا. وهكذا فيما بين القرنين الرابع والسادس للميلاد بُنيت القرى في كل مكان، واخضرّت كلُّ قِطَع الأرض التي أمكن استصلاحُها في تلك الفيافي. وظهرت مراكز تلك الحواضر الصغيرة المزروعة في السهوب شرق حماة وحمص وجنوب شرق حلب وجنوب دمشق، حيث كانت مآخذ المياه والتربة تسمح بإقامة زراعةٍ شبه دائمة. وهذه المراكز ما جرى إعمارها باستقدام أُناسٍ فلاحين من الخارج، أي من الأرمن؛ بل من طريق استقرار البدو، أي العرب(٩). وقد شكّل هؤلاء وسيطاً بين سكان سورية الداخلية، وسكّان البادية والمترحلين في أرجائها. وقد ساعدت تلك الاستراتيجية في حماية سورية كلها. إذ أُقيمت معسكرات ضخمةٌ للجيوش على مقربة من الحواضر. أما مناطق البوادي وجوارها فقد انعقدت فيها اتفاقات مع شيوخ القبائل لضبط البدو، وللدفاع عنها في وجه الفُرس إن أرادوا الهجوم. وخلال مائتي عام، ورغم اختراقات إيرانية متعددة، فقد أمكن الاحتفاظ والتطوير لعشراتٍ من القرى

والبلدات في ذلك الجزء المزروع حديثاً من سورية. وقد قمتُ باختبارٍ لمدى نجاح تلك السياسة الطويلة المدى من على جبل حَسّ جنوب شرق حلب، فعلى مساحة ٣٠×٣٠ كلم عثرتُ على الخرائب التالية:

– ٤ مدن، كلها على سفوح تلك الجبال.

– ١٧ بلدة أَو قرية كبيرة، على السفوح أَو في السهول.

– ١٦ قرية صغيرة.

– ١٤ مركز أَو معبد منتشرة في شتى الأنحاء.

في هذه الأجزاء من شرقي سورية، ظهرت ثقافة هي مزيجٌ من البيزنطية والسورية والبدوية. ومن خلال هذا المزيج المتكون، يستطيع الباحث تعليل التعريب السريع لسورية، بحيث إنّ الأُمويين وطوال قرنٍ من الزمان، ما كانوا يخشَون اضطراباتٍ داخلية. وأقدم كتابةٍ بالخطّ العربي وجدناها في شرق سورية، وليس بداخل الجزيرة. فالنقش العربي –السرياني– الإغريقي المعثور عليه بزَبَد في جبل شُبيط يعود (للعام ٥١٢م). وهذا النقش بالذات دليلٌ على ذلك الامتزاج بين الحضارات الثلاث. والملحوظ أنه في كل الكتابات التي تظهر بشرق سورية قبل الإسلام، وفي صدر الإسلام؛ فإنّ العنصر السرياني يتقدم على العنصرين الآخرين، حيث كانت السريانية هي اللغة المستعملة في الكلام والكتابة. وهذا الأسلوبُ الممزوج هو الذي يظهر أيضاً في العمران. أما اقتصادُ تلك النواحي فقد تميز بحقول القمح والشعير والأعناب. وما تزال آثار تلك المدرجات لزراعة العنب ظاهرةً على سفوح جبل حسّ وجبل شُبيط. وقد جرت هناك تربية الأغنام والماعز والخيول. وكانت فوائض المحصول تُصدَّرُ إِلَى سورية الداخلية والساحلية، ومن هناك يجري استيراد الزيتون والزيت. وقد تعرض ذلك

العالم الهانئ للانهيار تدريجياً في القرن السادس الميلادي حين تحطم التحالف القبلي الذي كان يتزعمه الغساسنة. وبين (عامي٦١١ و٦١٤) اجتاح الساسانيون سورية وخرَّبوها وضربوا اقتصادها الزراعي والرعوي ضربةً قاسية. وفي (العام ٦٣٦) جرت معركة اليرموك التي أخرجت البيزنطيين من بلاد الشام. وحتى (العام ٧٥٠م) ظلت دمشقعاصمةً للدولة الأموية.

٣- دور البدو في تاريخ سورية

البدو السوريون: اعتُبر الأُمويون الدولة العربية الوحيدة خلال التاريخ الإسلامي الطويل(١٠). وقد اعتُبرت كذلك لأنّ المواقع الرئيسية في الدولة كانت بيد العرب. بيد أنّ الدولة كانت في الحقيقة سوريةً/عربية. فكُلُّ الموارد كانت تصب في العاصمة دمشق. وكان البدو السوريون المنتشرون بين الفرات والبحر الأحمر العمود الفقريَّ لجيش الدولة. وهم ما ظهروا من العدم. إذ طوال القرون الأربعة قبل الإسلام كان البدو قد أصبحوا مكوّناً رئيسياً من مكوّنات المجتمع هناك. وقد ساعدت سياسات الأُمويين المتسامحة تجاه سكان البلاد الأصليين، إلَى سرعة الاندماج بين مختلف العناصر، فعاد الازدهار الذي ظهر أيام الرومان والبيزنطيين. لقد اعتمدت العلاقات الطيبة بين البوادي والحواضر على حصول البدو على حصتهم العادلة من الثروة بحيث يحجمون عن التعدي على القرى والفلاّحين والمدن. وبعد اختفاء دولة تدمر (عام ٢٧٢م) صارت العلاقةُ مباشرةً بين الرومان والبيزنطيين من جهة، والبدو من جهةٍ أُخرى. وصرنا نسمعُ تسمية الفاتحين للزعماء البدو بالبطريق، وتسمية المصادر العربية لهم بالملوك. وفي القرن الرابع عاد الغساسنة للعب الدور الذي كانت تلعبُهُ تدمر من قبل، وصاروا بسبب سيطرتهم بمثابة البوليس، والحاجز الفاصل بين البدو الرعاة والقرى والحواضر(١١). وبذلك فقد تشكّل متحد متضامن بين الطرفين،

وعاد لقب البطريق إلَى العرب الغسّانيين. وقد كان أُمراؤهم يملكون دُوراً بداخل المدن، كما يملكون مراكز صيفية ورعوية في الجولان، كما أنهم صاروا رُعاة وحُماة الفرقة المونوفيزية المسيحية في سورية. وقد صار لهم نفوذٌ حتى داخل البلاط بالقُسْطنطينية، بحيث ظل المؤرخون يتذكرون زيارة الحارث بن جَبَلة الغسّاني للبلاط أيام جوستين الثاني (٥٦٥–٥٧٨م). وعندما جُنّ جوستين، كانوا يعمدون لتهدئته وتخويفه بالقول: الحارث قادم(١٢)!.

الغساسنة: لا نكاد نعرفُ شيئاً عن البطارقة العرب الأوائل. أما الأخبار عن الغساسنة فهي مُتاحةٌ في المصادر البيزنطية والعربية. ويبدو للدارسين أنّ التحالف القبلي بزعامة الغساسنة لم يختلف عمّا نعرفُهُ من تحالفاتٍ مشابهة في القرن التاسع عشر؛ حيث كانت مجموعات من القبائل تلتف حول أُسرةٍ أَو بطنٍ قبلي، ويصبح زعيم البطن متحدثاً باسمهم وممّثلاً لمصالحهم، وقائداً في المعارك. وبسبب القوة التي امتلكها الغساسنة، وامتداد مساحة نفوذهم، فقد صارت لهم مراكز استقبال وقصور ودُور في سائر مناطق نفوذهم – شأن الإمبراطور في العصور الوسطى الأوروبية. وهذا هو التعليلُ الوحيد لتلك الكتابات المنتشرة عنهم على الصخور من الفرات وحتى جنوب سورية الحالية؛ رغم أنّ مراعي غسّان ما كانت تتجاوز الأجزاء الجنوبية من المنطقة. وبعض تلك الكتابات منفردة أَو على الصخور كما سبق القول، بينما بعضُها الآخر موجودٌ على أبنية مثل ذاك الذي في الرُصافة على مقربة من الفرات، والآخر الذي في الحيّات بجنوب سورية.

أبنية الغساسنة: كان المعتقد أنّ البناء الذي له بقايا في الرصافة(١٣) ما هو إلاّ كنيسة. بيد أنّ سوفاجيه الذي لاحظ الكتابة على المدخل والتي تقول: ليَحْيَ المنذر! الذي كان البطريق بين (عامي٥٦٩ و٥٨٢م)؛ قال: إنّ هذه

الكتابة لا تليقُ بأن تكونَ فوق المذبح، وهي تشبه المباني الرومانية التي تُبنى للاستقبالات(١٤). فلابد أن تكون هي قاعة استقبال المنذر. وفي (عام ٥٧٥م) جاءت بعثةٌ بيزنطيةٌ لزيارة المنذر، الذي طلب إليهم المجيء إلَى الرصافة، ولابد أن تكون القاعة هذه هي التي استقبلهم فيها.

أمّا الحيّات، فهي منزل فلافيوس سوس الذي كان قائد حرس المنذر. وللمبنى طبقتان، وله أسوار نحو الخارج. وهو يذكّر في هندسته ببعض قصور الأمويين الصحراوية، وبخاصةٍ ذاك الواقع شرق الحيّات: خربة البيضاء.

خربة البيضاء(١٦): مبنىً في الصحراء تماماً، يتكئ على تلٍ من الخرب، وهو مفتوحٌ على الشرق، على وادٍ تتفجر فيه المياه في موسم الأمطار. وليس للمبنى تاريخ، لكن لابد أنه بُني أيام الغساسنة. وهو طابقٌ واحدٌ، ينفتح على باحة داخلية، ومن حولها أجنحة في كلٍ منها ثلاث غُرف أَو أربع. ومن الخارج تشبه خربة البيضاء حصناً بيزنطياً، مثل خان منقورة شمال شرق دمشق. وهكذا فهي خيمةٌ لكنها مبنيةٌ بالأحجار.

عندنا إذن نموذجان: قاعة الاستقبال في الرصافة، وخربة البيضاء. وكلا المبنيين يطلاّن بنا على ما عُرف فيما بعد بقصور الأُمويين في الصحراء. ويمكن استناداً إلَى مثَليهما الذهاب إلَى أنه بين الرصافة ودمشق كانت توجد فيما بين (عامي ٤٠٠ و ٦٠٠م) عدة دور وقصور لها هذه الوظيفة.

٤- الأُمويون في سورية

الغساسنة – الأُمويون: خلال الفترة السابقة على الفتح العربي لسورية، كثرت النزاعات بين البيزنطيين والغساسنة مما أدى إلَى إضعاف الأخيرين. وفي معركة اليرموك وبعد الهزيمة لجأ الغساسنة إلَى الأراضي البيزنطية؛ فانحلَّ تحالُفُهم،

وبرزت عليهم القبيلة الكبيرة: كلب بن وبرة(١٧). كانت مواطن كلب في نواحي تدمر، وهي قبيلةٌ مسيحيةٌ في معظمها. وقد تزوج منهم الخليفة الأموي الأول معاوية (٦٦١-٦٨٠م). وميسون الكلبية هي أمُّ ابنه ووريثه يزيد (٦٨٠-٦٨٣م). وقد كانت لكلب البدوية تقاليد حضرية كما سبق أن قدمنا؛ في حين أنّ خصمها التحالُف القيسي، والذي جاء إلَى الشام في سياق الفتوحات، وربما تملك بعض المراعي مما خرَّبه الفرس وأخْلَوهُ (٦١١-٦١٤م). لكن عندما نشأت الدولة الأموية، وجد القيسيون أنفسهم بدون مجال؛ في حين ثبت تحالف كلب مع الأُمويين. ولذلك فقد انتظر القيسيون الفرصة وثاروا على الأُمويين مع عبد الله بن الزبير. ولملم اليمنيون بزعامة كلب وابن بحدل صفوفهم وأتوا بمروان الأول إلَى سدة السلطة. والتقى الطرفان المتصارعان بالجابية، مصيف الغساسنة قبل الإسلام. ولا ينبغي أن نفهم تحزب ابن بحدل للأمويين على أنه مسألة مبدأ؛ فقد كان أقوى العرب منذ أيام معاوية، ولو سقط الأُمويون فلن يتبقى له شيء. ويذكر المسعودي (وليس من الضروري أن يكون ذلك تاريخياً) أنّ معاوية جعل زعامة اليمانية في أخلاف ابن بحدل. لكن على أي حال؛ فإنّ ذلك التحالف خَطَفَ التحالف الغسّاني قبل الإسلام. وقد انتصر اليمنيون على القيسيين، وصاروا بزعامة الأسرة الأُموية ليس حُماة المُلْك بالشام فقط؛ بل وحُماة الإمبراطورية.

منازل الأُمويين

عبد الملك: كان على عبد الملك أن يستخدم تكتيك الغساسنة في السيطرة على القبائل، أي أن يملك مواطن للإقامة في مناطقهم. وفي الواقع فإنّ عبد الملك هو الأُموي الأول الذي ملك قصوراً متعددةً في سائر أنحاء حواشي البادية وتخومها. وكان يقضي الشتاء على مقربة من بحيرة طبريا ثم يتحرك إلَى

الجابية، وفي آذار وحتى نوّار كان يقيم على مقربة من دمشق، أما شهور السنة الحارة فيقضيها في بعلبك. ثم يعود إلَى دمشق في الخريف، ليغادر العاصمة إلَى طبريا بعد ذلك خلال الشتاء(١٨). وقد يمكن تعليلُ ذلك بحالة الطقس؛ لكنّ السبب ليس كافياً. فالصحيح أن الرجل كان يتنقل بين مراكز القبائل اليمنية فالقيسية. وكانت البطون التي يقيم في وسطها لفترةٍ كلَّ عام من البطون الهامشية في القبائل.

الوليد

قصر بُرقُع: وتغيرت مراكز التنقل والإقامة أيام الوليد بن عبد الملك. فالوليد ابن امرأةٍ قيسية، وقد بنى قصوره الصحراوية وسط مراعي أقوى القبائل القيسية والأُخرى اليمنية. وعندما كان الوليد ما يزال وليَّ عهد، فقد بنى حصناً صغيراً هو قصر بُرقُع(١٩) على مقربةٍ من برج مراقبة روماني، على شاطئ بحيرةٍ صناعيةٍ في عمق الصحراء. وقصر برقع هو الأقصى شرقاً بين القصور الأُموية حتى اليوم. ورغم صِغَر القصر، فهو يُظهر المعالم الرئيسية الظاهرة في خربة البيض: القاعة المركزية، والفناء الداخلي الذي تحيط به من الناحيتين الغُرف المربَّعة الثلاثة أَو الأربعة من الجانبين.

قُصير عمرة(٢٠) يقع القصر شمال شرق عمّان. وهو يتكون من قاعة استقبال وحمّام. ويبدو أن البناء شُيِّد في النصْف الثاني من خلافة الوليد بن عبد الملك بعد (عام ٧١٠م). ويتكون المبنى من ثلاثة أجزاء رئيسية:

١- بئر وخزان مياه.

٢- حمام على النمط السوري - البيزنطي.

٣- قاعة كبرى مثلثة الأضلاع، مزينة برسومٍ وترقيشات.

وتشير بعض تلك الرسوم إلَى الوظيفة الأصلية للقاعة. ففي الجدار الأوسط رسمٌ للخليفة جالساً على العرش، وفوقه كتابةٌ تدعو له، تشبه كتابة (ليحيَ المنذر) في الرصافة. وعلى الحائط الشمالي رسومٌ للملوك الذين هزمهم المسلمون، وبينهم الشاه الفارسي والإمبراطور البيزنطي، الذي ينظر إلَى الخليفة بهيئةٍ ضارعة. والقائم هذه كانت قاعة استقبال. ومثل قاعة المنذر بالرصافة يجلس الخليفة هنا في مقابل الباب يستقبل ضيوفه، حيث يتحدث إليهم ويتفاوضُ معهم.

قصر خرانا: وليس بعيداً عن قصير عمرة، يظهر قصرٌ آخَرُ يبلغُ العُمُرَ نفسه(٢١). وهو يشبه النمط الثاني من أنماط الأبنية السورية – الأردنية، وهو قصرٌ محصَّن مثل خربة البيضاء. وفي الخزانة طابقان، وغرفُةٌ حول الباحة الداخلية على الجانبين مكوَّنة من أربع أَو خمس واثنتان من تلك الغُرَف فيهما تزيينات بالجصّ، وهما تُظهران مزيجاً من الأسلوب السوري والإيراني.

جبل سَيسْ: يختلف قصر الوليد بن عبد الملك في جبل سيس عن القصور الأُخرى(٢٢). فهو يقع على مقربةٍ من دمشق بجانب مستقرْ غسّاني فيه كتابة. ويتضمن المجمع حماماً ومسجداً ومخازن وأماكن للخدم. ويتضمن ذلك الموقع ما يشبه الواحة التي فيها مياه، أي أنه مكانٌ مثاليٌّ لمراعي البدو، التي يأتي إليها الخليفة للاختلاط برعيته وجنده. ويتكون القصر من طابقين، ويبلغ حجمه أربعة أضعاف قصر الخزانة. ومثل الخزانة من حول الباحة الداخلية هناك الغرف أَو البيوت. لكنها في قصر جبل سيس تمضي شمال/جنوب. وتقع في الجهة الجنوبية قاعة الاستقبال. وهكذا فإن كل أبنية الوليد الأول هي منازل للإقامة المؤقتة

والاستقبال. إنه ملك البدو، الذي يأتي للاختلاط بشيوخ القبائل، في مواطن رعي مواشيهم وحركتهم. وقد بدأ هذا التقليد أيام الغساسنة والبيزنطيية وتطور واتسع أيام الأمويين مع الاحتفاظ بالوظائف نفسها.

٥- ما بعد الوليد الأول

هشام: يبدو أنه جرى إهمال هذه الأبنية وهذا التقليد بعد عبد الملك والوليد. فقد ورث الأمراء دولةً شاسعةً ومستقرة، وما وجدوا أنهم يحتاجون لفعل المزيد أَو حتى للاحتفاظ بما فعله الأسلاف. فنادراً ما أقام هؤلاء بدمشق، بل ظلوا يتنقلون في المقرات التي بناها أسلافُهُم في الرملة والرصافة ومواطن أُخرى. وما تنبه هؤلاء إلَى أنّ أُسرةً من أقاربهم، هي الأسرة العباسية، استقرت بالسلمية على طرف البادية، وبدأت دعايةً وسلوكاً ما لبثا أن أسقطا الأُمويين بعده ثلاث سنوات من وفاة الوليد بن عبد الملك.

وما نظر الأمويون المتأخّرون إلَى ميراث أسلافهم للبناء عليه؛ بل حاولوا تقليد الحصون والقصور الماجدة التي رأوها لدى الساسانيين والبيزنطيين. فلو تأملنا القصور التي بنوها لوجدنا أنها تقطعُ مع مباني عبد الملك والوليد. وخير مثالٍ على ذلك ما فعله هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣م) والوليد الثاني (٧٤٣-٧٤٤م). فقد أدى الإنفاق الهائل على تلك المباني إلَى إفلاس خزينة الدولة، بحيث وعد خليفة الوليد الثاني (يزيد بن الوليد) أن يتوقف عن القيام بأبنية جديدة. ونادراً ما أقام هشام بدمشق، بل اتخذ من الرصافة مقراً له. حيث نجد بقايا مسجد(٢٣)، وقصر صغير. وبالإضافة لذلك بنى هشام قصر الحيرة الشرقي، وقصر الحيرة الغربي.

قصر الحيرة الشرقي: يقع قصر الحيرة الشرقي(٢٤) في مكان بناءٍ بيزنطيٍ قديم. ويتضمن وسائل للتروية، وسط واحة حجمها ١٠ كيلومتر، وهو يتكون من مبنيين. ويشبه من بعض الوجوه قصر جبل سَيس، لكنّ البيوت مرتبة بشكل مختلف. أما الجدار الشاهق والطويل فيبدو أنّ المقصود به كان جمع المياه من ورائه.

قصر الحيرة الغربي(٢٥): هو مبنيٌّ أيضاً بجانب أثرٍ قديم. والأثر القديم ربما كان ديراً غسّانياً. وله أقنيةٌ تحت الأرض من أجل الإمداد بالمياه، وأبنية أُخرى ملحقة لأغراض الخدمة، وطاحونة مياه، وخان، وحدائق.

ما بعد هشام: ظلت الأغراض الزراعية مرعبةً في أبنية هشام. وليس الأمر كذلك في قصري الوليد الثاني: طوبى(٢٦)، والمشتى(٢٧)، اللذين كان الغرضُ منهما اللهو والاستمتاع وإظهار الفخامة والعظمة. وما اكتمل القصران لأنّ الخليفة قُتل قبل ذلك. بيد أنّ قصر طوبى يتكون من ثلاثة أبنيةٍ ضخمةٍ يربط بينها ممشً مسوَّر. وليس هناك أثر لأي اهتمامٍ زراعي، وكذلك في قصر المشتى، والذي يُعتبر أفخم القصور الأُموية. وهو مكوَّنٌ من ثلاثة أبنية، وما اكتمل إلاّ أوسطُها، مع زينةٍ داخليةٍ ثقيلة ومتنوعة وتذكّر بالقصور الساسانية والبيزنطية(٢٨).

مع سقوط الدولة الأموية، وقيام دولة أُخرى على النمط المركزي الساساني، ما عاد هناك عملٌ أَو حاجة لمنازل لملك البدو، وللمنازل المتنقلة مع الرعية والجند. ولذلك ما أقدم العباسيون على بناء قصورٍ مشابهةٍ خارج المدن أَو في الصحراء.

الحواشي

*) بروفيسور من ألمانيا، جامعة تيوبنغن.

E.g. Bliss ،F.J. ، 1- Narrative of an Expedition to Moab and Gilead ،PEFQS (1895) 229-234؛ Merrill ،S. ،East of the Jordan ،London ،1881 ،Tristam,H.B.،The Land of Moab ، London 1873.

2- Musil ،A. ،Kusejr Amra ،Wien ،1907

3- Herzfeld ،E. ،Die Genesis der islamischen Kunst und das Mshatta-Problem ،In: Der Islam 1 (1910) 27–63 ؛and: Mashatta ،Hira and Badiya ،Jahrbuch der Königlich Preussischen Kunstsammlungen ،42 (1921) 104-146.

4- Lammens ،H.: La Badiya et la Hira sous les Omaiyades،MFOB 4 (1910) 91-112

5- Sauvaget ،J. ،Remarques sur les monuments omeyyades ، In: JA 231 (1939) 1-59 ; and:Chateaux umayyades en Syrie ،In: REI 35 (1967) 1-52.

٦- البلاذري، فتوح البلدان، دي غويه، ليدن، ١٨٦٦م، ص١٨٠

7- Musil: op.cit ،159f.

8-Mouterde ،R. and A. Poidebard: Le Limes des Chalkis،Paris 1945.

9- Cf. RCEA # 2 (Zabad) ، # 3 (Harran) ، # 4 (Umm al-Djimal)

وأبو الفرج العش: كتابات عربية

In: al-Abhath 17 (1964) # 103 (Djabal Says)

10- Wellhausen ، J.: Das Arabische Reich und sein Sturz، Berlin 1902

11- Nöldeke ، T.: Die Ghassanidischen Fürsten aus dem Hause Gafna's ، Berlin 1887.

12- Nöldeke op، cit. 20.

13-Spanner ، H. and S. Guyer: Rusafa. Berlin 1926 ، 39-45; Musil ، A.: Palmyrena.New York 1928 ، 323-326.

14-Sauvaget ، J.: Les Ghassanides et Sergiopolis. In: yzanzion 14 (1939) 115-130.

15-Butler ، H.C.: Architecture and other Arts (Syria. Publications of the Princeton Expedition to Syria ، Div. 2. Leiden 1907-1920 ، 2 A 5,362-366.

16-Gaube ، H.: Hirbet al-Baida ، Beirut 1974.

17-For the tribal conditions in Syria see: Rotter ، G.: Die Umayyaden und der zweite Bürgerkrieg (680-692) ، Wiesbaden 1982 ، 107-151.

18-Musil ، A.: Palmyrena ، New York 1928 ، 282.

19- Gaube ،H.: An Examination of the Ruins of Qasr Burqu. In: ADAJ 19 (1974) 93-100.

20- Bibliography in: Creswell ،K.A.C.: Early Muslim Architecture .1 .Umayyads A.D. 622-750. Oxford 1969 ، 427–477.

21-Gaube ،H.: Amman ،Harane und Qastal. In: ZDPV 93 (1977) 52-86.

22- Short description and bibliography: Creswell op.cit. 472-477.

23- Sack ،D.: Die Große Moschee von Resafa – Rusafat Hisam. Mainz 1996.

24-Grabar ،O.: City in the Desert ،Cambridge ،Mass. 1978.

25-Schlumberger ،D.: Les fouilles de Qasr el-Heir el-jarbi.In: Syria 20 (1939) 195-238 and 324-373.

26- Creswell op.cit. 607-613.

27- Creswell op.cit ،578-606.

28- Reuther ،O.: Ocheidir. Leipzig 1912.

القصور الإسلامية في ضفتي الأردن

د. عوني الدجاني

"حدثنا التاريخ أن خلفاء بني أمية عرب خلص، غريزتهم حب المعيشة بالصحراء، وحيث أن مناخ دمشق الشام التي كانت عاصمتهم رطب بالشتاء، فقد رغبوا في الترحال والإقامة بعض الوقت من السنة في أماكن مناخها جميل وليكونوا قريبين إلى قلوب الشعب، فيحققوا الحق بينهم، ويستمعوا لظلاماتهم بأنفسهم إذا لزم الأمر، وهكذا فقد اقاموا قصورًا لهم بالأردن، منها قصر (المشتى) بالقرب من مأدبًا، وقصر (الحرانة)، وقصير (عمرة) بالصحراء، جنوب شرقي عمان، كما أنهم أقاموا قصر (الحير) في (بالمايرا) أي تدمر، وقصر (المنيا) بالقرب من طبريا وغيرها، أما أهمها فهو القصر القائم بخربة المفجر بمزرعةالنويعمه بأريحا، وهو قصر (الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك)، القصر الذي لم يرد له ذكر في كتب التاريخ الحافلة لدينا".

قصر هشام الأموي:

يغلب على الظن أن الخليفة هشام بن عبدالملك، هو الذي أمر ببناء هذا القصر، وكان ذلك حوالي سنة ٧٢٤– ٧٤٣ ميلادية. إذ عثر أثناء الحفر على مخطوطين أثريتين من الرخام، موضوعتين بالقرب من خنادق الأساسات، الواقعة أمام القلعة المستديرة، التي تقع على جنوب بوابة مدخل للقصر، وهي مكتوبة بالحروف الكوفية بحبر أسود. معنونه إلى هشام بن عبدالملك. وكان الخليفة ينوي

سكنى هذا القصر بالشتاء، إلا أن زلزالاً حدث عام ٧٤٧ ميلادي، فهدمه قبل أن يتم بناؤه، وهناك شواهد أثرية أخرى كثيرة تثبت ذلك.

ابتدأت دائرة الآثار الفلسطينية حفرياها في هذا القصر حوالي عام ١٩٣٣ وكانت تستمر ثلاثة شهور من فصل كل شتاء حتى عام ١٩٤٧ أي حتى نهاية الانتداب.

ولقد أوضحت هذه الحفريات بقايا أربعة أقسام من القصر وهي:-

١- البلاط. ويرى فيه قاعة المحكمة، وغرف الإدارة، وجامع للصلاة، ومحراب ومئذنة.

٢- قسم للحريم. ويرى فيه ساحة الاستحمام والرقص واللهو، وغرفة استراحة الخليفة، وكل هذا القسم مفروش بالفسيفساء، ويقع إلى الشرق من هذا القسم جامع فيه محراب مزخرف وحجارة مدهونة.

٣- الحمامات: اثنان احدهما عادي للرعية، والثاني بخاري لحاشية الخليفة.

٤- البرك اثنتان أيضًا أحداهما موجودة شمالي شرق مدخل القصر، وقد وجد حواليها نماذج منحوتة من الجبس والحجارة لطيور مختلفة مدهونة، وحيوانات متنوعة موضوعة، وتماثيل بشرية جميلة كاملة ونصفية مزخرفة ونصف مكسية، أما البركة الثانية فتقع شرقي الحمام البخاري، وفيها شاذروان للماء له أرضية مرصوفة بالفسيفساء.

يجمع هذا القصر بين حضارة المدن وترف أهلها، وبين هدوء الصحراء وحريتها. كما يجمع بين الفن المعماري العربي الرفيع، المتأثر بالفنين الساساني

والبيزنطي، وغيرهما من فنون الأمم الأخرى التي دخلت في حكم الأمويين، في إمبراطورتيهم التي امتدت من الهند إلى جبال البرانيس.

وقد وضعت دائرة الآثار الأردنية مشروعًا لخمس سنوات، لإتمام الحفر بهذا القصر. وقد ابانت حفريتا السنتين الأولين منها بيوت العمال الذين اشتركوا في البناء، وعنابر القصر. كما عثرنا على بعض المواد الغذائية مخزونة تحت الانقاض، وقد عرفنا منها التمر والزبيب والثوم والقمح والشعير والسمسم. كما عثرنا على كميات كبيرة من الفخار، والزجاج المتقن الصنع جميعها الآن معدة للنشر.

قصر المشتى:

على بعد ثلاثين كيلو مترًا من الجنوب الشرقي من عمان، يقع قصر جميل محاط بسور حجري قوي، له واجهة بديعة الزخارف دقيقة التعابير، وله أبراج شبه مستديرة عددها خمسون، اختطه البناؤون ليكون مشتى للخليفة الأموي، ومركزًا لينطلق منه وابناؤه وامراؤه واصحابه للصيد والقنص. وملجأ يقصده أصحاب الظلامات من سكان البادية ، واستراحة يأوي إليهاالحجيج من المسلمين.

ويتكون هذا القصر الذي يعرف (بقصر المشتى) من أربعة أقسام وهي:

مدخل القصر:

للقصر مدخل واحد رئيسي كبير، يقع بالواجهة الجنوبية، يحيط به برجان قويان بنيًا من الحجر الرملي القوي، وعلى شكل نصف ثماني، ولواجهة هذا المدخل زخارف بديعة نقل القسم الأكبر منها إلى ألمانيا، حيث قدمت هدية من

السلطان عبدالحميد إلى قيصر ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى، ولقد شاهدتها في متحف برلين. وتعتبر زخارف هذه الواجهة مفخرة من مفاخر فن الزخرفة الإسلامية. ولم يبق لدينا منها إلا النزر اليسير. كما وأن الزائر يشاهد بقايا أماكن جلوس الحراس والجنود على جوانب المدخل. وللبوابة مدخل أو ممر فسيح مستطيل الشكل، تقوم على جوانبه غرف المرافقين من الحاشية والرعية والخدم. وتنتهي ساحة المدخل هذه إلى قاعة رئيسية، تحيط بها غرف ربما خصصت للموظفين والكتاب والصرافين والمستشارين، حيث يتم تصريف أمور الرعية.

الساحة الوسطى:

هي ساحة واسعة فسيحة مربعة، طول أحد أضلاعها سبعة وخمسون مترًا، اعتقد أن القصد منها كان لاجتماع الجماهير، التي كانت تود مقابلة الخليفة أو التحدث للأمراء. وفي شمالي هذه القاعة بوابة كبيرة، تتكون من ثلاثة مداخل، ذات أقواس زخرفية، الأوسط منها كبير، والاثنان الآخران أصغر حجمًا. وتشبه البوابة في شكله وطراز بنائها أبواب أقواس النصر الرومانية. وهذه البوابة هي المدخل الرئيسي للقسم الهام من القصر.

القسم الرئيسي الخاص:

تدخل إليه من البوابة التي تشبه بوابة قوس النصر الرومانية، بمدخل ينتهي إلى ما يمكن تسميته بقاعة العرش، وهي على طراز الباسيليكا البيزنطية.

وعلى جانبي مدخل القاعة يشاهد الزائر الأماكن التي نقشت على الحجر، لتكون قواعد للأعمدة التي كانت معدة للاستعمال. ومن المرجح أن الحجرات الجانبية التي تحيط بالمدخل كانت مسقوفة. أما المدخل الرئيسي فلم نشاهد فيه

أية آثار تفيد بأنه كان مسقوفًا، بل يلغب على الظن أنه كان مكشوفًا لا سقف له.

والقسم الرئيسي هذا يتفرع إلى أربعة أقسام، وكل قسم منها يحتوي على صحن مستطيل، تحيط به غرف أربع، وليس ضروريًا أن نستنتج أن هذه التقسيمات تتعلق بحياة الحلقة الخصوصية، كما يعتقد بعض المستشرقين. ولكن تقسيم وهندسة البناء أرادها المصمم أن تكون كذلك.

الجامع:

بعد أن أجريت الحفريات الأثرية عام **١٩٦٢** والتي اعتقدت بضرورتها، تبين لي بقايا حيطان متوازية الأضلاع في الجهة الشرقية من مدخل القصر، فعملت على تنظيف ما حولها وما فوقها من الانقاض، فتبين لي بقايا بناء جامع إسلامي كبير، ذي محراب كامل، اتضح أنه مبنى مع الحائط الجنوبي للقصر، مما يدل على أنه قسم رئيسي من القصر، منذ تنظيمه وابتداء بناء القصر. ولقد رممنا المحراب ورفعنا مداميك حيطان الجامع، فوضح جليًا ظاهرًا للعيان لا لبس فيه ولا إبهام، ويمكن اعتباره الحجة الدامغة بكون القصر إسلاميًا.

تاريخ القصر:

كتب علماء الآثار والتاريخ كثيرًا عن قصر المشتى، وذهبوا مذاهب شتى في تاريخ بنائه، فاحتاروا في اعتباره لخميًا أو غسانيًا، أو بيزنطيًا، أو إسلاميًا. وليس لدي متسع هنا لكي افند اقوالهم، وادحض اراءهم، ولكني أورد بعض الأسباب الكافية، التي تدعوني لاعتباره أمويًا إسلاميًا بحتًا.

١- أن الجامع الذي اكتشفته عام ١٩٦٢ ليس إضافيًا، بل هو من صميم البناء، ووجود المحراب في حائط سوره الأصلي الجنوبي يزيده اثباتًا.

٢- استعمل البناؤون الحجارة في بناء المداميك السفلية، وأتموا الإقسام العلوية والداخلية بالطوب، كذلك استعملت بعض الأبراج في أسوار حيطان القصر مراحيض، وهذا الطراز من البناء برز واضحًا في قصر خربة المفجر بأريحا، وقصر طوبة بوادي القذف من الصحراء الأردنية.

٣- أثناء ترميمنا للقصر عام ١٩٦٣، عثر أحد عمالنا على طوبة قرميد عادية بسيطة، لا تختلف في قليل أو كثير عن باقي الطوب الذي استعمل في بناء قصر خربة المفجر وقصر طوبة، وقصر المنيا وقصر الحير في سوريا، ولكن هذه القرميدة تمتاز على مثيلاتها بوجود كتابات عربية عليها مكونة من خمسة أسطر، وتبتدي بالسملة.

٤- طريقة بناء الأقواس وتقويتها بالأخشاب العارضة، وشكل النوافذ المستديرة وبناء عتبات الأبواب، وهندسة النقوش الزخرفية. وترتيب التقسيمات الداخلية للقصر. ونوعية القرميد الذي استعمل في البناء، ومشابهتها لمثيلاتها في قصر هشام بخربة المفجر بأريحا وقصر طوبة بالصحراء الأردنية، وقصر المنيا في طبريا، والحير في سوريا، كلها أدلة واضحة تفيد بأن طراز البناء إسلامي.

٥- بنى خلفاء بني أمية قصورهم مستعملين الحجارة والقرميد معًا، وزخرفوا أرضية قصورهم بالفسيفساء كما نشاهد في المفجر وعمرة والمنيا. وفي المشتى اكتشفت اثناء العمل في القصر بقايا الحجارة الملونة، والتي كانت جاهزة لقطع حجارة الفسيفساء منها، لعمل أرضيتها، وبالفعل ابتدأ

البناؤون رصف قسم من أرضية الغرفة الشمالية الشرقية، من القسم الخاص بالخليفة بالفسيفساء، ولم يتم العمل لتوقف عملية البناء بأكملها لاغتيال الخليفة آنذاك.

بعد أن وضحنا أثريًا أن القصر إسلامي، فلابد لنا أن نوضح من هو بانيه، فنحن نعلم جيدًا أن الوليد الثاني قد أحب البلقاء وسكن فيها، وشاد فيها مدينته وأقام ابنيته التي استعان من أجلها بالعمال من كل جانب. فليس بعيدًا أن يكون المشتى أحد قصوره وآخرها، حيث أنه لم يتم بناؤه، إذ اغتاله قريب له يدعى إبراهيم، الذي كان يطمع في تولي الحكم من بعده، آملاً في تخليص الشعب من ظلمه وجبروته. حيث أنه كان قد سخر شعبه لإقامة القصور، والأبنية الفخمة من أجله.

ولقد كان لاغتياله موعظة للخليفة يزيد الثالث، الذي لم ينشئ من الأبنية شيئًا بطريقة السخرة، حيث أنه كان قد وعد رعيته بعدم الإسراف في إقامة الأبنية والمنشآت.

وهكذا انتهت صفحة من صفحات أحد خلفاء بني أمية، الذي اشتهر بمحبته التوسع والعمران.

* كاتب الدراسة باحث وعالم في الآثاروالعمارة ، شغل عدة مناصب أبرزها مدير دائرة الآثار العامة في المملكة الأردنية الهاشمية .

القصور الأموية في شرق الأردن

د. زكي مُحَمَّد حسن

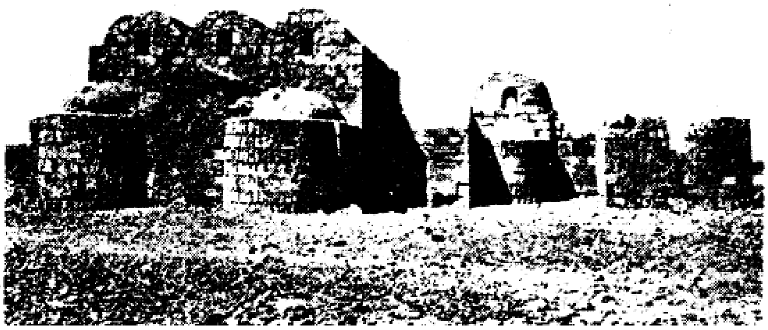
لقد وجد المسلمون في البلاد التي فتحوها صناعاً مهرة في فن البناء، فأقبلوا على الإفادة من جهودهم. ولما اتسعت الإمبراطورية الإسلامية، ظهر الطموح إلى الأبنية الضخمة الفاخرة فشيد المسلمون في عصر عبد الملك بن مروان قبة الصخرة في بيت المقدس، ثم شيد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك المسجد الجامع بدمشق.

ومما نلاحظه في العمارة الإسلامية بوجه علم أن المسلمين لم يعنوا بتشييد نصب تذكارية لتخليد ذكرى انتصاراتهم الحربية[١]، كما فعل الرومان وغيرهم، فالأمويون لم يخلفوا أي عمائر من هذا الطراز مع سعة فتوحاتهم وعظم انتصاراتهم.

ولسنا نعرف شيئاً عن القصور الأموية في دمشق والرملة[٢] وبقية المدن التي كان خلفاء بني أمية يحبون الإقامة فيها مثل الصنبرة (على الشاطئ الجنوبي لبحيرة طبرية)، وكان معاوية ومروان يشتوان بها، ومثل حوارين وأذرعات وقد أحب الإقامة فيها يزيد بن معاوية، ومثل الحابية وقد فضلها عبد الملك بن مروان على غيرها، ومثل أسيس في الجنوب الشرقي من دمشق (واسمها الآن تل سيس)، وقد أقام بها الوليد بن عبد الملك.

والعمائر الأموية في بادية شرق الأردن تكاد اليوم تكون كلها خراباً [٣]، لم يبق منها إلا أطلال متفرقة، اللهم إلا قصير عمرة وحمام الصرخ وقصر المشي.

أما قصير عمرة فقصر سيد صغير على بعد خمسين ميلاً شرقي عمان، يضم قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة، لكل رواق منها سقف من قبو نصف دائري، ويتصل الرواق الأوسط في الجهة الجنوبية بحنية كبيرة، على جانبيها غرفتان صغيرتان بدون نوافذ. وإلى جانب قاعة الاستقبال حمام من ثلاث قاعات صغيرة: الأولى ذات سقف من قبو نصف دائري، والثانية سقفها من قبوين متقابلين، والثالثة تعلوها قبة نصف كروية. وكانت جدران هذا القصر وسقوفه محلاة بنقوش دب التلف إلى معظمها، بعد أن صورتها البعثة العلمية التي كان يرأسها الاستاذ موزل Alois Musil والتي أتيح لها أن تكشف هذا البناء لعلماء الآثار سنة ١٨٩٨. وتضم هذه النقوش رسوم صيد واستحمام ورسوم راقصات ونساء شبه عاريات، ورسوماً رمزية لآلهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند الإغريق، وأخرى لبعض مراحل العمر المختلفة: الفتوة والرجولة والكهولة؛ ورسماً لقبة السماء وبعض النجوم فضلاً عن البروج المختلفة، ورسوم طيور وحيوانات وزخارف نباتية [٤].



قصيرة عمرة في بادية الأردن

ولكن أهم نقوش هذا القصر نقشان: الأول رسم الخليفة على عرشه وحول رأسه هالة وفوقه مظلة يحملها عمودان حلزونيان، ويحف به شخصان، وكان على عقد المظلة عصابة من الكتابة الكوفية تطرق التلف إلى كثير من أجزائها، ويستنبط من الكلمات

الباقية أنها كانت تشتمل على عبارات دعائية، أما النقش الثاني فالصورة المشهورة المعروفة باسم صورة أعداء الإسلام والتي اعتمدها علماء الآثار في تاريخ قصير عمرة وقوام هذه الصورة ستة أشخاص ذوي ملابس فاخرة مرسومين في صفين: ثلاثة في الصف الأول وثلاثة في الصف الثاني. وفوق أربعة منهم كتابة بالعربية والإغريقية لا تزال باقية. فالأول من اليسار (وهو في الصف الأمامي) فوقه كلمة "قيصر" بالعربية واليونانية، والثاني (وهو في الصف الخلقي) فوقه كلمة يظن أنها "لودريق" آخر ملوك القوط في أسبانيا وقد قتل حين قضى العرب على جيشه في معركة شريش سنة ٩٢هـ (٧١١م)، والثالث (وهو في الصف الأمامي) فوقه كلمة "كسرا"ن فهو ملك الفرس، والرابع (وهو في الصف الخلقي) فوقه كلمة النجاشي فهو ملك الحبشة.

وقد رجح المستشرق السويسري فان برشم van Berchem أن الأشخاص المرسومين في الصف الأمامي ملوك إمبراطوريات كبيرة، في حين أن المرسومين في الصف الخلقي ملوك دول صغيرة، كما رجح أن ترتيب الأشخاص في الصفين من اليسار إلى اليمين يقابل موقع بلادهم الجغرافي من الغرب إلى الشرق واستنبط من ذلك أن الشخص الخامس (وهو في الصف الأمامي) ربما كان امبراطور الصين (ولعل المقصود حاكم بخاري)، وأن الشخص السادس ربما كان أحد الأمراء الترك الذين حاربهم قتيبة بن مسلم الباهلي قبل أن يفتح سمرقند سنة ٩٣هـ (٧١٢م)، وربما كان داهر ملك السند الذي قتله مُحَمَّد بن

القاسم سنة ٩٣هـ حين فتح تلك الأقاليم. وذكر فان برشم أن هذين الأميرين والأمراء الآخرين يمكن اعتبارهم أعداء الإسلام عامة وأعداء الوليد بن عبد الملك خاصة. وإننا نستطيع بوساطة هذه الصورة أن ننسب قصير عمرة إلى الفترة الواقعة ين معركة شريش سنة ٩٢هـ (٧١١م) أو سقوط سمرقند سنة ٩٣هـ (٧١٢م) ووفاة الوليد الأول سنة ٩٦هـ (٧١٥م).

والملاحظ في صورة أعداء الإسلام أن تأليفها ساساني، وأن رسم اليدين مرفوعتين إلى النصف ومفتوحتين إلى الأمام شارة من شارات الخضوع نعرفها في النقوش الساسانية، وأن الصورة تشبه إلى حد كبير رسمين ساسانيين في "يبستون" و"نقش رستم" يمثلان بعض الأمراء يقدمون فروض الطاعة والولاء إلى عاهل الفرس. والحق أن وجود رسم كسرى في تلك الصورة، مع أن سقوط ملكه كان قديم العهد في عصر بني أمية، يمكن تفسيره بأن الصورة كلها منقولة بشيء من التصرف عن أهل إيراني يبدو فيه كسرى لابساً تاجاً وحوله أمراء تابعون له.

ولكن طراز الصور في قصير عمرة هلنستي بوجه عام، كما يظهر في رسوم الأجسام الآدمية ورسم آلهة الحب والنصر والشعر والتاريخ والفلسفة، وكما يتجلى من الشبه بين الملابس والزخارف في قصير عمرة وفي مثيلاتها ببعض الكنائس والقبور السورية الهلنستية. وأكبر الظن أن الفنيين الذين رسموا الصور في قصير عمرة كانوا من السوريين أو الأراميين.

* * *

أما حمام الصرخ فقد كشفته لعلماء الآثار بعثة جامعة برنستون سنة ١٩٠٥ على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب الشرقي من القلعة الرومانية المعروفة باسم قصير الحلابات، ونحو عشرين ميلاً من حمام الزرقاء الواقع على طريق

الحج على بعد اثنى عشر ميلاً شمالي عمان. وحمام الصرخ يشبه في تخطيطه قصيرة عمرة؛ ففيه قاعة استقبال مستطيلة الشكل، لها في الناحية الجنوبية الشرقية حنية يحف بها غرفتان، ولكن لكل منها ثلاث نوافذ صغيرة وإلى جانب قاعة الاستقبال حمام من ثلاث قاعات صغيرة: الأولى ذات سقف من قبو نصف دائري، والثانية سقفها من قبوين متقابلين، والثالثة تعلوها قبة نصف كروية. وأكبر الظن أن بعض جدران حمام الصرخ كانت محلاة بالنقوش الجميلة التي زالت آثارها تماماً، بعد أن شاهد بعضها بتلرButler ثم موزل Musil.

ولا ريب في أن الشبه العظيم بين حمام الصرخ وقصير عمرة يحملنا على القول بأن الأول شيد لأمير أو خليفة من بني أمية، ولكنه أدق في البناء من قصير عمرة، فضلاً عن أن بعض العناصر المعمارية فيه؛ ولا سيما العقود، أكثر تطوراً فالأرجح أنه بني بعد قصيرة عمرة بفترة قصيرة وقد نسبه الأستاذ كريزول Creswell إلى ما بين عامي ٧٢٥ و ٧٣٠ بعد الميلاد.

والمعروف أن تخطيط هذه الحمامات لم يكن جديداً في العصر الإسلامي، فقد كان المهندسون الذين شيدوها يسيرون على مهج عرفته الشام في العصر المسيحي. وقد درس الأستاذ كريزول بعض العناصر المعمارية فيها ولا سيما العقود المدببة، فأثبت أن أقدم المعروف منها يرجع إلى الشام في القرن السادس الميلادي، فلا وجه للقول بأن هذه العقود ظهرت لأول مرة في إيران.

* * *

وثمت قصر صحراوي آخر، يعرف باسم قصر خرانة، ويقع على بعد اثني عشر ميلاً في الجنوب الغربي من قصير عمرة. ولسنا نريد هنا أن نفصل الحديث

عنه، لأن الراجح أنه يرجع إلى ما قبل العصر الإسلامي، على الرغم من أن على أحد جدرانه كتابة كوفية بقي من نصها:

اللهم ارحم عبدك عبد الملك بن عبيد واغفر له

ذنبه ما تقدم وما تأخر .... أعلن :

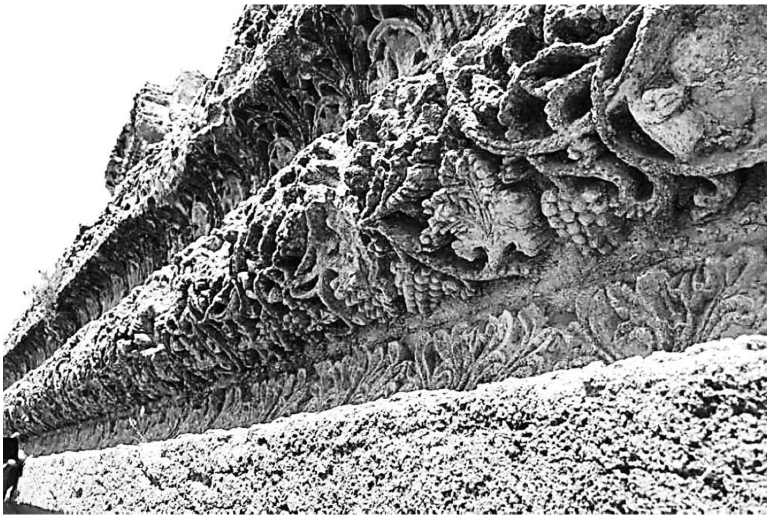
....

.................وكتب عبد الملك بن عبيد يوم

الاثنين لثلث بقين من القعدة من سنة اثنتين

وتسعين .... ولله في الدنيا والآخرة.

فلا ريب إذن في أن قصر خرانة كان قائماً سنة ٩٢هـ (٧١٠م)، ولكن هذه الكتابة لا تدل على أنه أنشئ في تلك السنة، بل إن بعض العناصر المعمارية فيه كالعقود والأركان والأقبية حملت بعض علماء الآثار– مثل فان برشم وكريزول– على نسبته إلى ما قبل الإسلام. وقد ذكر الأستاذ مورتز Moritz أن عبد الملك بن عبيد الذي جاء ذكره في كتابة قصر خرانة ربما كان أحد أتباع الوليد في رحلته من الحجاز إلى الشام بعد أن زار مكة سنة ٩١هـ.



وجهة قصر المشتى كما أعيد تشييدها في القسم الإسلامي من متاحف برلين

أما قصر المشتى فبناء على بعد عشرين ميلا جنوبي عمان. وقد كشفت أطلال هذا القصر على يد ليار Layard سنة ١٨٤٠ ثم ترسترام Tristram سنة ١٨٧٢. على أن أعظم ما في قصر المشتى من الناحية الفنية الزخارف المحفورة في الحجر الجيري في الواجهة القبلية التي يقع بها المدخل، وكان ارتفاع هذه المواجهة ستة أمتار. وقد لفت الأستاذ ستريجفسكي

Strzygowski نظر حكومة القيصر غليوم إلى جمال هذا الأثر، فعني به القيصر واستطاع أن ينال هذه الوجهة هدية من السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٣ ونقلت إلى متحف القيصر فريدريك في برلين، حيث أصبحت نواة للقسم الإسلامي الذي نقلت إليه وتم افتتاحه في متاحف الدولة في برلين سنة ١٩٣٢ وآخر عهدنا بها في أغسطس سنة ١٩٣٩، حين أقبل الدكتور كونل مدير هذا القسم على الإشراف على تحصينها وحمايتها بالأبنية الخشبية وأكياس الرمال وصفها من أنفس ما تحويه متاحف الدولة الألمانية. وقد علمنا منه بعد

عقد الهدنة أن قنبلة من قنابل الحلفاء هدمت جزءاً من هذه الوجهة، ولكن أمكن إصلاحه إلى حد كبير.

وتقوم زخارفها فوق قاعدة منخفضة. وتمت شريط زخرفي من نبات شوكة اليهود (كنكر. أكانتس) ينخفض ويرتفع فيقسم الوجهة إلى مثلثات، بعضها قائم على قاعدته والبعض الآخر قائم على إحدى زواياه. وفي وسط كل مثلث زخرفة كبيرة على شكل وردة، في قلبها رسوم مراوح تخيلية وكيزان صنوبر ونجوم صغيرة وأزهار لوتس. وفد كان المقصود أن تغطي مساحة هذه المثلثات كلها ببساط من الزخرفة الدقيقة المحفورة حفراً عميقاً، ولكن الواقع أن المثلثات القائمة على قاعدتها هي التي كملت زخرفتها أو كادت، في حين أن المثلثات الأخرى لم تكمل، وإنما تم من رسومها أجزاء تختلف باختلاف المثلثات. وفي طرفي كل ناحية من الوجهة (حول المدخل) مثلث صغير، أي نصف مثلث من المثلثات الكبيرة. وفي كل من هذه الأربعة المثلثات الصغيرة نصف وريدة فقط.

وقصر المشتى بناء يحده سور مربع الشكل، طول كل ضلع من أضلاعه نحو ١٤٤ متراً. وفي السور أبراج نصف دائرية، وله مدخل في وسط الضلع القبلي. والمساحة المحصورة بين جدران هذا السور تنقسم إلى ثلاثة مستطيلات، المتوسط فيها أعراض من المثلثين اجانبين، وهو الوحيد الذي تم بناء بعض أجزائه لأن المثلثين الجانبيين لم يشيد فيهما أي بناء.

ويؤدي مدخل القصر إلى قاعة، وتؤدي هذه القاعة إلى بهو، ويحف بالقاعة والبهو غرف أخرى. وخلف البهو فناء كبير. وفي شمال هذا الفناء مدخل ذو ثلاثة عقود يؤدي إلى قاعة كبيرة مستطيلة، تنتهي بشكل ذي حنيات ثلاث يشبه ورقة "السباتي" trèfle من أوراق اللعب. وهو شكل شائع في

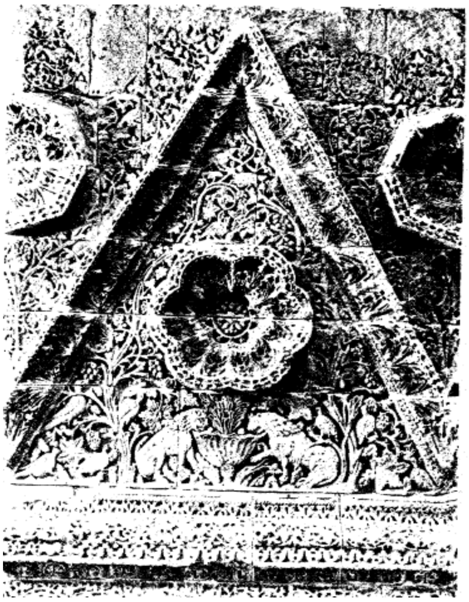
تخطيط الكنائس اليونانية. وعلى كل من جانبي هذه القاعة المستطيلة مجموعة من المباني، قوامها فناء مستطيل في وضع عمودي على القاعة، وفي كل من جانبي هذا الفناء ساحة عمودية عليه وحولها غرفتان مقبيتان.

وجدران القصر الداخلية وأقبيته من الآجر، وفيه أعمدة من الرخام. أما عقوده وأركانه فمن الحجر الجيري.

ويمكن بوجه عام أن نقسم زخارف واجهة قصر المشتى إلى أربعة أقسام لا مجال لتفصيل الكلام عليها هنا. وحسبنا أن نذكر أن عشرة من هذه المثلثات خالية من رسوم الطير والحيوان، وفي بعضها رسوم مركبة ومراوح نخيلية مجنحة، فضلاً عن الفروع النباتية وعناقيد العنب، ونجد في سائر المثلثات- وعددها اثنا عشر مثلثا- رسوم طيور وحيوانات خرافية وحقيقية.

وعلى كل حال فإن الزخارف الواقعة على البرج الأيمن والجزء المستوى من الجدار المتصل به هي الخالية تماماً من رسوم الكائنات الحية. وليس السبب في ذلك واضحاً، فعلماء الآثار مختلفون في تفسير هذه الظاهرة: يرجح بعضهم أن صاحب البناء اقتنع بعد إتمام القسط الأكبر من الزخرفة بكراهية تصوير الكائنات الحية في الإسلام، ففضل الزخارف النباتية في الجزء الباقي، وذهب فريق آخر إلى أن الصناع أنفسهم ربما كانوا قبل ذلك نعيين ثم اعتنقوا الإسلام وعملوا على احترام تعاليمه في كراهية التصوير، ورجح آخرون أن يكون المقصود الوصول إلى تباين بين الزخارف النباتية والحيوانية يجعلها مختلفة في كل جانب من جانبي المدخل عنها في الجانب الآخر، وذهب الأستاذ هرتز فلد Herzfeld إلى أن الفرق بين الزخارف في المثلثات المختلفة راجع إلى أن الصناع لم يكونوا من جنس واحد، إذ اشترك في زخرفة الوجهة صناع من سورية والعراق ومصر. ونحن لا نقر هذا الرأي لأن فيه شططاً وإنكاراً للوحدة الظاهرة في

الزخرفة بوجه عام. وفي رأينا أن الفرق بين الزخارف في المثلثات المختلفة مقصود به التنويع، إذ أنه ليس عظيماً جداً بحيث يتطلب نسبة الزخرفة إلى صناع من جنسيات مختلفة. وإذا صح أن صناعاً سوريين ومصريين وعراقيين اشتركوا في زخرفة قصر المشتى، فليس من المحتمل أن يترك أولئك الصناع يتبع كل منهم الأساليب الفنية المتبعة في وطنه بدون أن يخضع الجميع لمشرف يؤلف لهم طراز الزخرفة التي يناط بهم حفرها. ولسنا ننسى أن في هذه المناسبة أن الشام كانت ملتقى تيارات مختلفة من الأساليب الفنية الهلينية والساسانية والقبطية.



جزء من زخارف قصر المشتى

وقد قامت حول تاريخ قصر المشتى مساجلات وآراء مختلفة، فذهب فريق من العلماء إلى أنه من آثار الملوك اللخميين في الحيرة من القرن الرابع الميلادي، وقال آخرون إنه من عمائر الغساسنة في القرن السادس الميلادي،

ونسبه فريق ثالث إلى كسرى الثاني حين خضعت له البادية بين عامي ٦١٠ و ٦٢٣م، قبل أن يهزمه هرقل؛ ولكن أرجح الآراء وأنضجها الآن هو أن قصر المشتى بناء أموي [٥] ولا غرو فإن مثل هذا البناء الضخم لم يكن ليستطيع التفكير في تشييده إلا خليفة توافرت له الأموال الطائلة، واستطاع أن يجمع خير العمال والصناع من أنحاء مملكته. وفضلاً عن ذلك فإن بعض العناصر المعمارية تؤيد نسبة قصر المشتى إلى بداية العصر الإسلامي، ولاسيما الطوب والعقود والأقبية. ونرى كذلك أن بعض العناصر الزخرفية في قصر الشتى تشبه زخارف قبة الصخرة. وقد وجد في الجدار القبلي من القاعة اليمني بعد مدخل القصر جنية يرجح أنها كانت محراباً وأن القاعة كانت مصلى القصر.

وقد ذهب الذين ينسبون قصر المشتى إلى العصر الأموي مذهبين: الأول ينسبه إلى يزيد الثاني فيما بين عامي ١٠١ و١٠٥هـ (٧٢٠– ٧٢٤م). والثاني إلى الوليد الثاني فيما بين عامي ١٢٥ و١٢٦هـ (٧٤٣– ٧٤٤م). وقد فسر أصحاب الرأي الأول ترك القصر قبل إتمامه بوفاة يزيد بعد وفاة عشيقته حبابة. أما أصحاب الرأي الثاني وعلى رأسهم الأب لامنس Lammens فقد أشاروا إلى نص جاء في كتاب ساويرس بن المقفع ينسب إلى الوليد الثاني الشروع في بناء مدينة لنفسه في الصحراء، جمع لها العمال والصناع من جميع البلاد، ومات كثير منهم بسبب الإرهاق وقلة الماء إلى أن ثار على الوليد رجل اسمه إبراهيم، قتله واستولى على مقاليد الأمور وأطلق العمال، فتفرقوا قبل أن يتم البناء.

ومهما يكن من الأمر فإننا لا نستطيع أن نعرف تماماً إلى أي الخلفاء الأمويين يمكننا أن ننسب قصر المشتى.



فسيفساء كشفتها دائرة الآثار الفلسطينية في أضلال قصر هشام بحرية المفجر قرب أريحا

بقي أن نشير إلى قصر الطوبة. وهو قصر أموى آخر، تقع أطلاله على بعد سنتين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من عمان، وهو مستطيل الشكل (١٤٠.٥٠٥ × ٧٢.٨٥ متراً)، ويشبه قصر المشتى في معظم عناصر المعمارية والزخرفية، وأكبر الظن أنه شيد في العصر نفسه.

ولا ريب في أن القصور التي عرضنا لها في هذا الفصل مثال لما أفاده العرب من مدنية البلاد التي فتحوها وشاهد بما كانت عليه القصور التي شيدوها في كثير من مدن الشام، ولاسيما قصر الحير الشرقي في البادية وقصر الحير الغربي الذي كشفته دائرة الآثار السورية بين تدمر وحوارين ونقلت أجزاءه إلى متحف دمشق. وقصر هشام الذي كشفت أطلاله دائرة الآثار الفلسطينية في خربة المفجر شمالي اريحا. وقد ظهرت في الحمام الملحق بهذا القصر أرض من

الفسيفساء تعد أبدع ما نعرفه من زخارف الفسيفساء الأموية. ويمثل جزء منها شجرة رمان تحتها غزالان وأسد ينقض على فريسته .

الهوامش

(١) بل إننا لا نعرف إلا مثلاً واحداً للنصب التذكارية في الإسلام: ذلك هو البناء المسمى مشهد النصر، وقد شيده السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في الساحة التي انتصر فيها المماليك على المغول في عين جالوت (راجع كتاب السلوك للمقريزي ج١ س ٤٤٦). أما المساجد التي شيدت تخليداً لذكرى شهيد وشهداء فإننا نفضل اعتبارها من العمائر الدينية.

(٢) اتخذها سليمان بن عبد اللملك مقراً للخلافة بين عامي ٦٩ و٩٩هـ (٧١٥ و٧١٧م).

(٣) تعد بادية شرق الأردن متحفاً كبيراًً يضم كثيراً من العمائر التي لا تزال أطلال بعضها قائمة حتى اليوم، والتي ترجع إلى حضارة الرومان والنبط والأمويين. وبينها الفلاح والكنائس والقصور والحمامات والمدرجات بل أن بينها مدينة نبطية كاملة: هي مدينة بطرا (الرقيم أو سلع) ذات البيوت المنحوتة في الصخر الوردي اللون.

(٤) انظر صور هذه النقوش في تطبيقاتنا على كتاب "التصوير عند العرب" لأحمد تيمور باشا، اللوحات رقم ٢و ٣و ٤.

(٥) أتى الأستاذ كريزول في الجزء الأول من كتابه Early Muslim Arehilectnre بكل الآراء التي قامت حول تاريخ قصر المشتى وانتهى إلى القول بنسبته إلى العصر الأموي.

القصور الأندلسية
في عصر الدولة الأموية وعصر ملوك الطوائف

د.السيد عبد العزيز سالم

ما كاد المسلمون يوطدون أقدامهم في الأندلس بعد الفتح، ويخضعون هذه البلاد لسلطان الخلافة الأموية بدمشق- حتى انبعث بينهم الصراع القبلي الذي كان كامنًا في نفوسهم، وأصبحت الأندلس في عهد الولاة التابعين لخلافة دمشق مسرحًا للفتنة والفوضى، ومرتعاً خصبًا للإضراب مدة ثلاث وأربعين سنة، وقد افتتح هذا العهد البغيض بمقتل الأمير عبد العزيز بن موسى، وكان أبوه موسى بن نصير فاتح الأندلس قد استخلفه عليها بعد أن قفل إلى الشرق سنة ٩٥ للهجرة (٧١٣م)، وانتهى بتغلب الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني المعروف بعبد الرحمن الداخل على سرير الملك بقرطبة سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م).

ثم بدأ عصر بني أمية في الأندلس ويعتبر امتدادًا لعصرهم في المشرق، ومؤسس هذه الأسرة في الأندلس هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي استطاع أن يفر إلى المغرب الأقصى، ويعبر الزقاق[١] إلى الأندلس، واستطاع بفضل ما أوتي من ألمعية أن يؤسس ملكًا بعد فنائه، وقد قال عنه أبو جعفر المنصور عدوه اللدود: "لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شئونه، وعدمه لأهله ونسبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مراقي همته ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتغاء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية

الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم، فاستولى فيها على أريكته، ملكًا على قطيعته، قاهرًا لأعدائه، حاميًا لزماره، مانعًا لحوزته، خالطًا الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه[(١)] !"

وما كاد عبد الرحمن الداخل يستقر بقرطبة، ويستقيم أمره بها حتى بنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار، ومنذ ذلك العهد بدأ فن العمارة يتلمس طريقة في الأبنية الدينية والمدنية، وجامع قرطبة شاهد صدق على هذه الحركة الكبرى في البناء والتشييد، إذ يشف عن مثل من أروع أمثلة العمارة الإسلامية بل العالمية في العصر الوسيط، ذلك أن عناصره المعمارية والزخرفية تؤلف البذور الأولى للفن الأندلسي المغربي، وقد أخذت زخارفه تشع في المشرق والمغرب، فأثرت في الزخرفة المسيحية والإسلامية على حد سواء، وأوحت قبابه القائمة على هياكل بنائية من الضلوع المتقاطعة ابتكار القبوات القوطية، التي انتشرت في العصر الأوروبي الوسيط.

هذا هو العصر الأموي الذي نبت فيه الفن الإسلامي بالأندلس، وما لبث أن ترعرع في العصور التالية حتى وصل إلى ذروة نضارته في عصر بني نصر، ثم هاجر هذا الفن إلى المغرب بعد أن طرد من بلاده التي ولد فيها على إثر الاسترداد المسيحي، وقدر له أن يقضي فيه البقية الباقية من حياته حتى نضب معينه، وذبل عوده، وقضي عليه بالفناء.!

ولا نود أن نطيل الحديث عن هذا الفن، وإنما قصدنا أن ندرس منه ناحية جديرة بالبحث هي القصور التي بناها الخلفاء والملوك المسلمون في إسبانيا في

عهد بني أمية، وفي عهد ملوك الطوائف الذين ورثوا ملك الأمويين، ثم في عهد دولتي البربر المرابطين والموحدين، وفي عهد بني نصر الذين اختتم بهم الإسلام حكمه في الأندلس.

وكان الأمراء والخلفاء يشيدون قصور الحكم بجوار المساجد الجامعة، وكانوا يطلقون عليها اسم "دور الإمارة"، على أنهم كانوا يلتمسون الراحة في بعض الأحيان، فكانوا يعمدون إلى بناء قصور للراحة واللهو بعيدًا عن الحاضرة، ليتمكنوا من الاستغراق في الترف، والاستنامة إلى حياة اللهو والنعيم التي لا تتاح لهم في مقر الحكم بالحاضرة، وكانت هذه القصور تتخذ مظهرًا عمرانيًا شديد الشبه بالمدن الصغيرة، فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته، ومن منتزهات ومحال للوحش فسيحة ومسارح للطيور مظللة بالشباك، وأسواق وحمامات وفنادق ودور للصناعة ومساجد وغير ذلك .

غير أن حياة هذه المدن الملكية كانت موقوتة، فما أسرع ما كانت تنتهب وتسلب على إثر سقوط الأسرة الحاكمة، كما حدث في قرطبة عندما تداعى سلطان الخلافة القرطبية، فعم النهب والسلب، وفي ذلك يقول ابن حيان: "...... وانكدر بأثر وفاته ابن باشه هدام القصور ومبور المعمور، وكان من التبجح في اللؤم، والالتحاق للشؤم مع دناءة الأصل والفرع وتنكب السداد، وثقيل الفساد– على تبجح عظيم، بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة، ودرست آثارهم البديعة، وحطت أعلامهم المنيعة، قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة، فاغتدى عليه أعظم آفة، وباع آلاتها من المرمر ومثمن العمد ونضار الخشب وخالص النحاس وصافي الحديد والرصاص بيع الإدبار [٣]"

وكذلك كان أمر قصور الزهراء التي شرع الخليفة عبد الرحمن الناصر في بنائها عام ٣٥٢هـ (٩٣٦م)، إذ هدمها البربر في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٤٠١ هجرية (٤ نوفمبر سنة ١٠١٠م)، وذبحوا حاميتها، ويروي ابن أبي زرع كيف تهدمت قصور الموحدين بمراكش بعد انقضاء سلطانهم[٤].

ويغلب الظن على أن من أسباب تخريب هذه القصور أن الإسلام يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء، فالدوام لله فقط، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدين الإسلامي، ويشف عن تحدٍ للألوهية، وكان رجال الدين يترصدون الملوك، وينتقدون كل أعمالهم، وكان عبد الرحمن الناصر كلفًا بعمارة القصور عملًا بقوله :

همم الملوم إذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم

ملك محاه حوادث الأزمان؟

إن البناء إذا تعاظم قدره

أضحى يدل على عظيم الشأن[٥]

وكان يلقى من زجر القاضي منذر بن سعيد البلوطي وتأنيبه ما يجعله يبكي، وقد قال له يومًا: "فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، وهي دار القرار ومكان الجزاء" ومضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه بكل كلام جزل وقول فصل ."

وكان يحذره فجأة الموت، ويدعوه إلى الزهد في هذه الدار الفانية، ويحضه على اعتزالها والرفض لها، والندب إلى الإعراض عنها والإقصار عن طلب اللذات ونهي النفس عن اتباع هواها، وكان الخليفة في كل مرة يضج بالبكاء، ويندم على ما سلف له من فرطه(٦) .

قصور بني أمية بقرطبة :

ما كاد الأمير عبد الرحمن بن معاوية يستقر بقرطبة، ويثبت قدمه في الملك، حتى عمد إلى تجديد ما طمس لبني أمية بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها، فبنى الجامع بقرطبة، وبني مساجد أخرى، كما أدار السور بقرطبة بعد أن هدمه السمح بن مالك الخولاني صاحب الأندلس، واستعمل حجره في ترميم قنطرة قرطبة بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١هـ – (٧١٩م).

وقد شيد بنو أمية قصر الدمشق بقرطبة، وهو قصر شيدوه بالصفاح والعمد، وأبدع بناؤه ونمقت ساحاته وفناؤه، وحاكوا به قصرهم بالمشرق، كما بنى الأمير عبد الرحمن الداخل منية الرصافة شمالي قرطبة لنزهه وسكناه أكثر أوقاته، فاتخذ بها قصرًا حسنًا ودحا جنانًا واسعة، ونقل إليه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وسماه باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه، ومازالت بعض آثار هذا القصر قائمة حتى وقتنا هذا.

وعندما ولي الأمير عبد الرحمن بن مُحَمَّد مُحَمَّد الإمارة عام ٩١٢م تلقب بألقاب الخلافة عام ٩٣٢م لما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة هجرية (٩٢٩م) فتلقب بألقاب الخلافة ليحيي للخلافة ما كان لها من هيبة، فلما استفحل أمره، ونالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار

ما نالته حتى بلغت مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه الأمم الأخرى، رأى أن يبني له قصرًا يليق بجلال الخلافة وبهائها، فبنى مدينة الزهراء على بعد خمسة أميال تقريبًا غرب قرطبة على سفح جبال العروس.

ولقد أمدتنا المدونات التاريخية العربية بمعلومات قيمة عن بناء هذه المدينة الخلافية وعن الفترة القصيرة التي ازدهرت فيها، وعم بها الرخاء، ثم عن الأسباب التي أدت بها إلى الزوال، فانحدرت سريعًا إلى القبر، وكانت ما تزال في مقتبل عمرها، ويروي المؤخرون قصة بناء هذه المدينة فيما يشبه الأساطير، ويعزون تسميتها هكذا إلى جارية أغرم بها عبد الرحمن الناصر واسمها زهراء، ويعللون ذلك بوجود تمثالها على أحد أبواب المدينة، وللقارئ أن يطالع تلك القصة في كتب التاريخ(٧).

وحسبنا أن نذكر هنا أن شيد بها قصور كثيرة: منها، قصر المؤنس، وقصر الخلافة، وقصر الزهراء، وكانت أسقف هذه القصور من القراميد المذهبة، وعمدها من الرخام والمرمر، وجدرانها مكسوة بلوحات الرخام المذهبة والفسيفساء .

وقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع تلك القصور وما احتوته من مظاهر الترف والثراء، مما لا يمكن أن يصدقه العقل ولا المنطق، غير أن ما أسفرت عنه الحفريات أثبت بصورة قاطعة صدق هذا الوصف، فكشفت عن قطع من أجمل ما أبدعه فن النحت في الرخام والجص والحجر في الأندلس في العصر الوسيط.

ولم يتم بناء مدينة الزهراء في عهد عبد الرحمن الناصر، فأتمها ابنه الحكم المستنصر من بعده عام ٩٧٦م، وظلت الزهراء في ازدهارها حتى ظهرت مدينة

الزهراء في الوجود، وهي مدينة بناها المنصور بن أبي عامر سنة ٣٦٨هـ . (978) [٨] غير بعيدة من قرطبة، فأصبحت منافسة للزهراء... ... وأقبل عام ٤٠١هـ – (١٠١٠م) فكان مؤذنًا بالانهيار، إذ هاجمتها حشود البربر في ٤ من نوفمبر سنة ١٠١٠م، واقتحموها عنوة، وتبع ذلك مذبحة دامية قضوا فيها على حامية المدينة، وقتلوا الرجال والنساء والأطفال ونهبوا الدور والقصور، وأوعز إليهم سليمان المستعين بإضرام النيران في المدينة، حتى أصبحت أثرًا بعد عين!!

صارت الزهراء أكوام خرائب، وتلال أطلال، وكانت جدرانها الخربة ما تزال قائمة في عهد الشريف الإدريسي، ولم يخطئ أحد الكتاب في تسميتها "بومبي العربية."

وقد تنوقلت عن روائع هذه المدينة روايات ساقها المؤرخون والجغرافيون العرب والإسبان الذين بهرتهم روائعها الفنية، واجتذبت أكوام الخرائب والارتفاعات التي كانت تضم في أحشائها بقايا قصور الزهراء اهتمام رجال الآثار في العصر الحديث، بعد أن ظلت حتى مطلع القرن الماضي محاجر غنية تستخرج منها الأحجار وتيجان الأعمدة لتزين دور قرطبة وإشبيلية، ثم عمد المهندس الأثري فيلاسكيثبوسكو إلى إجراء أول حفائر علمية بها، وكان أول ما أسفر عنه البحث هو الكشف عن الفاصل بين المدرج العلوي والأوسط، كما أسفرت عن كشف كميات هائلة من الخزف ذي البريق المعدني وقطع كثيرة من الزجاج، ثم كشف عن آثار أحد تلك القصور، وظن فيلاسكيثبوسكو أنه قصر الخلافة[٩] على حين ثبت فيما بعد أن ما اكتشفه لا يعدو أن يكون جزءًا من قصر الحكم المستنصر بدليل ما نقرؤه على بعض تيجان الأعمدة.

ثم تتابعت الحفائر العلمية على أيدي كبار رجال الآثار مثل دون فيليث هرناندث ودون رافاييل كاستخون، فأسفرت عن اكتشاف آثار قصر من قصور الناصر سنة **١٩٤٣**(١٠)، وهي آثار غنية بالزخارف في الحجر والرخام، وقد نسبت هذه الآثار إلى عبد الرحمن الناصر لوجود اسمه منقوشًا على تاجين صغيرين فيها، وما زالت الحفائر الأثرية جارية حتى وقتنا هذا، وما يزال دون فيليث هرناندث يتابع بحوثه الأثرية وترميماته لقصر الناصر، فاستطاع أن يعيده إلى صورته الأولى كما استطاع أن يكسو جدرانه بالقطع الحجرية التي كانت مدفونة في الأطلال، بعد أن لصقها فيما بينها مراعيًا في ذلك تناسب الزخارف وتناسقها .

ويمكننا أن نستنتج مما أسفر عنه البحث الأثري أن قصور هذه المدينة نوعين :

الأول: الدار التي تقوم على فراغ مركزي وهو الصحن الذي تتوزع حوله كل الغرف.

الآخر: هو القصر الذي يتألف من بلاطات متوازية تفصلها فيما بينها أعمدة تقوم عليها عقود كما هو الحال في المساجد الأندلسية(١١)،وقد اتبع هذا النوع نظام القصور الفارسية.

كما أسفر البحث الأثري عن كشف الموقع الذي كان يشغله جامع الزهراء، وأغلب أرضيات المجالس والقاعات التي تتألف منها القصور مكسوة بقراميد الآجر المرصعة بالأحجار وقطع الآجر الحمراء في أشكال هندسية غاية في الروعة والجمال، وتكشف تيجان الأعمدة وطنوفها وقواعدها وبعض اللوحات الحجرية عن فن رفيع في الحفر الغائر في الحجر والرخام، وينحو هذا

الفن في أسلوبه نحو التقاليد البيزنطية حين ينساب الحفر إلى عمق كبير، مما يؤدي إلى إكساب الزخرفة نوعًا من التباين الحاد بين الظل والضوء، ومعظم التيجان من الطراز الكورنثي والطراز المركب، وكانت قواعد الأعمدة من الرخام الناصع البياض.

القصور في عصر ملوك الطوائف

انتشر سلك الخلافة الأموية في ١٠١٠م، وتبع ذلك قيام عدد من الدويلات المستقلة في جميع أنحاء الأندلس، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالبلاد، واقتسموا خطتها، وتغلب بعضهم على بعض، ثم استقل بأمر هذه البلاد ملوك استفحل أمرهم، وعظم شأنهم، أمثال بني عباد بإشبيلية، وبني الأفطس ببطليوس، وبني ذي النون بطليطلة، وبني جهور بقرطبة، وبني حبوس بغرناطة.

وكان طبيعيًا، وقد انهار سلطان الخلافة بقرطبة، أن تلتمس العناصر الثقافية والفنية، التي كانت تزخر بها، مجالًا أنسب لها في ظل هؤلاء الملوك، وكان نتيجة لذلك أن تألفت في عاصمة كل مملكة من هذه الممالك الصغيرة جماعات فنية، حتى لقد اعتبر هذا العصر بحق أزهى عصور الفن الأندلسي بالرغم من التدهور السياسي الذي أخذ يدب في جسم دولة الإسلام بالأندلس، ويصيب سلطان المسلمين في هذه البلاد، وزحف الاسترداد الإسباني زحفًا حثيثًا على حين استغرق ملوك الطوائف في الملاذ، وعكفوا على اللهو، واستناموا لحياة الترف ومظاهر الرقة التي كانت تنعم بهما الأندلس في ذلك العهد، ولاذوا بالجزيات لألفونسو السادس اتقاء لشره ورغبة في خطب سلمه ومرضاته، حتى ظهر يوسف بن تاشفين أمير المسلمين في المغرب، وتعلقت آمال

الأندلس بنجدته بعد أن ضايقهم ألفونسو في طلب الجزية، فعبر ابن تاشفين الزقاق إلى الأندلس والتقت جيوشه وجيوش قشتالة في واقعة الزلاقة، فكانت هزيمة النصارى وبداية عصر المرابطين في الأندلس .

وقد بلغ ملوك الطوائف في الترف والرقة الغاية، وأقاموا القصور السامقة والآثار الجليلة الرائعة وقد بالغ المؤرخون العرب في وصفها، ومن أهمها قصر ابن ذي النون في طليطلة، وقصر الجعفرية بسرقسطة، وقصر القصبة بمالقة .

قصر المأمون ابن ذي النون بطليطلة :

شيده ملك طليطلة المأمون ابن ذي النون (في ٤٤٥ هجرية – ١٠٦٣م)، وأتقنه للغاية، وأنفق عليه أموالًا طائلة، وصنع وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطًا بها، ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصل إليه، وتوقد فيها الشموع، فيرى لذلك منظر بديع عجيب .

وقال ابن حيان عن ابن جابر في وصف أحد مجالس هذا القصر وهو مجلس المكرم: "وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس، وأغرب ما قيد لحظي من بهي زخرفة الذي كاد يحبس عيني من الترقي عنه على ما فوقه، أزاره الرائع الدائر بأسه حيث دار(١٢)، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة ونصاعة التلوين، قد خرمت(١٣) في جثمانه صور البهائم، وأطيار ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أفنان أشجار وأشكال الثمر ما بين جاد وعابث، كما تعلق بعضها بين

ملاعب ومثاقف ترنو إلى من تأملها بألحاظ عاطفة كأنها مقبلة عليه أو مشيرة إليه!! وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها متميزة من شكلها، تكاد تقيد البصر عن التعلي إلى ما فوقها، قد فصل هذا الإزار(١٤) عما فوقه كتاب(١٥) نقش عريض التقدير، مخرم محفور، دائر بالمجلس الجليل من داخله، قد خطه المنقار( ) أبين من خط التزوير، قائم الحروف بديع الشكل، مستبين على البعد، مرقوم كله بأشعار حسان، قد تخيرت من أماديح مخترعه المأمون.

وفوق هذا الكتاب الفاصل في هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار وصور أنعام وأشجار تذهل الألباب وتقيد الأبصار .

وأرض هذه البحار(١٦) مدحوة من أوراق الذهب الإبريز، مصورة بأمثال تلك التصاوير منالحيوان والأشجار بأتقن تصوير وأبدع تقدير"(١٧)، وأضاف قائلًا:

"ولهذه الدار بحيرتان قد نصبت على أركانهما صور أسود مصوغة من الذهب الإبريز أحكم صياغة، تتخيل لمتأملها كالحة الوجوه فاغرة الشدوق، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هونًا كشيش القطر أو سحالة اللجين، وقد وضع في قعر كل بحيرة منها حوض بديع يسمى المذبح، محفور من بديع المرمر، كبير الجرم، غريب الشكل، بديع النقش، قد أبرزت من جنباته صور حيوان وأطيار وأشجار(١٨)، وينحصر منها في شجرتي فضة عاليتي الأصلين غريبتي الشكل، محكمتي الصنعة، قد غرزت كل شجرة منهما وسط كل مذبح بأدق صناعة، يبرق فيهما الماء من المذبحين، فينصب من أعالي أفنانهما انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية، فتحدث لمخرجه نغمات تصبي النفوس، ويرتفع

بذروتها عمود من الماء ضخم منضغط الاندفاع، ينساب من أفواهها، ويبلل أشخاص أطيارها وثمارها بألسنة كالمبارد الصلقية، يقيد حسنها الألحاظ الثاقبة، ويدع الأذهان الحادة كليلة."

هذا الوصف المعبر الذي ينطق بما كان عليه هذا القصر يجلو لنا ما كان يقوم به المأمون لتجميل قصره، كما يشير إلى الدور الذي لعبته البحيرات في تجميل القصر ومجالسه، وقد اندثر هذا القصر، ولا نعرف عن أمره شيئاً يذكر، على أن بطليطلة لليوم آثار قصر يعرف بقصر جاليانا في فحص نهر تاجة، ويغلب على الظن أنه هو المنية أو القصر الشهير الذي شيده أبو الحسن يحيى المأمون بن ذي النون .

وقد نسج المؤرخون الإسبان حول هذا القصر قصصًا من الفروسية والأساطير، وتروي هذه القصص أن أميرة مسلمة تدعى جاليانا كانت تعيش فيه، وبعد مغامرات عجيبة الشأن انتهى بها الأمر إلى أن تتزوج الإمبراطور شارلمان، وقد بقي من هذا القصر جزء مستطيل أقيم في طرفيه طبقتان تؤلفان برجين كبيرين، وتتكون الطبقة الدنيا من قاعة متوسطة، وتتخلل جدرانها فتحات.

والبناء على الطراز الطليطلي تتناوب فيه صفوف الحجارة وصفوف الآجر، أما القبوات فمتعارضة، وقد بقيت بعض عقود نصف دائرية قليلة التجاوز، وأخرى مفصصة في مداخل الغرب، أما الزخارف فمن نوع المدجن، وتحمل رنوك أسرة قزمان مما يفسر إلى حد كبير صحة هذه الرواية(١٩).

قصر الجعفرية بسرقسطة:

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ملوك سرقسطة، وما إليها، ومن أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة سقوط طليطلة عام ١٠٨٥م ، واستشهد عام ١١٠٩م بظاهر سرقسطة، وكانت سرقسطة في عهده "جنة الدنيا، وفتنة المحيا، الوصف، وموقف السرور والقصف [٢٠]"

وقصر الجعفرية من بناء أبي جعفر أحمد المقتدر بالله عام (١٠٤٧-١٠٨١م) كما يثبت ذلك نقش بأحد تيجان أعمدته، وقد سمي بالجعفرية نسبة إلى كنيته "أبي جعفر"، وقد كان المقتدر يسميه "مجلس الذهب" وفيه يقول:

قصـــر الســـرور ومجلـــس الـــذهب ‌ ‌ ‌ ‌ بكمـــا بلغـــت نهايـــة الأرب

لـــو لم يحـــز ملكـــي خلافكمـــا ‌ ‌ ‌ ‌ كانـــت لـــدي كفايـــة الطلـــب

وما كادت سرقسطة تقع في أيدي النصارى حتى تحول القصر إلى دير، ثم إلى حصن استقر فيه ملوك أرغون، ثم ألحقت به عدة مقصورات دينية نذرت لسان جورج، ثم أضيف إليه في عهد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا قاعة العرش الرائعة عام ١٤٩٢م، غير أنه ما لبث أن أقيمت فيه محكمة التفتيش بسجونها الرهيبة، ثم دعمه فيليب الثاني بمعاقل وحفر من حوله خندقًا.

وفي عهد إيزابيلا الثانية تحول إلى معسكر سنة ١٨٦٦م، فهدمت المقصورة الكبرى التي شيدها بالدور الرابع، وجردت منها زخارفها الإسلامية الرائعة.

ويقول جوميث مورينو في ذلك: "إنه عمل بربري يندى له الجبين من أشد النقط سوادًا في تاريخ إسبانيا"[٢١] ، ولم يستثن من هذا العمل الهمجي سوى المصلى الذي يؤلف بزخارفه – مع ما يحتويه متحفا سرقسطة ومدريد من تيجان أعمدة وعقود جصية رائعة كل ما بقي من بني هود .

ومن العسير أن نتصور ما كان عليه هذا القصر قبل أن يعتريه هذا التشويه، ولكن لدينا تصميمًا حربيًا يصور هذا القصر عام ١٧٥٧م، وقد استطاع سافيرون أن يقيم على هذا التصميم دراسة علمية هامة.

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر إبرة، ويتألف من سور مستطيل (٨٠× ٦٨م) يدعمه تسعة عشر برجًا أسطواني[٢٢]الشكل عدا برج التكريم فقد كان مربع الشكل، بداخله عقود متجاوزة، وفي وسط هذا البناء صحن مستطيل تدور به أروقة جانبية على حين كانت تطل على جانبيه القصيرين مجموعتان من الغرف، كل منهما تتألف من قاعة في الوسط وغرفتين جانبيتين، كما هو الحال في قصور بني نصر بغرناطة وقصور المدجنين[٢٣]، وكان بناء هذا القصر من الملاط .

وكان إلى جانب برج التكريم قاعة كبيرة لعلها مجلس الذهب الذي كان يعتز به المقتدر، وتنفتح في جانبيها غرفتان إحداهما يشغلها المسجد الذي مازال قائمًا حتى وقتنا هذا، وكانت هذه القاعة الكبرى تتصل جنوبًا بالصحن، وكان يقابله في الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام نسبة إلى كثرة أعمدتها الرخامية، وقد كشفت بائكة من العقود الإسلامية كانت تتصل بأسطوان المدخل الرئيس على إثر هدم جزء من مقصورة سان جورج التي في جنوب قاعة الرخام، وتتألف هذه البائكة من ثلاثة عقود كلها غلو في التعقيد الزخرفي

وعقودها طبقتان، إحداهما فوق الأخرى، والدنيا منهما من عقود مفصصة متقاطعة، فوقها عقود أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات، وفيها نشهد اتجاه الفن الأندلسي إذ ذاك إلى الإسراف في التعقيد والغلو في حشد الزخرفة، والتوسل بالعقود المتقاطعة التي تظهر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة .

أما المصلى فبابه مدجن، أما داخله فمثمن الشكل، وأصله مربع طول ضلعه ٥,٤٦ من المتر تحول إلى مثمن بأن أقيمت في أركانه أنصاف حوائط، ويشغل المحراب الركن الجنوبي الشرقي، وتعلوه قبيبةمفصصةقوقعية الشكل، ومدخله على شكل عقد متجاوز يشبه عقد جامع قرطبة، يحيط به إفريز مستطيل وفي بنيته قوقعتان، أما سنجاته فمحشوة بالزخرفة وملساء بالتناوب، ويزين الجدران السبعة الأخرى عقد أصم شديد التعقيد من النوع الذي تختلط فيه الخطوط والمنحنيات[٢٤]، ويحيط به إفريز بارز يتخذ الشكل نفسه، وتحمل هذه العقود أعمدة ملتصقة بالجدران، ويجري بالأجزاء العليا من جدران المصلى طراز زخرفي تعلوه بائكة زخرفية، تتألف من عقود مزدوجة مفصصة تقوم على أعمدة صغيرة، ويرجع الأستاذ توري ألبا أستاذ الفنون بجامعة سرقسطة أن هذا المسجد كانت تعلوه قبة قائمة على ضلوع متقاطعة على النحو الذي نراه في قبة المسجد الجامع بتلمسان.

وليس هذا المسجد– على حد قول أحد مؤرخي الفن الإسبان– بيتًا لصلاة، "وإنما هو بيت للفن يضم أروع ما أبدعه الفن الأندلسي"[٢٥]. أما العقدان المحفوظان اليوم في متحفي مدريد وسرقسطة فكانا يزينان القاعة الرئيسة، وكانت هذه العقود فيما يظهر أربعة موزعة على الجدران الأربع

للقاعة، وفيها يستحيل على المرء أن يتقصى امتداد خطوطها، إذ هي تتشابك وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة فريدة.

ويحتفظ متحف سرقسطة بمجموعة رائعة من تيجان الأعمدة المرمرية التي تمثل لنا مقدار التطور الذي بلغه الفن الأندلسي بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة على الإسلام، ونلمس في هذه التيجان حرية الأداء التي طبعت هذه التيجان بطابع من الرشاقة وأضفت عليها قوامًا أسطوانيًا يحمل في أعلاه رأسًا مكعبًا، وتكسو هذه التيجان زخارف قوامها ورقة الأكنش، والتوريقات الدقيقة التي حفرت على طبقتين حفرًا غائرًا يبرز هذه الزخارف.

ولا تزال في متحف سرقسطة أشلاء كثيرة من هذا القصر نجهل مكانها منه، وتتألف من ألواح رخامية وشمسيات جصية إن دلت على شيء فعلى ما وصل إليه الفن الإسلامي في الأندلس من تعقيد رائع يعجز عنه الوصف، ويعتقد لامبيريث أن قصر الجعفرية هو الأصل الذي حاكاه عرفاء الموحدين في إشبيلية وبنو نصر في غرناطة، ففي هذه الأبنية يغلب طابع الضعف، ويشيع استعمال الزخارف الحصينة لقلة الأحجار كذلك أثر قصر الجعفرية في عمائر الموحدين وعمائر بني نصر، من حيث تصميم الصحن المستطيل والمجنبات المحيطة به(٢٦).

قصر بني حمود بقصبة مالقة:

كان علي بن حمود الحسني وأخوه قاسم من سلالة إدريس بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة بفاس قد أجازا مع البربر من العدوة إلى الأندلس، وآزرهما البربر، فملكا قرطبة سنة ٤٠٧هـ . (١٠١٦م)، وقتلا سليمان المستعين، وقام بالأمر من بعده علي بن حمود الذي تلقب بالناصر، ودام له

الملك عامين إلى أن قتله صقاليته سنة ١٠١٨م، فولي مكانة أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازعه الأمر يحيى بن علي بن حمود، وكان قائمًا على سبتة، فأجاز إلى الأندلس سنة ١٠١٩م واحتل مالقة، وكان أخوه إدريس واليًا عليها منذ عهد أبيه، فبعث أخاه إلى سبتة، وزحف يحيى إلى قرطبة، فاستولى عليها سنة ١٠٢١م وتلقب بالمعتلي، وأخذ يوسع رقعة مملكته، فاستولى على الجزيرة الخضراء ثم خضع له أهل شريش سنة ١٠٢٥م، وظل قائمًا بالحكم حتى هلك عام ١٠٣٧م، وخلفه أخوه إدريس بن علي وضم إليه رندة والمرية، ولكنه هلك عام ١٠٣٩م وبويع ابنه يحيى، ولكنه فر إلى قمارش.

ثم توالت الأحداث على هذا النحو بين أبناء العم، وأخذ المعتضد بن عباد ملك إشبيلية، وقد انتهز الفرصة، وانتزع من بني حمود المدينة إثر المدينة، فسقطت أركشومورور ورندة سنة ١٠٥٣م، ثم سقطت في يده الجزيرة الخضراء سنة ١٠٥٥م واستولى ابنه المعتمد عليجيان سنة ١٠٧٤م، وما لبثت دولة بني حمود أن انقرضت على أيدي المرابطين.

وقد شغلت الحروب والمنافسات والفتن الداخلية أفراد هذه الأسرة عن العمارة والتشييد. ويبدو أن يحيى بن علي هو الذي قام ببناء هذا القصر بقصبة مالقة، ولم يبق من هذا القصر الذي أضيف إليه في عصر بني نصر سوى قاعة يبلغ طولها ٧,٥٠ من المتر، وعرضها ٣ أمتار، وتنتهي جنوبًا بشرفة رائعة تطل على البحر، وتبدو جدرانها من الخارج فقيرة البناء، ولكن الزخارف التي تكسو أجزاءها الداخلية وثيقة الصلة بزخارف قصر الجعفرية.

وعندما بدأت الحفائر في قصبة مالقة سنة ١٩٣٦م لم يكن في الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل الذي يرجع إلى القرن الحادي عشر، ومدخل

القاعة تزينه بائكة من ثلاثة عقود شديدة التجاوز، مكسوة سنجاتها بزخارف رائعة، ويسبق هذه البائكة رواق أعيد بناؤه في عهد بني نصر كما يبدو من أسلوب التيجان ونوع العقود، وتطل هذه القاعة على صحن شأنها في ذلك شأن القاعة الجعفرية بسرقسطة، وإلى غربها بناء مربع طول ضلعه ٢,٥٠ من المتر ويقوم في كل واجهة من واجهاته الأربع عقدان متقاطعان، وينشأ من تقاطعهما عقد جديد يعلوها على النحو الذي نراه في عقود زيادة الحكم بجامع قرطبة، وهذه العقود جصية ملساء، أما القاعة نفسها فكان يدور بجدرانها طراز بارز به زخرفة جصية لم يبق منه إلا أجزاء ملتصقة بالجدران .

وعقود المدخل تتألف من سنجات مزخرفة وأخرى عارية من الزخارف بالتناوب، كما هو الحال في عقود جامع قرطبة بزيادة الحكم، أما زخارف عقود المدخل وعقود الشرفة فجصية متعددة الألوان، تنتشر فيها التوريقات، وتظهر بينها مراوح نخيلية طويلة ما تلبث أن تلتف حول نفسها، وكيزان الصنوبر، وفي باطن هذه العقود لوحات موزعة في امتداد السنجات تحتشد فيها الزخارف الجصية التي تذكرنا بفن قرطبة وتمهد لزخارف قصر الجعفرية .

الهوامش

(١) هكذا يسمى العرب مضيق جبل طارق

(٢) المقري: "نفح الطيب من عصن الأندلس الرطيب" تحقيق محيي الدين عبدالحميد ج١ ص٣١٠.

(٣) ابن مسلم الشنتويني "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" القسم الأول، المجلد الثاني، القاهرة، عام ١٩٤٢ ص١١١-١١٢.

(٤) ابن أبي زرع، "رودس. القرطاس" ج٢ ص١١٠.

(٥) نفح الطيب جزء٢ ص١١٠

(٦) المرجع نفسه ص١٠٦– ١٠٧

(٧) انظر على الأخص كتاب "نفح الطيب" جـ٢ صفحات ٦٥– ٦٨، ١٠٣–١٠٥، وابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان" ج٢ ص٢٩–٣٠.

(٨) بناها مُحَّد بن أبي عامر على نهر قرطبة، وتوسع في تخليطها، وبالغ في رفع أسوارها، فاتسعت المدينة وصارت كاملة بعد عامين وفي سنة .٣٧ هـ (١٨٠م) انتقل اليها المنصور واتخذ فيها الدواوين وبني كبار قواده ورجال حاشيته بها عظيم الدور وشاهق القطور وقامت بها الأسواق وكثرت الأرفاق. وعطل ابن أبى عابر قصر الخليفة بالزهراء، وصيره بمعزل من سامعه وسد باب قصره عليه وكان لابن أبى عامر بالزاهرة قصر رائع يعرف بالعامرية يفوق قصور الزهراء في عظمته وجماله، وخربت الزاهرة بعد وغاة المنصور ومضت كأسس الدابر وخلت منها الدسوت المكتبية والمنابر وتلاشى أمرها وأصبحت قاعا صفعفا.

(9) Velazquez Bosco (R),- Excavaciones en Medina Azhara Madrid 1923.

(١٠) انظر كاستخون

(11) Rafael Castejon : Excavaciones del plan-nacional en Médina Azhara (cordoba). Campana de 1943, Madrid 1945
Nuevas excavaciones en Medina al - Zahara; El salon de 'Abd er-Rahman. III.Al-Andlus, 1945, pp. 147–159 .

Elie Lanbert : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, Al-Andalus, Vol. XIV, fasc. 2, 1949. pp. 273-291.

(١٢) يقصد بذلك الكسوة الرخامية التي تغطي الجزء الأدنى في الجدار .

(١٣) يعني الزخارف الحيوانية التي حفرت في هذه الكسوة الرخامية حفرا غائرا عميقا من شأنه إبراز هذه الأشكال حتى تبدو كالتماثيل.

(١٤) اشتقت هذه الكلمة من الازار وهو رداء يفطي الجزء الأسفل من الجسم من الوسط حتى تضفي الساقين ومنه فعل تأزر ال أحاط بحزام أو نحوه ومازالت هذه اللفظة تستعمل في اللغة الأسبانية بالمعني الذي أشرنا إليه فهي كسوة من الرخام أو الزليج تغطى الأجزاء الدبيا من الجدران (Alizar)

(١٥) افريز أو طراز من الكتابة يحيط بأعلى الجدار.

(١٦) الآلة التي ينقش بها النقاش.

(١٧) أفاريز أو طراز أرضيتها مزججة وأنزلت بالذهب.

(١٨) انظر ابن بسام :"الذخيرة" قسم رابع مجلد أول ص ١٠٢-١٠٣ .

(١٩) يشبه هذا الحوض حوض مدينة الزاهرة الذى عثر عليه في إشبيلية، وفيه هذه الزخرفة الحيوانية النباتية نفسها.

(20) Marqués de Lozoya : Historia del; arte Hispanico t. I, p. 237.

(٢١) "نفح الحيب" ج ٢ ص ١٧٠ .

(٢٢) المرجع نفسه ص ٤١٧.

(23) Gomez Moreno : Ars Hispaniae, tomo il. p. 221 and & El arte en Espana e el mogreb, colecion Labor, p. 180.

(٢٤) يتشابه هذا القصر في احاطة الأبراج المستديرة والقصور الإسلامية المنبئة بالصحراء ما بين سوريا والعراق كقصر المشتي والأخيضر ، في حين تتشابه تفاصيله المعمارية الداخلية وزخارفه والعناصر المعمارية والزخرفية للفن الخلافي القرطبي.

(٢٥) هم اهل الدجن أي المسلمون الخاضعون للنصارى .

(٢٦) انظر Gomez Moreno, Op. Cit. p. 226

(27) J. Galiay, El Castillo de la Aljoferia, 1906, p. 20.

(28) Ricardo del Arco La Aljaferia de Zaragoza, Revista «Arte Espanols, No. 5, 1926, p. 166.

(٢٩) كاتب الدراسة عالم جليل في مجال التاريخ له عدة مؤلفات .. توفي عام ٢٠٠٣م

قصور إشبيلية في العصر الإسلامي

د. السيد عبد العزيز سالم

أصبحت إسباليس Hispalis (أو إشبيلية) منذ أن مصرها يوليوس قيصر وأعاد بنيان أسوارها ووسع عمرانها تجاه نهر بيطي الذي عرف في العصر الإسلامي بالوادي الكبير أو النهر الأعظم، أعظم مدن إسبانيا الجنوبية، وكان قيصر سورها وأمهرها بقصبتين متقنتين ترتفعان في وسطها، وجعلها أهم قواعد الأندلس [١]، ونعمت إشبيلية بهذا التفوق طوال العصر الروماني وحقبة طويلة من عصر القوط الغربيين، فقد كانت حاضرة القوط ومقر ملوكهم إلى أن نقل ليوفيخيلدو الحاضرة القوطية إلى طليطلة في سنة ٥٦٧م، وتعرضت أسوارها المنيعة لهجماته في سنة ٥٨٣[٢] ، ومع ذلك فإن إشبيلية لم تتخل عن مكانتها السامية التي كانت تتبوأها، وبقي فيها "شرف الرومانيين وفقههم ودينهم ورياستهم في دنياهم"[٣].

ووضع انتصار طارق بن زياد على جيوش القوط في وادي لكه في ٦ شوال سنة ٩٢هـ (٢٥ يوليو ٧١١م) نهاية لحكم القوط، ثم زحف إلى شذونة ففتحها عنوة ومضى بعدها إلى مدور وعطف على قرمونة، ثم انحرف إلى إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية، وكان هدفه التالي مدينة استجه التي أطبق عليها من كل جانب حتى دخلها صلحًا، ومن هناك سير عسكر لفتح قرطبة في حين واصل زحفه نحو طليطلة العاصمة.

وفي العام التالي جاز موسى بن نصير إلى الأندلس في ١٨ ألف من العرب، وتمكن من افتتاح إشبيلية بعد أن حاصرها أشهرًا[٤] ، وكانت آنذاك "أعظم مداين الأندلس، شأنًا وخطبًا، وأعجبها بنيانًا وآثارًا"[٥] ، ولعل ذلك كان من جملة الأسباب التى دفعته إلى اختيارها قاعدة للأندلس، بالإضافة إلى مزايا موقعها الاستراتيجي على البحر المحيط عند مصب الوادي الكبير، وارتباطها في يسر عن طريق البر والنهر بسائر مدن الأندلس الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية، وسهولة اتصالها بسواحل العدوة من بلاد المغرب، غير أن إشبيلية لم تهنأ طويلًا بهذا التفوق، إذ انتقلت الحاضرة منها إلى قرطبة بعد أربع سنوات فقط من رحيل موسى بن نصير إلى الشرق، وتم ذلك على يدي ابن حبيب اللخمي في نفس العام الذي لقي فيه عبد العزيز بن موسى مصرعه (سنة ٩٧هـ/ ٧١٦م).

وعلى الرغم من ذلك، فقد ازدهرت إشبيلية في عصر الولاة واستقرت بها أسرات عربية مصرية وعلى الأخص يمنية، فمن المصرية بنو الجد من أعقاب عبد الملك بن قطن الفهري[٦] وبنو الطفيل بن العباس من غطفان وكانت منازلهم بقرية قرشانه من الشرف[٧] ، وبنو عوف بن قرة بن ديسم من ذبيان[٨] ، وبنو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي بمرينانه الغافقيين قرب إشبيلية على الوادي الكبير[٩] ، ونزلتها من اليمنية أسرات أكثر عددًا تركت بصماتها واضحة في عدد من المواضع والقرى المحيطة بإشبيلية مثل قرية مقرانة[١٠] التي يذكرنا اسمها بموضع من اليمن اتخذته الدولة الطاهرية حاضرة لها، وليس من المستبعد أن يكون هذا الاسم قد أطلق على موضع نزلته إحدى قبائل اليمن التي استقرت من نواحي إشبيلية على غرار بعض المواضع التي نزلتها قبائل يمنية مثل قلعة خولان (los Gazules Alcala de) وقلعة يحصب المعروفة أيضًا

بقلعة بني سعيد (وتعرف اليوم باسم Alecale la Real)، وإن كان الباحث الأثري الأستاذ كويانتيس دي تيران Collantes de Teran يعتقد أن المقطع الأخير من مقارنة Macrena وهو يضاف عادة إلى اسم علم للدلالة على صفة مثل Juliana التي تعني عقارًا يملكه شخص يدعى Julins وعلى مثالها Macarena التي تعني قربة تنتسب إلى شخص يدعى، ويعتقد كويانتيس أن Macarena كانت موضعًا أو قرية تقع على المحجة العظمى يقوم فيها برج للحراسة على نمط القرى التي كانت تتبع إقليم إشبيلية(١١) ، ومن بين أسماء القبائل اليمنية التي استقرت بإشبيلية نذكر بنو الخيار بن مالك بن زيد من كهلان بن سبأ(١٢) ، وبنو الضبيب من جذام، وبنو ثوابة بن عدي وبنو عباد من لخم(١٣) ، وبنو خلدون الخصارمة(١٤) ، وكذلك استقرت بإشبيلية طائفة كبيرة من المولدين نخص بالذكر منهم بنو أنجلين Angelino وبنو شرقة Sabarico وبنو الجريح. Morce(١٥) .

ولم يلبث الصراع بين العصبيتين اليمنية والقيسية أن وجد صداه في الأندلس في عصر الولاة وأصبحت البلاد مسرحًا للفتن والاضطرابات فقدت إشبيلية خلالها كثيرًا من تألقها، وأثر ذلك بوضوح في عمرانها، ولكن قيام الدولة الأموية في الأندلس في سنة ١٣٨هـ وضع حدًا لأقوامها، ولم يزعزع استقرار الإمارة الأموية في قرطبة المكانة السامية التي ظلت تنعم بها إشبيلية في ظل بني أمية، فقد ازدهرت هذه المدينة اقتصاديًا وعمرانيًا، وعلى الأخص في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦- ٢٣٨هـ/ ٨٢١- ٨٥٢م) أول أمراء بني أمية الذي عمل على تفخيم السلطنة بالأندلس بما شيده من قصور ومساجد وحصون وأسوار وما أسسه من مدن وما أحدثه من نظم إدارية ومؤسسات للحكم، وأبرز أعماله الإنشائية المسجد الجامع بإشبيلية الذي تولى

إنشاءه قاضي إشبيلية عمر بن عدبس في سنة ٢١٤هـ (٨٢٩/ ٨٣٠م) [١٦] . وإلى عبد الرحمن الأوسط يرجع الفضل كذلك في إعادة إنشاء دار الصناعة القوطية بإشبيلية بعد غارة النورمان على إشبيلية في سنة ٢٢٩هـ[١٧] (٣٨٤٤)، وفي إنشاء سور مدينة إشبيلية كذلك[١٨] .

وفي عهد الأمير عبد الله بن مُحَمَّد رفعت إشبيلية راية الاستقلال، وخرجت عن فلك الإمارة الأموية بقرطبة وذلك بعد أن تغلب عليها أبو اسحق إبراهيم بن حجاج اللخمي (٢٨٦– ٢٩٨) أحد رؤساء إشبيلية وزعمائها، من بيت بني حجاج وكان من أشهر البيوتات العربية في هذه المدنية، فجبى الأموال واصطنع الرجال وارتقى في درج الجلال[١٩] ، وكان زعيمًا قويًا بعيد الهمة جميل الذكر، امتثل أمراء قرطبة في اتخاذ بلاط تسوده الأبهة والفخامة، وكان يقلد أمراء قرطبة[٢٠] فاتخذ لنفسه جندًا كما يفعل الأمراء، ورتب لهم الأرزاق فكمل في مصافه ٥٠٠ فارس[٢١] ، وكان له بإشبيلية قاضٍ فضل في الخصومات يقوم بالأحكام، وصاحب مدينة يقيم الحدود، كما كانت له بإشبيلية طرز يطرز فيها على اسمه كما يفعل الأمير الأموي[٢٢] ، بالإضافة إلى هذا كله استقدم الشعراء والعلماء من الأندلس وخارجها، فقد انتجعه شاعر قرطبة الأكبر أبو عمر أحمد بن عبد ربه[٢٣] كما قصده الشاعر القرطبي مُحَمَّد بن يحيى القلفاط[٢٤] ، ووفد إليه أبو مُحَمَّد العذري من الحجاز فأكرم مثواه ورفع منزلته[٢٥] ، وذكروا أنه سمع بجارية بغدادية تدعى قمر، فبذل في ابتياعها من بغداد أموالًا طائلة إلى أن استقرت بدار مملكته بإشبيلية، وكانت بارعة الجمال، فصيحة اللسان، عارفة بالغناء وصوغ الألحان[٢٦] ، ويذكر المقري أنها "جمعت أدبًا وظرفًا، ورواية وحفظًا، مع فهم بارع، وجمال رائع، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها"[٢٧] .

واستمر بنو حجاج يحكمون إشبيلية بعد وفاة إبراهيم بن حجاج في ٢٩٨هـ في شخص ولده عبد الرحمن (٢٩٨– ٣٠١هـ) ثم أحمد بن مُحَّد بن مسلمة بن حجاج (٣٠١هـ) إلى أن اعتلى الأمير عبد الرحمن بن مُحَّد دست الإمارة بقرطبة، ونجح في لم شتات الأندلس وجمع ما انفرط من عقدها في عهود أسلافه، فاستسلم له أحمد بن مسلمة بن حجاج بعد أن حاصرته قواته بقيادة قاسم بن وليد الكلبي صاحب الشرطة، وحمد بن إبراهيم بن حجاج شهورًا من سنة ٣٠١هـ (٩١٣م) واستعمل عليها الأمير عبد الرحمن عامله سيعد بن المنذر القرشي، المعروف بابن السليم (ت ٣٢٦هـ ويذكر الحميري أنه) هدم سورها وألحق أعاليه بأسافله، وبنى القصر القديم المعروف بدار الإمارة وحصنه بسور رفيع وأبراج منيعة"[٢٨] وظل ابن السليم يتولاها إلى أن استقدمه الأمير إلى قرطبة ووليها من بعده قطيس بن أصبغ[٢٩] .

ثم انتشر سلك الخلافة الأموية بقرطبة في عام ٤٢٢هـ (١٠٣٠م) وتبع ذلك قيام عدد من الدويلات المستقلة في جميع أنحاء الأندلس عرفت بدويلات الطوائف، فتغلب الأمراء والرؤساء من البربر والعرب الصقالبة بالبلاد، وتغلب بعضهم على بعض، واستقل بأمر هذه البلاد ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، فقامت بإشبيلية دولة بني عباد أكبر دويلات الطوائف، وهم الذين عملوا على جمع شتات الأندلس ولم شعبهم وتنظيم عصبية أندلسية قوامها العناصر العربية والمولدة والصقلية، عرف أصحابها بالجماعة، كان من أهم أهدافها مناهضة الطائفة البربرية[٣٠] ،ولم يمض عهد طويل حتى كانت مملكة بن عباد قد اتسعت اتساعًا كبيرًا على حساب أمراء البربر والقرب المنتشرين في الجنوب والجنوب الغربي من شبه جزيرة الأندلس، وهم بنو برزال بقرمونة، وبنو

افران برندة، وبنو دمر بمرورو، وبنو خزرون بأركس، وبنو يحيى بلبلة، وبنو الكري بولبة، وبنو جهور بقرطبة، وبنو طينور بمرتله، وبنو طاهر مرسية.

وشهدت إشبيلية في عصر بني عباد ازدهار لم تشهده من قبل، لا في عصر الرومان ولا في عهود القوط، وفاقت سائر أمصار الأندلس حتى عدت أعظم مدن الأندلس بعد أن تخلت لها قرطبة عن الرئاسة، ويعبر ياقوت عن ذلك بقوله: "وبها كان بنو عباد، ولمقامهم بها خربت قرطبة"(٣١) ، و"كان المعتمد بن عباد أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة وأعظمهم ثمادًا، وأرفعهم عمادًا"(٣٢) ، ولذلك كانت إشبيلية في زمنه بؤرة الرحال، وقبلة الآمال، ومركز الشعراء، ومجتمع الأدباء، وبينما كان شعراؤه يعبرون بقصائدهم الرقيقة عن حياة الترف والرخاء التي نعمت بهما إشبيلية في عهده، كان بناؤوه يعبرون بمنشآتهم الفخمة موزونة الأبعاد ومنسقة الجدران عن الازدهار العمراني الذي واكب النهضة الحضارية في مملكته، ولكن لم يتح لإشبيلية أن تنعم طويلًا في ظل بني عباد، إذ سرعان ما أسقط المرابطون عروش الطوائف، وضموا الأندلس إلى دولتهم في المغرب، ولم ينس المرابطون رغم جفوتهم وخشونتهم العسكرية، وفي زحمة مشاغلهم الحربية واستغراقهم في الجهاد أن يمهروا إشبيلية بسور من الملاط اتسع ناطقه، فشمل أرباطها الغربية كربض مقرانة يمنع عنها مطامع الأرغونيين والقشتاليين، خاصة بعد الغزوة الجريئة التي قام بها ألفونسو الأول المحارب ملك أرغون في سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) واكتسح فيها أراضي الأندلس حتى غرناطة(٣٣) إلا أن العصر الذهبي في تاريخ إشبيلية لم يبدأ بحق إلا بدخول الموحدين في الأندلس، فقد اتخذها خلفاء الموحدين حاضرة لهم في الأندلس، فاستردت عظمتها وبلغت في عهودهم ذروة توسعها العمراني، وعمرت بالأسواق والمتاجر والقصور والعمائر(٣٤) ، فأبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

كان حريصًا على تجميل حاضرة دولته في الأندلس، فانطلقت في عهده بإشبيلية حركة التمصير والتعمير وترتب على ذلك ازدياد نشاط الموحدين المعماري، وازدانت إشبيلية على عهده بالمنشآت المتنوعة والمتنزهات والمنيات، وأبو يوسف يعقوب المنصور كان مسرفًا في تزيين حاضرته وتنظيم تخطيطها لا سيما بعد انتصاره على جيوش قشتالة في موقعة الأرك (١٠ يوليو ١١٩٥م). وظلت إشبيلية تحظى برعاية الموحدين خليفة بعد خليفة، إلى أن ضعفت دولة الموحدين في أعقاب هزيمة العقاب وتساقطت قواعد الأندلس التي كانت تؤلف خط الدفاع الأمامي لإشبيلية، ثم دخلتها جيوش قشتالة في ٢٢ ديسمبر ١٢٤٨م بعد حصار دام ما يقرب من ١٧ شهرًا.

كانت إشبيلية منذ منتصف القرن الحادي عشر وحتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي من أعظم مدن العالم، وقد أقر الإخباريون المسلمون والمسيحيون على السواء بتفوقها وبالمكانة السامية التي كانت تتبوأها في هذه الفترة، لقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع إشبيلية وما كانت تنفرد به دون غيرها من حواضر الأندلس، وكانت على حد قول بعضهم عروس بلاد الأندلس وقاعدتها "مدينة الأدب، واللهو الطرب، وهي على ضفة النهر الكبير عظيمة الشأن، طيبة المكان، لها البر المديد والبحر الساكن والوادي العظيم"[٣٥]، وكانت إشبيلية وفقًا لما أورده الإدريسي "مدينة كبيرة عامرة، ذات أسوار حصينة، وأسواق كثيرة وبيع وشراء، وأهلها مياسير، وجل تجاراتهم بالزيت، يتجهز به إلى أقصى المشارق والمغارب برًا وبحرًا..." [٣٦]. ويمتدحها ياقوت الحموي فيقول "مدينة كبيرة عظيمة، وليس بالأندلس اليوم (أي في عصره) أعظم منها، تسمى حمص أيضًا، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره"[٣٧]. واعتبرها ابن سعيد المغربي في عصر الموحدين إحدى القواعد الكبرى الباقية في

أيدي المسلمين[٣٨] ، ويبالغ الشقندي في وصف عظمتها وتسجيل محاسنها فيقول: "أما إشبيلية فمن محاسنها: اعتدال الهواء وحسن المباني، وتزيين الخارج والداخل، وتمكن التمصر، وأما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها واهتمام أصحابها بها، وكون ديارها لا تخلو من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة، كالنارنج والليمون والزنبوع وغير ذلك.." وعن علمائها يضيف قائلًا: "وأما علماؤها في كل صنف رفيع أو وضيع جدًا أو هزلًا فأكثر من أن يعدوا، وأشهر من يذكروا، وأما ما فيها من الشعراء والوشاحين والزجالين فما لو قسموا على بر العدوة ضاق بهم، والكل ينالون خير رؤسائها ورفدهم" ، ويختتم وصفه لمزايا إشبيلية ومحاسنها معبرًا عن عظمتها وسمو مكانتها بقوله: "وما من جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة إلا وقصدي به العبارة عن فضائل جميع الأندلس، فما تخلو بلادها من ذلك، ولكن جعلت إشبيلية، بل الله جعلها أم قراها، ومركز فخرها وعلاها إذ هي أكبر مدنها، وأعظم أمصارها"[٣٩] ، ويذكر ابن بسام أنها "على قدم الدهر كانت قاعدة هذا الجانب الغربي من الجزيرة وقراره الرياسة ومركز الدول المتداولة..." [٤٠] .

وكما امتدحها المسلمون في مصنفاتهم وبالغوا في ذكر فضائلها وتسجيل محاسنها، حظيت بإعجاب المسيحيين، فأسرفوا في إبراز روائعها، وأغرقوا في امتداح معالمها، واعتبروها في مصاف المدن العظمى في العالم، فهذا ريكاردو دي سان جرمان يقرنها بروما والقسطنطينية، ويعدها أكثر مدن العالم عمرانا[٤١] ، وهذا بابلو دي لسبينوزا دي لوس مونتيروس يؤكد أنه لم تكن تضاهيها– لعظمة عمائرها وفخامتها– أي مدينة في العالم باستثناء روما العظمى[٤٢] . وعندما يشير ديبجو أورتيث دي ثونييجا إلى سقوط قرطبة في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة يعتبرها أعظم مدن العالم بعد روما والقسطنطينية وإشبيلية[٤٣] .

وهكذا كانت إشبيلية في نظر المسلمين والمسيحيين على السواء من أجل مدن العالم الوسيط، وقد امتدحها الكثيرون ممن أرخوا لإسبانيا الإسلامية أمثال العذري[٤٤] وابن غالب[٤٥] ، وصاحب منهاج الفكر[٤٦] وابن مفلح[٤٧] والشقندي وغيرهم كما مدحها أيضا خستوشو[٤٨] وورود يجو كارو[٤٩] ولكنها لم تلق من التمجيد والتفخيم مثل ما مدحها به الملك ألفونسو العاشر في تاريخه العام لإسبانيا حيث يصفها دائما بالمدينة النبيلة[٥٠] .

هذه المدينة العظيمة التي أجمع المؤرخون على تفوقها على مدن الأندلس بل العالم، وأسرفوا في ذكر فضائلها وإبراز مفاتنها تجاوزت شهرتها الآفاق لكثرة منازهها ومغانيها، وروعة قصورها وتأنق مبانيها، فما أكثر أسماء القصور التي سجلها المعتمد بن عباد في شعره الذي ضمنه ذكرياته وأحزانه، وما أبدع ما ردده منها ابن زيدون الوزير في بعض قصائده، وقد رأيت أن أقدم في الصفحات التالية دراسة شاملة تاريخية وأثرية لقصور إشبيلية في العصر الإسلامي، راعيت فيها الترتيب الزمني مع الالتزام بنوعيها الإداري والترفيهي.

أولا- قصر الإمارة

أ- قصر الإمارة الأول:

قبل أن يرحل موسى بن نصير إلى المشرق اختار مدينة إشبيلية مقرًا للإمارة، وعهد إلى ابنه عبد العزيز بولاية الأندلس، فاتخذ عبد العزيز مسكنه في قسم من كنيسة ربينة Santa Rufina حيث أقام تجاهها مسجدًا عرف بمسجد ربينة[٥١] كان يشرف على مرج إشبيلية، وفيه قتل عبد العزيز في سنة ٩٧هـ، ويذكر ابن القوطية أن آثار دمائه كانت ما تزال واضحة داخل هذا المسجد حتى عهد قريب من عصر ابن القوطية (القرن الرابع الهجري)، ومن المعتقد أن

كنيسة سانتا رفينة أو ربينة المذكورة التي اتخذها عبد العزيز بن موسى دارًا للإمارة كانت تقع قريبًا من المسجد المعروف بجامع عمر بن عدبس.

ويبدو أن عمال إشبيلية من قبل أمراء قرطبة كانوا يقيمون في قصر الإمارة الذي كان يطلق عليه اسم القصبة، ولدينا ما يشير إلى وجود هذه القصبة قبل غزوة النورمان الأولى لإشبيلية في سنة ٢٢٩هـ، فعندما تمكنت القوة الإسلامية التي وجهها الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى إشبيلية من رد النورمان على أعقابهم، ودخل وزراء الأمير إشبيلية، ألفوا عاملها محصورًا في قصبتها"(٥٢) . والظاهر أن القصبة المذكورة كانت تشغل موضعًا قريبًا من الطرف الجنوبي الشرقي من إشبيلية الرومانية غير بعيد من الموقع الذي كان يقوم فيه جامع ابن عدبس، بدليل أنه عندما اشتعلت نار الفتنة في إشبيلية في عهد الأمير عبد الله في سنة ٢٧٦هـ – (٣٨٨٩) اتخذ أمية بن عبد الغافر عامله على إشبيلية من القصر حصنًا يتحصن فيه من بني خلدون وبني حجاج"(٥٣) ، فاقتطع بداخل إشبيلية حوزة، وأخرج سور القصر ومد من ركنه القبلي سورًا بلغ طوله مائتي ذراع نحو الشرق، كما مد سوره من جهة الشمال مائتي ذراع أخرى نحو الغرب، وأدخل بذلك المسجد الجامع داخل نطاق السور، محولًا قصر الإمارة إلى قصبة، بحيث أصبح بابها المعروف بباب حميدة ينفتح إلى مقبرة الفخارين(٥٤) ، ونستدل من حوادث إشبيلية في هذه السنة أن القصر كان يقع إلى الشمال من مسجد أنطراكة(٥٥) ، وأنه كان قريبًا من جامع ابن عدبس، وأنه كان مزودًا بروضة دفن فيها هشام بن عبد الرحمن الأوسط أحد أولاده(٥٦) . كذلك نستدل من الحوادث التي اقترنت باسترجاع الخليفة عبد الرحمن الناصر لإشبيلية في سنة ٣٠١هـ أن هذا القصر كان يضم مجلسًا يعرف بالأخيضر(٥٧) .

أما جامع ابن عدبس المذكور فقد تحول بعد سقوط إشبيلية في يد فرناندو الثالث في سنة ١٢٤٨م إلى كنيسة سان سلفادور، ثم هدم المسجد برمته في سنة ١٦٧١م وأقيمت مكانه الكنيسة الحالية التي تم بناؤها في سنة ١٧١٢م، أما المئذنة فقد تهدم جزؤها العلوي عقب زلزال سنة ١٣٥٦م، فأقيم مكانه طابق النواقيس، ولم يتبق من المئذنة الإسلامية سوى القسم الأدنى حتى ارتفاع ٩,٥٠ مترا[٥٨] . وتقع آثار هذا الجامع حاليًا في حومة قريبة من منتصف شارع سيربيس أحد الشوارع الرئيسة بإشبيلية الحديثة، وهو شارع مازال يحتفظ في تخطيطه بنفس تخطيط المحجة العظمى القديمة.

أما القصر فلم يتبق منه "أي أثر، فقد ضاعت معالمه بسبب التطور العمراني الحديث الذي قضى على معظم الأبنية الإسلامية في إشبيلية، ولكن من السهل تحديد موقعه بالقرب من كنيسة سان سلفادور الحالية.

ب- قصر الإمارة الثاني المعروف بالقصر القديم:

ذكر ابن عذاري المراكشي أن الحاجب بدر بن أحمد تمكن من دخول إشبيلية بعسكر الأمير عبد الرحمن بن مُحَمَّد دون قتال[٥٩] في ١٩ جمادى الأولى سنة ٣٠١هـ[٦٠] (٩١٣م)، في حين يؤكد ابن حيان أن ذلك تم يوم الإثنين لخمس خلون من جمادى الأولى من نفس السنة[٦١] ، فأقام بها خمسة عشر يومًا كاملًا ثم خرج قافلًا عنها إلى قرطبة يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى أي في يوم ١٩ جمادى الأولى[٦٢] وهو التاريخ الذي يضعه ابن عذاري لدخوله إشبيلية.

وبينما يشير ابن عذاري إلى نكوث مُحَمَّد بن إبراهيم بن حجاج لطاعة الأمير بعد أن استسلم له (أي للأمير) أحمد بن مُحَمَّد بن مسلمة بن حجاج، وتغيره له،

ثم امتناعه بقرطبة، وقيامه بمهاجمة إشبيلية بعد ذلك منتهزًا تهدم بعض سورها، وتصدي عاملها له وإرغامه له على الانسحاب إلى قرمونة[٦٣] ، (بمعنى أن سور إشبيلية كان مهدمًا في بعض أجزائه وأنه طمع فيها لذلك لولا أن عامل إشبيلية تمكن من إيقاع الهزيمة به وأرغمه على الرجوع) يؤكد ابن حيان في المقتبس أن سعيد بن المنذر القرشي الذي ولاه عبد الرحمن الناصر عاملًا على كورة إشبيلية وصل إليها بعد سبعة أيام من دخول الحاجب بدر بن أحمد واستقراره بإشبيلية، وأن هذا العامل دعا الحاجب إلى هدم سور مدينة إشبيلية، فكره بدر ذلك، وشاور فيه وجوه من معه من رجال السلطان وأهل ولايته بإشبيلية، فاختلفوا عليه، وقال فريق منهم هي مدينة ساحلية لا يؤمن عليها من قبل البحر، وبقاء سورها أحرم مع أنه من بنيان عبد الرحمن بن الحكم، فلج سعيد بن المنذر في هدمه، وقطع على صواب إباحة المدينة، وأن ذلك أحوط على السلطان وأحسم لطمع من يبغي الفتنة فساعده الحاجب بدلًا على ذلك، وجمعت الأيدي على هدم أسوارها فسويت بالأرض، ونكس عوامها رقابهم ويئسوا من الفرقة"[٦٤] . ثم يتابع ابن حيان عرضه لموقف مُحَمَّد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة بعد أن تنكب على الناصر، فيذكر أنه تحرك في قواته إلى إشبيلية منتهزًا عورتها أي خلوها من الأسوار، فهجم على مدينة إشبيلية صباح يوم ٣ من رجب سنة ٣٠١هـ "وهي بتهدم أسوارها عورة" فحاربه سعيد بن المنذر القرشي عامل الأمير عبد الرحمن الناصر داخل أرباضها قسمًا من النهار، وأرغمه على العودة خائبًا من حيث أتى[٦٥] .

ولا نستبعد أن يكون سعيد بن المنذر، عامل إشبيلية، قد هدم في جملة ما هدمه من أسوار بإشبيلية قصر الإمارة المجاور لجامع عمر بن عدبس، وهو نفس القصر الذي كان أمية بن عبد الغافر الوالي السابق قد حوله إلى قصبة منيعة

ليحتمي بداخلها من هجمات بني خلدون وبني حجاج، اكتفاء بقصر الإمارة الجديدة الذي اعتزم المشروع في بنائه في موقع استراتيجي هام من إشبيلية أكثر قربًا من الوادي من الجانب الشرقي لإشبيلية، ونستدل على ذلك من قيامه ببناء دار الإمارة الجديد التي يسميها كل من البكري والحميري "القصر القديم"(٦٦) قياسًا إلى قصر الإمارة الأعظم الذي أسسه بعد ذلك المعتضد بن عباد، وأضاف فيه ابنه المعتمد قصوره المشهورة: "المبارك والثريا والزاهي" ، ومن المرجح أن إقدام سعيد بن المنذر على هدم القصبة القديمة إنما حدث بعد شروعه في بنيان القصر القديم، وقد يكون هذا الهدم قد نفذ فيما بعد في عصر لاحق. ومن المعروف أن عبد الرحمن الناصر استقدم سعيد بن المنذر من إشبيلية وولى عليها فطيس بن أصبغ في شعبان من سنة ٣٠١هـ(٦٧)، أي بعد شهرين ونصف من ولايته عليها، فإذا كانت المصادر العربية تنسب القصر القديم وتحصينه بسور صخري مربع وأبراج منيعة لسعيد بن المنذر، فإن هذه النسبة لا يمكن أن تلحق به دون مبررات، ونعتقد لذلك أن سعيد بن المنذر شرع بالفعل في بناء القصر القديم وتزويده بالسور الحجري والأبراج المنيعة خلال هذه المدة القصيرة، وأن عامل إشبيلية الجديد- فطيس بن أصبغ- هو الذي استكمل بنيان القصر المذكور مدة ولايته على إشبيلية التي استمرت فيما يظهر ١٤ سنة (من شعبان سنة ٣٠١هـ إلى شوال سنة ٣١٥ الذي يسجل تاريخ توليه الوزارة) (٦٨) .

ويبدو أن الموقع الذي اختاره سعيد بن المنذر لإنشاء القصر القديم أو دار الإمارة المستحدثة كان في الأصل حصنًا لعلة أقيم في عهد عبد الرحمن الأوسط في جملة الإنشاءات التي أمر عبد الله سنان بتنفيذها بعد غزوه النورمان في سنة ٢٢٩هـ، فقد كانت العادة أن تحمي مدن الأندلس قصاب تقع في

مواقع استراتيجية منها بهدف تمكن الدفاع عنها حتى بعد سقوط هذه المدن في أيدي الغزاة، والموقع الذي تخيره سعيد بن المنذر مشروعه من المواقع الهامة التي يمكن أن تتحكم في الدفاع عن المدينة في أوقات الخطر أو الحصار، وإليه امتد العمران الإشبيلي في عصر الطوائف والعصور التالية، ويؤيد اعتقادي في أن الموقع الذي اختير لإقامة مشروع ابن المنذر كان في الأصل حصنًا أو قلعة وأن المهندس الأثري دون فيلث اربناندث تمكن من تمييز قطاع صغير من سور من الحجر يشبه في بنائه إلى حد كبير نظام البناء في قصبة ماردة، وذلك داخل مجموعة القصر الحالي شرقي القصر الذي تم إنشاؤه زمن الملك الشقتالي دون بلدو الأول(٦٩) ، وقد سماه المهندس المذكور آنذاك السور الشامي (El Muro siriaco) اعتقادًا منه بأنه البقية الباقية من السور الذي أنشأه عبد الله بن سنان الشامي زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، أو لأنه له علاقة بقصر الإمارة الأول الذي تحول فيما بعد إلى قصبة ، والواقع كما سبق أن أوضحنا– أن القصبة المذكورة كانت تقع قريبًا من مسجد عمر بن عدبس، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يرجع هذا القطاع من السور إلى القصبة المذكورة، كما أن سور إشبيلية الإسلامي الأول لم يكن يطوق إلا المركز العمراني القديم ولم يكن يصل بأي حال من الأحوال إلى منطقة القصر الحالي، ولهذا السبب نستبعد أن يكون هذا القطاع المذكور جزءًا من سور عبد الله بن سنان، ونعتقد بالتالي في أحد أمرين الأول إما أن يكون بقية من قلعة كانت قد أقيمت في عصر عبد الرحمن الأوسط في هذا الموضع خارج إشبيلية للدفاع الخارجي عنها، أو أن يكون له علاقة بأحد قصور بني عباد، ومن المعروف أن بني عباد أعادوا استخدام أحجار السور المتخرب الذي يرجع إلى عهد عبد الرحمن الأوسط في بنيان قصورهم.

ويذهب صديقي الباحث الأثري الأستاذ جبريرولوبيو- ونحن نؤيده في ذلك- أن جزءًا من القصر القديم الذي شرع سعيد بن المنذر في بنائه، وتم بناؤه في عهد خلفه، ما يزال قائمًا حتى اليوم، ويتمثل هذا الجزء في التحصينات المحيطة ببهو البنود الحالي المطلة على ميدان النصر(٧٠) . ومما يؤكد هذا الرأي الباب الذي تم اكتشافه أخيرًا(٧١) ، وكان ينفتح في الجدار الغربي من بهو البنود السابق ذكره، ثم أغلقت فتحته في عصر لاحق، وفتحة الباب المذكور تتخذ شكل عقد حدوة الفرس تجاوز كثيرًا نصف الدائرة، تسنيجه مركزي على نسق العقود التي نشهدها في الأبواب الخارجية لجامع قرطبة، ويرجع تاريخ بعضها إلى عصر الإمارة، وتطوق العقد المذكور طرق مربعة الشكل (أو تربيعية على حد التسمية الإسبانية Tarbea) تبرز مع وجه البناء عن العقد وطبلته، وبينما يعلو هذا العقد عقد مخفف للضغط نصف دائري تتعاقب فيه سنجات ضخمة وأخرى رفيعة، يقطع طيلة العقد المتجاور عتب أفقي مسنج، ومنبتا العقد يرتكزان على جداريته قائمتين على عضادتين من نفس بناء السور، ومن الجدير بالملاحظة أن مداميك البناء في السور الذي ينفتح فيه الباب المعقود تنتظم على أساس آدية وشنادي وهو نظام بنائي أقدم عهدًا من النظام الشائع في عصر الطوائف، ويتفق مع طريقة البناء التي نطالعها في جامع قرطبة، وطبلة عقد الباب أكثر انخفاضًا في مستواها من وجه العقد، والعقد بوجه عام يتشابه كثيرًا مع عقد باب سان ميجل المعروف بباب الأمير (ويرجع تاريخه إلى عصر الأمير مُحَّد وكان يشرع إلى المقصورة القديمة)، وعقد باب سان استيبان المعروف بباب الوزراء، وينحصر الخلاف في أن العتب في بابي قرطبة المذكورين يمتد تحت طبلة العقد في حين يتوسط في إشبيلية الطبلة، واعتقد أن هذا الباب الإشبيلي بفتحته المغلقة، والأسوار المتصلة به، هو البقية الباقية من قصر الإمارة القديم الذي أقيم في بداية عهد الأمير عبد الرحمن بن مُحَّد الملقب فيما بعد بعبد

الرحمن الناصر لدين الله، وواضح من فتحة العقد، وطريقة تسنيجه المركزي، وشكل طرته المحيطة بقوسه، وطريقة توزيع مداميك البناء، أن الأسلوب المتبع في البنية أقدم عهدًا من أسلوب البناء في مدينة الزهراء، بل وفي عقود صومعة جامع قرطبة، وفي نفس الوقت أكثر تطورًا من عقود عصر الإمارة، واعتقد أنها مرحلة انتقالية بين عصر الإمارة وعصر الخلافة، الأمر الذي يتفق تاريخيًا مع الفترة التي أقيم فيها القصر القديم بإشبيلية في عصر عبد الرحمن الناصر.

ويمتد السور يمين هذا الباب ويساره، وتكتنفه أبراج مربعة الشكل، تتميز أجزاؤها السفلى بنفس أسلوب البناء في جدران الباب المذكور (انظر الأشكال المرفقة) كما تتسم بقدمها وضخامة أحجام أحجارها وصلابتها، فتصل كتلة الحجر أحيانًا إلى ٧٥سم طولًا و٥٠ سم ارتفاعًا، وتتناوب هذه الكتل الضخمة في كثير من الأحيان مع كتل تتوزع عرضيًا متبعة النظام المعروف بآدية وشناوي، ومظهر الضخامة والصلابة اللذين تتميز بهما هذه الأبراج وما يتصل بها من بدنات السور تتفق تمامًا مع الوصف الذي سجله كل من البكري والحميري لبناء هذا (السور إذ ورد في وصفهما ما يلي: "وحصنه (أي حصن القصر) بسور صخر رفيع وأبراج منيعة".

ج- القصر المستحدث في عهد المعتضد بالله أبي عمر وعباد بن إسماعيل (٤٤٣- ٤٦١هـ):

يغلب على الظن أن قصر الإمارة القديم (ونعني به قصر سعيد بن المنذر) ظل في عصر الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة بقرطبة مقرًا للقاسم بن حمود وولده مُحَمَّد[٧٢] ، فلما تمكن أهل إشبيلية من إغلاق أبواب مدينتهم في وجه حمود[٧٣] ، وحاصروا ابنه مُحَمَّد بن القاسم في القصر، إلى أن رضي منهم بتسليم ابنه مع من كان معه من الحراس، ورحل بهم إلى شريش[٧٤] ، اتفقوا على تقديم

قاضيهم أبي القاسم مُحَّد بن إسماعيل بن عباد اللخمي(٧٥) يرجعون إليه أمرهم، وتجتمع به كلمتهم، لكياسته وحكمته وبعد مرقى همته، وسعة صدره وحسن تدبيره، ولكنه تهيب الاستبداد، وخاف عاقبة الانفراد فأشرك معه في الأمر أعوانًا وشركاء كان لا يقطع أمرًا دونهم، ولا يحدث حدثًا إلا بمشورتهم، هم: الوزير أبو بكر مُحَّد بن الحسن الزبيد، ومُحَّد بن الألهاني، وأبو لاصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي، وأبو مُحَّد عبد الله بن علي الهوزني(٧٦) ، وقيل أن شركاءه ثلاثة هم: الزبيدي وابن عباد وعبد الله بن مريم، وأنهم كانوا يحكمون في القصر طوال اليوم، وينفذون الكتب تحت ثلاثة خواتم وينصرفون في نهاية اليوم(٧٧) ، وواضح أن القاضي أبا القاسم مُحَّد إنما أشركهم معه في أمور إشبيلية ليروض بهم الأمور ويستميل العامة إلى أن يضرب ضربته وينفرد بالإمارة، ممتثل في ذلك رسم ابن يعيش صاحب طليطلة(٧٨) ، وقد أثبت أبو القاسم مُحَّد بن عباد براعة في إدارة شئون إشبيلية، ولم يلبث أن استقل بالأمر دون شركائه وأسقط جماعتهم في سنة ٤١٤هـ (١٢٠٣م) ثم رأى أن يستند في إمارته على سند يدعمه في نظر العامة، ويمكن به نفوذه بين ملوك الطوائف، فاستقدم رجلًا يشبه الخليفة هشام المؤيد، زعم أنه اتخذ إشبيلية بدلًا من قرطبة مقرًا لخلافته، واحتفل بقدومه، وأنزله بقصر إشبيلية في سنة ٤٢٦هـ – (١٣٠٤م)، ومع ذلك فلم تسلم إشبيلية من اعتداء قام به كل من زهير العامري وحبوس بن ماكسن الصنهاجي اللذين هاجما إشبيلية في ذي القعدة سنة ٤٢٧هـ وأحرقا طريانة(٧٩) .

وهكذا ظل قصر الإمارة الذي بناه سعيد بن المنذر مقرًا للقاضي ابن عباد الذي استقدم شبيه هشام المؤيد سواء من قلعة رباح في(٨٠) رواية أو من قرية من قرى إشبيلية حيث كان يؤذن في مسجدها ويعمره ويتعوف من العمل في الحلفاء، في رواية أخرى(٨١) ، وانزله ابن عباد معه في القصر(٨٢) ، إذ ليس لدينا

من النصوص ما يؤكد قيام هذا القاضي ببناء قصر جديد للإمارة قبل انفراده بالإمارة ولكن من المعتقد أن ابنه أبا عمر وعباد المعتضد بالله (٤٣٣-٤٦١هـ) هو الذي انشأ قصرًا جديدًا للإمارة لعله دار الإمارة العبادية(٨٣) ليتخذ مقر له(٨٤) ، في حين ترك القصر القديم لشبيه هشام الذي توفي ونستدل على إنشاء هذا القصر العبادي المستحدث من وصف البكري (ت ٤٨٧) للقصر الأموي بالقديم، ومعنى ذلك وجود قصرين أحدهما عرف بالقصر القديم وهو القصر الذي ابتناه ابن المنذر والثاني القصر المستحدث الذي يظن أنه من بناء المعتضد، ولم يفصح عنه البكري وإن كان قوله يحمل ضمنًا أنه كان قائمًا في زمنه، وأعتقد أن هذا القصر العبادي المستحدث هو نفس "دار الإمارة" التي أشار إليها ابن عبد الواحد المراكشي في معرض حديثه عن حيل المعتضد بالله في التجسس على أعدائه(٨٥) ، ولعله نفس القصر الذي سجن فيه ولده إسماعيل في سنة ٤٤٩هـ ثم قتله بيده(٨٦) ، وربما يكون هذا القصر العبادي هو نفس "القصر المكرم" الذي اجتمع ذو الوزارتين أبو بكر بن القصيرة في إحدى قاعاته مع المعتمد بن عباد، في اليوم الذي خرج فيه ابن عمار معه إلى شلب لتفقد أعمالها(٨٧) .

وفي هذه الحالة تصبح لفظة "المكرم" صفة لقصر الإمارة العبادي كالشأن في تعظيمنا لجامع قرطبة، إذ يطلق عليه الجامع المكرم أو الجامع الأعظم(٨٨) .

بدليل أن ابن صاحب الصلاة يصف قصور الموحدين بأنها القصور المكرمة(٨٩) ، ولا نعتقد اطلاقًا أن المكرم قصر آخر غير قصر الإمارة، لأنه لم يرد له ذكر في جملة قصور بني عباد الواردة في شعر المعتمد نفسه وهو في منفاه قد برح به الشرق وأمضاه الألم:

بكـــى المبـــارك في أثـــر ابـــن عبـــاد　　　بكـــى علـــى أثـــر غـــزلان وآســـاد

بكـــت ثـــرياه لا غمـــت كواكبهـــا ... بمثـل نـوء الثـريا الـرائح الغـادي
بكـى الوحيـد، بكـى الزاهـي بقبتـه ... والنهـر والتـاج كـل ذلـه باد [٩٠]

وكذلك لا نجد له ذكرًا في شعر ابن زيدون الذي ضمنه أسماء القصور العبادية ومنها قصر المبارك الذي عرف بالقصر ردده عدة مرات في قوله:

وعدنا إلى القصر الذي هو كعبة ... يغاديه منا ناظر أو مطرف [٩١]

وفي قوله:

ورحت إلى القصر الذي غض طرفه ... بعيد التسامي أن غدا غيره القصر[٩٢]

وفي قوله يصف القصر المبارك الذي يتوسطه قصر الثريا، فيشبهه بوجنة يتوسطها خال، ويقول:

أمـــا الثـــريا فـــالثريا نســـبة ... وإفـــادة وأنافـــة وجمـــالًا
قـــد شـــاقها الأغبـــاب حـــتى أنهـــا ... لـو تسـتطيع سـرت إليـك خيـالًا
رفـــة ورودكهـــا لتغـــنم راحـــة ... واطـــل مزاركهـــا لتـــنعم بالًا
وتمثـــل القصـــر المبـــارك وجنـــة ... قـــد وســـطت فيهـــا الثـــريا جـــالا
وأدر هنـــاك مـــن المـــدام أتمهـــا ... أرجـــا ذكـــا وأشـــفها جـــريالًا
قصـــر يقـــر العـــين منـــه مصـــنع ... بهـج الجوانـب لـو مشـى لاختـالا
لازلـــت تفـــترش الســـرور حـــدائقًا ... فيـه وتلتحـف النعـيم ظـلالًا[٩٣]

كذلك لم يرد ذكر القصر المكرم في أشعار المعتمد بن عباد التي نظمها في منفاه وسجل فيها حنينه المتواصل إلى قصره الزاهر بمنطقة الشرف منبتة الزيتون، وقصوره الأخرى بإشبيلية الأثيرة لديه، والتي يفصلها الوادي الكبير عن

القصر الزاهر، يبثها لوعته وأساه، ويودعها أسمى عواطفه وأرق مشاعره من شوق وحنين وألم دفين، يقول المعتمد:

فياليت شعري هل أبيتن ليلة أمامي وخلفي روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا يغني حمام أو تدن طيور
بزاهرها السامي الذري جادة الحيا تشير الثريا نحونا ونشير

وكانت تتقدم هذا القصر أو دار الإمارة العبادية ساحة أو رحبة كانت تعرف في عصر الموحدين لعلها تطل على الوادي خارج باب شريش أو بالقرب من باب الفرج، وهو المنفذ الذي تسلل منه المرابطون عند هجومهم على إشبيلية من جهة الوادي، ومن هناك انتشر المهاجمون داخل المدينة ودخلو رحبة القصر القريبة من النهر(٩٤).

ثانيا: قصور المعتمد بن عباد الملاصقة لقصر الإمارة العبادي:

وردت في المصادر العربية أسماء قصور أنشأها المعتمد بن عباد وتغنى بها الشعراء أهمها مجموعة القصر el alcazar وتضم قصر المبارك وقصر الثريا والقصر الزاهي والقصر الوحيد ونضيف إليها قصر الزاهر وبعض قصور ريفية أخرى.

قصر المبارك: أما قصر المبارك الذي ذاعت شهرته بين قصور بني عباد جميعا لعظمته وبهائه وجمال زخرفته فقد أقامه المعتمد لصق قصر الإمارة العبادي، والظاهر أنه أراد بهذا القصر محاكاة خلفاء بني أمية العظام بقرطبة، الذين أسسوا بقصر الخلافة القرطبي قصوراً ومجالس، نذكر منها الكامل والزامل والمبارك فقد قلدها في إشبيلية وأما السور ففي سرقسطة وأما البديع ففي

بطليوس. ولعل المعتمد بن عباد أراد أن يتظاهر بما كان يتظاهر به خلفاء بني أمية من سلطان وعظمه عن طريق البناء، ولهذا قلد بني أمية حتى في أسماء قصورهم، ونافسهم في قدرتهم على البنيان، ويذكر الفتح بن خاقان، "أن قرطبة كانت منتهى أمله وكان روم أمرها أشهى عمله، وما زال يخطبها بمداخلة أهلها ومواصلة واليها إذ لم يكن في منازله قائد، ولم يكن لها إلا حصل ومكائد لاستمساكهم بدعوة خلفائها، وأنفتهم من طموس رسم الخلافة وعفائها"[٩٥].
فلما استولى عليها قال:

مـن للملـوك بشـأن الأصـيد البطـل	هيهـات جـاءتكم مهديـة الـدول
خطبـت قرطبـة الحسـناء إذ منعـت	من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكـم غـدت عـاطلا حتى عرضـت لها	فأصبحت في سري الحلي والحلل
عـرس الملـوك لنـا في قصـرها عـرس	كـل الملـوك بـه في مـأتم الوجـل

ويكفي دليلًا على منافسه إشبيلية لقرطبة قول الحصري المكفوف أبي الحسن علي بن عبد الغني الشاعر يمتدح المعتمد:

أبـــني عبـــاد مـــا حســـنت	الأبكــــم الــــدنيا فقــــد
دانــــت بغــــداد لقرطبــــة	وخلائفهــــــا للمعتمــــــد
سمعــــوا برشــــاد فــــتى لخــــم	فنفــو أنهــا دون عــن الرشــد
يا فــــرع المنــــذر والنعمــــا	ن بلغـــت الـــنجم فطـــل وزد
طفئــــت أنــــوار أميــــة في	قصــر الخلفــاء فقلــت قــد
نافســــت بقصــــرهم أرهــــا	فكــــأن أميــــة لم تشــــد[٩٦]

وكان القصر المبارك من القصور التي ابتناها المعتمد للراحة واللهو وتبادل الأنس مع أصحابه، وقد أمر بصناعة غزالين من ذهب، "فصنعا معًا من

سبعمائة مثقال خالصة، فأهدى أحدهما إلى الرشيد ابنه، والآخر إلى السيد العروس بنت ابن مجاهد "ثم قال في ذلك بيتًا من الشعر هو:

بعثنـــا بالغـــزال إلى الغـــزال ... وبالشـــمس المنـــيرة للهـــلاك

فلما أصبح المعتمد "على حال راحة في القصر المبارك، ودخل إليه الرشيد ابنه فتبادل الأنس معه، ثم أمر بإحضار من جرت عادته بمشاهدة المجلس الكريم من الأصحاب فحضروا" فطلب منهم أن يذيلوا على بيته[٩٧] .

وقد وصف الأديب أبو مُحَمَّد عبد الجليل بن وهبون المرسي القصر المبارك فقال:

فيـــا أيهـــا القصـــر المبـــارك لم تـــزل ... وأنـــت جديـــد الحلتـــين قشـــيب
ويا أيهـــا الملـــك المؤيـــد دم بـــه ... ليـــترع كـــوب أو يثـــار عكـــوب
اسم فيه سرح اللحظ من طرف باسل ... فـــراد الـــوغى في ناظريـــه غشـــيب
ســـــتظأره أم النجـــــوم تحلــــــة ... لهـــا كوكـــب لا حـــان منـــه غـــروب
محـــيط بمـــا أحببـــت مـــن كـــل صـــورة ... تروقـــك حـــتى شـــكلهن قريـــب
ومـــن حبـــك دون الســـموك كأنهـــا ... أفاريـــد روض الحـــزن وهـــو هضـــيب
إلى طـــرر تحكـــي أصـــائل ملكـــه ... تكـــاد بأنـــداء النضـــار تصـــوب
ومـــن مرمـــر أحـــذاه رونقـــة المهـــا ... فأخطـــأ فيـــه اللخـــط وهـــو مصـــيب
وبحـــر عليـــه للـــرياحين فيئـــة ... كيمنـــاك مخضـــر الـــبرود لحـــوب
لـــئن كـــان مكظومـــا كغيظـــك إنـــه ... كعرضـــك مصـــقول الأديم خشـــيب
أرى حـــور الأحـــداق أو رونـــق الطلـــى ... طـــلاه ففيـــه للعقـــول خلـــوب[٩٨]

وواضح من هذا الوصف أن جدران القصر المبارك وأسقفه كانت تزدان بزخارف رائعة تحير اللحظ، وتروق العين بطرزها، وكانت لهذا القصر رحبة وبهو تتوسطه بحيرة تحف بها الرياحين، تنعكس ظلالها على صفحة البحيرة.

ويصف ابن حمديس الصقلي هذا فقال:

ويا حبــذا دار يــد الله مســحت	عليهـا بتجديـد البقـاء فمـا تبلـى
مقدســة لــو أن موســى كلمتــه	مشى قدما في أرضها خلع النعلا
إذا فتحـت أبوابهـا خلـت آنهـا	تقــول بترحيــب لــداخلها أهــلا
وقد نقلت صناعها من صفاتها	إليهــا أفانينــا فأحســنت الــنقلا
فمن صدره رحا ومن نوره سنا	ومن صيته فرا ومن حلمه أصلا
نسيت به إيوان كسرى لأنه	أراني مــثلا مــا رأيــت لــه مــثلا
كـأن سـليمان بـن داود لم تـبح	أوامــره للجــن في شــيده مهــلا
كـأن عيـون السـحر نافـذة لـه	عليهن فضلا من بذائعه فصلا
فكان مكان القول يبعث وصفه	رقيقـا وأذن الـدهر تسـمعه جـزلى
ترى الشمس فيه ليقة تستمدها	أكفء أقامت من تصاويرها شكلا
تحـوز لـه الأمـواه بركـة جـدول	تخـال الصـبا منـه مشـطبة نصـلا
إذا اتخذتها الشمس مرآة وجهها	أجالت عليها من مداوسها صقلا
وقـد تـوج البهــو البهـي بقبـة	فقـل عـروس في جلابيبهـا تجلـى
تجمعـت الأضـداد فيهـا مصـانعا	ولم أر خلقـا قبلهـا جمـع الشـملا
وأغرب ما أبصرت بعد مليكها	بها مترع يعدي الشجاعة والبذلا

ولما تمشينا من توقد نورها　　　تخذنا سناه في نواظرنا كحلا(٩٩)

ويصف الشاعر في هذه الأبيات القاعة الرئيسة للقصر المبارك وزخارفها المذهبة والجدول الذي يخترقها ليصب في بركة صقلية المياه كالمرآة تتوسط البهو المستوفي الذي تعلوه قبة جمعت من الزخارف البهية كل غريبة، وتألقت بأضواء تتسلل من منافذ القبة فتغمر البهو بسنا نورها، وكان باطن القبة مكسوًا بزخارف نجمية تمثل نجومًا وكواب(١٠٠) .

وقد أطنب الشعراء في وصف مجالس القصر المبارك، ففي شعر ابن اللبانة الذي سبق أن أوردناه ما يشير إلى أن قصر الثريا كان يتوسط القصر المبارك توسط الخال في الوجه، وأعتقد أن الثريا هي البهو المقبب الذي تتوسطه البركة المشار إليها.

وكان من بين ملحقات القصر المبارك غرف ذكر المراكش أن المعتمد سجن فيها شاعره ابن عمار ثم قتله فيها في سنة ٤٧٩هـ(١٠١). ويؤكد ابن الآبار ذلك فيذكر أن المعتمد سجن ابن عمار في بيت خامل من بيوت القصر(١٠٢) أيامًا ثم قتله بيده، واستدعى صاحب المدينة ذا الوزارتين أبا مُحَمَّد عبد الله بن سلام من داره، وكان ابن سلام هذا مشغولًا بإعداد مجلس من أفخم مجالس دوره لينزل فيه ابن عمار بعد أن أشيع أن المعتمد قد صفح عنه، ووعد بإطلاق سراحه، فمضى ابن سلام إلى القصر وهو لا يشك في أنه سيصحب معه ابن عمار، فما كاد يصل إلى فصيل حتى فوجيء برؤية ابن عمار وهو "متشحط في دمائه، ممرغ في ثيابه" طريح في قيده، فسحبوه على وجهه إلى أساس جدار قريب من سواقي قصر المبارك، فطرح في حوض كان قد حفر للجيار ثم ردموا عليه(١٠٣) ، وذكر ابن بسام أن جثته أخرجت من الموضع

الذي قتل فيه ودرى في قيوده خارج باب القصر المبارك، وهو الباب المعروف في إشبيلية بباب النخيل[١٠٤] ، كما ذكر أن حفرًا وقع بموضع رمسه من هذا المكان بعد أكثر من عشرين سنة (في بداية عصر المرابطين) مضت من مقتله، وذلك لبنيان عرض فيه، فأخرجت جمجمته وغطا ساقيه مكبلة بالأغلال[١٠٥] .

أما القصر الوحيد "الذي قرأناه في شعر ابن اللبانة، فلعله كان مجلسًا من مجالس القصر المبارك، أو أنه كان جناحًا من أجنحة القصر منفردًا في جانب منه من جهة الوادي، أما الروضة فكانت تشغل ركنًا من بساتين القصر المبارك أو قصر الإمارة، وفيها دفن المعتمد أباه المعتضد في نفس التربة التي دفن فيها القاضي أبو القاسم مُحَّد بن إسماعيل[١٠٦]، وعلى نسق هذه الروضة اتخذ الموحدون لأنفسهم روضة خارج باب جهور خصصت للسادة الأمراء عرفت بروضة الأمراء[١٠٧] أو مقابر السادة[١٠٨] .

القصر الزاهي:

ورد ذكر هذا القصر في أبيات نظمها المعتمد بعد أن نفاه المرابطون في العدوة حيث أقام بعض الوقت "تنبذه منابره وأعواده، ولا يدنو منه زواره ولا عواده، بقي آسفًا تتصعد زفراته وتطرد أطراد المذانب عبراته، تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقته" فقال:

بكى المبارك في أثر ابن عباد	بكى على أثر غزلان وآساد
بكت ثرياه لا عمت كواكبها	بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
بكى الوحد بكى الزاهي بقبته	والنهر والتاج كل ذله باد[١٠٩]

كذلك ورد في القصيدة التي يندب فيها المعتمد وهو في منفاه اللحظات السعيدة التي كان يقضيها في القصر الزاهر الذي كان قد شيده بتاج الشرف، وكان من أجل المواضع لديه وأبهاها وأحبها إليه وأشهاها لإطلاله على النهر، وإشرافه على القصر، وجهًا له في العيون واشتماله بالزهر والزيتون، وكان الزاهر يعلو بين أشجار الزيتون في تاج الشرف، ويطل عليه من الجانب الآخر لإشبيلية القصر الزاهي وقبته المعروفة بسعد السعود، فيقول المعتمد:

فياليت شعري هل أبيتن ليلة   أمامي وخلفي روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا   تغني حمام أو تدن طيور
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا   تشير الثريا نحونا ونشير
وبلحظنا الزاهي وسعد سعوده   غيورين والصب المحب غيور(١١٠)

وواضح من هذه الأبيات أن القصر الزاهي كان يرتفع بقبته المسماه "سعد السعود" فوق سماء مجموعة قصور بني عباد المطلة على الوادي الكبير، وذكر المقري نقلًا عن الوزير أبي بكر بن اللبانة الداني، في كتابه "سقيط الدرر"، "ولقيط الزهر" أن المعتمد بن عباد صنع قسيم في القبة المذكورة وهو:

"سعد السعود يتيه فوق الزاهي"

ثم استجاز الحاضرين، فعجزوا، فصنع ولده عبد الله الرشيد الشطر الثاني:

"وكلاهما في حسنه متناهي"

ثم أكمل قائلًا:

ومن اغتدى سكنا لمثل محمد   قد جل في العليا عن الأشباه

لازال يبلــغ فيهمــا مــا شــاءه ودهت عداه من الخطوب دواهي[١١١]

ويعتقد الأستاذ بيرجس أن المعتمد كان يسكن هو وحريمه وجميع جهازه الإداري في القصر المبارك داخل نطاق السور وأن الزاهي كان يشغل إحدى نقاط السور من الداخل[١١٢] ، ولكن في موضع آخر يفترض أنه ربما كان يقوم في نفس الموضع الذي يشغله الآن برج الذهب[١١٣] ، وقد أيده الأستاذ جيريرولوبيو فيما ذهب إليه[١١٤] ، ولا أستبعد من جانبي هذا الافتراض لا سيما ونحن نعلم أن الزاهي كان يطل على الوادي الكبير، وأنه لم يكن بعيدًا من جهة أخرى عن القصر المبارك، وأنه كان يطل بقبته سعد السعود على القصر الزاهر الواقع تجاهه على الضفة الأخرى من الوادي. وعلى هذا الأساس فإن موقعة على النهر مباشرة يبعده إلى حد ما عن سور المدينة ومن المعروف أن المعتمد يوم اقتحم المرابطون باب الفرج، خرج لهم من القصر المبارك حاسرًا من مفاضته فلحق أوائلهم عند الباب وقد انتشروا في جنباته، وردهم عن الباب على أعقابهم، ثم رمم ما تثلم من الباب، ونستنتج من بروزة إليهم بهذه السرعة وقد انتشروا في رحبة القصر وليس عليه إلا رقيقة ترف على جسده، "وقد ضاق بهم فضاؤها، وتضعضعت من رحبتهم أغضاؤها"[١١٥] ، واندفاعه عليهم بهذا العنف إلى حد أنه تمكن من ردهم إلى الوادي، نستنتج من ذلك أن القصر الذي كان يقيم فيه المعتمد آنذاك كان قريبًا من الباب المذكور (باب الفرج)، وأن الموضع الذي خرج منه المعتمد يقع بين باب الفرج الذي اقتحمه المرابطون وتسللوا منه إلى رحبة القصر، وبين باب الصباغين الذي وجد ابنه مالكًا مقتولًا بجواره[١١٦] ، وهو نفس الموقع الذي سمي فيما بعد بباب الكحل، وعلى هذا النحو يمكننا أن نقول بشيء من الاطمئنان أن المعتمد يوم اقتحام المرابطون كان في قصره المبارك القريب من مسرح الأحداث، وأنه لم يكن لا في القصر الزاهي المطل

على الوادي الكبير ولا في قصر الزاهر القائم بالشرف، وكلاهما يبعد كثيرًا عن بابي إشبيلية المذكورين آنفًا.

ويصف عبد الجليل بن وهبون المرسي القصر الزاهي المطل على الوادي الكبير كما يصف بهوه المقبب بقبوة خشبية مزينة بالزخارف البديعة قوامها العناصر النباتية والتوريق فيقول:

وللزاهي الكمال سنا وحسنا — كما وسع الجلالة والكمالا
يحاط بشكله عرضا وطولا — ولكن لا يحاط به جمالا
تواصلت المحاسن فيه شتى — فوفد اللحظ ينتقل انتقالا
وقور مثل ركن الطود ثبت — ومختال من الحسن اختيالا
تدافع من جوانبه ائتلافا — فكاد المستبين يقول مالا
فلو أدنو حرام السحر منه — لأضحى بعيد السحر الحلالا
سماء ترتمي بعباب بحر — كأن بها آكاما أو تلالا
فقد كاد البيت يهاك منه — ويحسب أن تجر الجو سالا
فما أبقى شهابا لم يصوب — ولا شمسا تنير ولا هلالا
وللبهو البهي سماء نور — تمثل شكلها حلقا دخالا
مزخرفة كأن الوشي ألقى — عليها من طرائفه خيالا
وما خلت الهواء يكون روضا — ولا سقفا يكون كذلك آلا
بلى حققت أن النار كانت — له ظئرا وعنصره زلالا
فلم أعدل بجامده مذابا — ولم أنكر لندوته اشتعالا
وكل مصدر حي جماد — تبين فيه زهوا أو دلالا
له عمل وليس له حراك — وإفهام دما أدى مقالا[١١٧]

ويصف ابن وهبون تمثال فيل من خالص اللجين كان ينتصب في جانب من البركة، ويمج الماء من فمه، فيقول:

وفـــرغ فيـــه مثـــل النصـــل بـــدع | مـــن الأفيـــال لا يشـــكو مـــلالا
رعـى رطـب اللجـين فجـاء صـلدا | وقاحـا قلمـا يخشـى هـزالا(١١٨)

وكان المعتمد يعقد جلساته في كثير من الأحيان على حافة البركة في الأمسيات، ويأمر بإيقاد الشموع، ويمتع ناظريه برؤية المياه تنساب من النيل إلى البركة، وضوء الشموع الباهت يمتد شاحبًا شحيحًا، وأنين سواقي القصر والدولاب تختلط بعزف الأوتار وألحان المطربين.

وقد جلس المعتمد يومًا على البحيرة والماء يسيل من فم ذلك الفيل، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه، وكان معه الوزير الفقيه الشاعر أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق اللخمي المعروف بابن الملح، فقال في ذلك عدة مقطوعات منها:

ومشـعلتين مـن الأضـواء قـد قـرنا | بالمـاء والمـاء بالـدولاب منـزوف
لاحـــا لعيـــني كـــالنجمين بينهمـــا | خـــط المجـــرة ممـــدود ومعطـــوف

وقال فيه أيضًا:

كـأن سـراجي شـربهم في التظاهمـا | وأنبـوب مـاء الحـوض في سـيلانه
كـــريم تـــولى كـــبرة مـــن كليهمـــا | لئيمـــان في إنفاقـــه يعذلانـــه(١١٩)

ثانيا: قصور بني عباد الأخرى

١- القصر الزاهر:

نستدل من الأبيات التي ذكرناها من قبل من نظم المعتمد على أن هذا القصر الزاهر كان يقوم في موضع من تاج الشرف يقع قريبًا من الضفة اليمنى

من الوادي الكبير، وكان يعرف بحصن الزاهر أو الحصن الزاهر، كما عرفت المنطقة التي يشرف عليها بمنبتة الزيتون، وكان هذا القصر أحب قصوره إليه وآثرها إلى نفسه، فكان يقصدها كلما أراد لنفسه المرح واللهو والتسرية بين أصحابه وندمائه، وكان "له به من الطرب والعيش المزرعي بحلاوة الضرب، ما لم يكن بحلب لبني حمدان، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان، وكان كثيرًا ما يدير به راحه، ويجعل فيه انشراحه"(١٢٠).

ويذكر المقري نقلًا عن الحجازي في المسهب، أن يوسف بن تاشفين أهدى إلى المعتمد جارية مغنية نشأت بالعدوة وأهل العدوة كانوا يكرهون أهل الأندلس، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الأرجاف بنوايا يوسف بن تاشفين في إسقاط عروش الطوائف فاشتغل خاطر المعتمد بن عباد بالتفكير في ذلك، فخرج بها يومًا إلى قصر الزاهر وقعد على الراح، فغنت الأبيات الآتية بعد أن انتشى لتؤلمه وتستثيره:

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ... ولـؤوا عمـائمهم علـى الأقمـار
وتقلـدوا يـوم الـوغى هنديـة ... أمضى إذا انتضيت من الأقدار
إن خوفـوك لقيـت كـل كريهـة ... أو أمنـوك حللـت دار قـرار

فوقع في قلبه أنها عرفت بساداتها، فلم يملك غضبه ورمى بها في النهر فهلكت(١٢١).

ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ شروع المعتمد بن عباد في بناء قصر الزاهر فلم تزودنا المصادر العربية بنصوص تاريخية حول تاريخ الإنشاء، وكل ما وصل إلينا لا يعدو أبيات شعر قيلت في هذا القصر وإشارات عابرة إلى اسمه في جملة ما ابتناه المعتمد من قصور، ولكننا نستنج من دراساتنا عن طبوغرافية

إشبيلية في العصر الإسلامي بعض حقائق قد تسلط الضوء على كثير من مواطن الغموض في مشكلة تاريخ هذا القصر، وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى أن موقع هذا القصر يتفق إلى حد كبير مع آثار حصن يرجع تاريخه إلى عصر الموحدين، تقوم أطلاله حاليًا في قرية تعرف باسم سان خوان دي "حصن الفرج" Azrifarche Sar. Juan تقع في شرف إشبيلية على الضفة اليمنى من الوادي الكبير، ومن الطبيعي أن أربط اسم هذه القرية وما تبقى فيها من آثار حصن الفرج وبين باب كان ينفتح في سور إشبيلية الجنوبي الشرقي في اتجاه هذه القرية كان يطلق عليه اسم باب الفرج، أشرت فيما سبق إلى أن عساكر المرابطين تسللت خلاله إلى القصر المبارك، وأعتقد أن موضع قصر الزاهر هو نفس الموقع الذي تبقت فيه آثار حصن الفرج المذكور، واعتقد أيضًا أن هذا الموضع نفسه كان يشغله حصن قديم من عصر الإمارة الأموية كان يعرف بحصن الفرج شأنه شأن كثير من الحصون التي كانت تقام في عديد من قرى إقليم الشرف(١٢٢) ، ولا تعدو أبراجًا(١٢٣) تحرس هذه القرى وتتولى الدفاع عنها في أوقات الفتن، وبنفس الاسم سمي أحد أبواب إشبيلية المطل على الوادي الكبير تجاهه، فلما تولى المعتضد بالله إمارة إشبيلية وراقه هذا الموضع، لم يتردد في قصده، فجدد بنيانه أحد صوره الريفية التي يقصدها للهو والنزهة والمتعة، وسماه القصر الزاهر لاشتماله بالزهر والشجر والزيتون، ثم جدد المعتمد على الله بنيانه في سنة ٤٧٢هـ (٩١٠/ ١٠٨٠م) (١٢٤) ويعتقد الأستاذ جيريرو لوبيو أن تسمية هذا الحصن بالزاهر إنما جاءت تقليدًا واضحًا لقصر الزهراء الذي ابتناه عبد الرحمن الناصر غربي قرطبة، أو قصر الزاهرة الذي أقامه المنصور مُحَمَّد أبي عامر شرقيها(١٢٥) ، وعلى الرغم من أن التفسير لا يخلو من المنطق، وأنه يبدو أقرب ما يكون إلى الحقيقة استنادًا إلى أن الزهراء وقرطبة كانتا دائمًا

مصدر إلهام للمعتمد بن عباد، كما سبق أن أوضحناه، بالإضافة إلى بيت من الشعر يسجل هذه الحقيقة كتبه المعتمد لرفاقه نطالع فيه.

حســـد القصـــر فـــيكم الزهـــراء ولعمري وعمركم ما أساء[١٢٦]

فإنني أرجح أن تسمية حصن الفرج بالحصن الزاهر أو القصر الزاهر لم تكن تقليدًا لاسم الزهراء أو الزاهرة، لأن هذين الاسمين يتعلقان بمدينتين متكاملتين في حين أن قصر الزاهر كان قصر ريفي أقيم داخل حصن، وأعتقد أن تغيير التسمية من الفرج إلى الزاهر إنما تم في عهد المعتمد، لأن التسمية الجديدة شاعرية تتناسب مع رقة المعتمد الملك الشاعر وميوله وأهوائه وتتفق في نفس الوقت مع حقيقة المجال الذي أقيم فيه القصر، فقد كانت تلفه بساتين ورياض غرست فيها أشجار الزيتون وأنواع الورود والأزهار، ولعل هذه الطبيعة الساحرة هي التي ألهمت المعتمد الاسم الجديد.

ويبدو أن هذا القصر تعرض للنهب والتدمير بعد سقوط دولة بني عباد، ولكن أطلاله ظلت قائمة حتى منتصف القرن السادس الهجري، وكان ما يزال يعرف بالحصن الزاهر بعد أن فقد كل خصائصه كقصر أميري، ويذكر ابن الآبار أن المريدين أتباع أبي القاسم بن قسي وصاحبه أبي الوليد مُحَمَّد بن عمر بن المنذر تحركوا بقيادة مُحَمَّد بن المنذر من لبلة نحو إشبيلية، فدخل حصن القصر (Aznalcazer) وطلياطة (Tejada) من أعمال شرفها- وقد كثف جمعه وكد حشده- فانتهى إلى الحصن الزاهر ودخله، وبظاهر اطريانه (Triana) انكشف أصحابه أمام طائفة من جيش أبي زكريا يحيى بن علي بن غانية [١٢٧] ثم تعرض هذا الحصن من جديد للتدمير عندما اجتاحته قوات البرتغاليين في سنة ٥٧٨هـ - (١١٨٢م) [١٢٨] ، ويذكر ابن عذاري أن يعقوب المنصور خليفة الموحدين أمر في سنة ٥٧٩هـ - (١١٨٣م) باختطاط منزل بخارج إشبيلية يكون بتاج

الشرف، ليأخذ بمخنق بحرها، ويكون كالطابع بين سحرها ونحرها، فقامت في أدنى مدة أشخاص الأسوار، ومثلت مواضع الديار، وكمل القصر الكبير بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من البطاح والأنظار إلى منتهى نظر الأبصار، وكان بناؤه ذلك من أضخم ما عمل وفوق ما أمل، والمنصور بالحضرة (إشبيلية) يتشوف إلى أبنائه ويوالي السؤال عما يتزيد من بنائه، حتى برح به الشوق إلى التشفي من صفاته، وإلى معانية كيفية الوضع ببياته، فوجه عن الناظر فيه، فوصل إليه وعرفه بكيفيته، فزاد شئون المنصور له وسماه بحصن الفرج..." [١٢٩] ، وقبل أن يرحل المنصور للجهاد في جمادى الآخرة سنة ٥٩١هـ حيث انتصر في موقعة الأرك المشهورة، ركب إلى حصن الفرج، وعاين ما تم بناؤه من الحصن فأعجب به[١٣٠] ، فلما تم له الانتصار على قوى المسيحية في إسبانيا في تلك الموقعة ووصل إلى إشبيلية مظفرًا منصورًا، جلس للوفود في قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الأعظم، وأذن فأقبل عليه الشعراء ينشدونه قصائد مدح، أشهرهم الشاعر علي بن حزمون المرسي[١٣١]، وفي العام التالي (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) انتقل إلى حصن الفرج بتاج الشرف وأكمل غرس البحيرة المحدثة أدنى الحصن، وأمر بعمل نواعير على شاطئ النهر تحت الحصن ليستكمل بها جمال الموضع[١٣٢] ، ثم نزل با لحصن مرة أخرى في سنة ٥٩٣هـ أي في أعقاب غزوته الثالثة، حيث أقام بقية فصل الصيف وتمتع برقة هواء الحصن[١٣٣] ، وهكذا يتبين أن حصن الفرج الذي جدد المنصور الموحدي بناءه وأضاف إليه قاعات وقباب لم يكن سوى حصن الزاهر الذي كان قد جدد المعتمد بن عباد بنيانه، وقد تبقت من الحصن آثار أسوار تكتنفها أبراج مربعة الشكل ضخمة سنتحدث عنها في جملة الآثار الباقية من القصور.

٢- المنيات والمجالس والمتنزهات:

يبقى بعد ذلك عدد من المنيات أو المجالس التي أقامها بنو عباد بين الربى والبطاح تحف بها الجداول وتشقها الوديان التي طرزت ضفافها بالأشجار والأدواح، وكان المعتمد بن عباد يقصد هذه المنيات بين الحين والحين، ليقضي بين ندمائه وأصحابه ساعات، يفترشون خضرة أرضها، ويسرحون الأبصار في جمال مناظرها، وينعمون بالسماع والطرب في إطار طبيعي خالص، وقد ورد أسماء هذه المجالس في المصادر العربية، ولكننا لم نتوصل بعد إلى تحديد بعض مواقع هذه المنيات من العمران الإشبيلي زمن بني عباد، وسنكتفي هنا بذكر دار المزينة ومجلس التاج في منية المعرس، ومتنزه وادي الطلح.

أ- دار المزينة:

قد نقرأها دار المزينة تصغيرًا لمزنة وهي السحابة البيضاء، وقد تكون دار المزينة، أي الدار المنمقة لكثرة زخارفها وتنميقاتها، وأيا ما كانت القراءة، فقد كانت دارا ريفية تزدان قاعتها بالتوريق والتشجير الملون، وكانت تلفها الأشجار وتكتنفها الأزهار، وتحيط بها الرياض النضرة التي تكسوها الورود وزهور الأسى والجلنار الزاهية، والظاهر أن المعتمد أقامها بين بساتين قصره ليقضي فيها مجالس أنسه ومرحه، وقد وصف الفتح بن خاقان مجلس هذه الدار، فذكر أن فخر الدولة ابن المعتضد، "دخل عليه في دار المزينة والزهر يحسد إشراق مجلسه، والمدد يحكي اتساق تأنسه، وقد رددت الطير شدوها، وجددت طربها وشجوها، والغصون قد التحفت بسندسها، والأزهار تحيي بطيب تنفسها"(١٣٤) ولا أستبعد أن يكون موقع تلك الدار في الأرض الفضاء الممتدة خارج باب جهور من أبواب إشبيلية، وهي نفس المنطقة التي اختارها أبو يعقوب بن عبد

المؤمن الموحدي لبناء قصوره المعروفة بالبحيرة[١٣٥] ، والظاهر أن بساتين هذه الدار كانت تتصل ببساتين القصر المبارك، وقد أقيم فيها مجلس أنس كان يتردد عليه المعتمد في الليالي القمرية، حيث يلتحف قصر المبارك بضياء القمر ويصف الفتح هذا المجلس، ويذكر دخول فخر الدولة على المعتمد في مجلسه، "في ليلة قد ثنى السرور منامها، وامتطى الحبور غاربها وسنامها، وراع الأنس فؤادها، وستر بياض الأماني في سوادها، وعازل نسيم الروض زوارها وعوادها، ونور السرج قد تلقى أذيالها، ومحامل لجين الأرض نبالها، والمجلس مكني بالمعالي، وصوت المثاني والمثالث عالي، والبدر قد كمل، والتحف بضوئه القصر واشتمل، وتزين بسناه وتجمل"[١٣٦] .

ب- مجلس المعرس:

وكان مطلًا بقاعته المعروفة بالتاج على الوادي الكبير خارج باب جهور بين الرياض والبساتين، وكان التاج قاعة تسمو بقبتها، وتعلو بهامتها على مجموعة قصور بني عباد ويذكر ابن خاقان أن المعتمد قصد هذا المجلس في يوم "قد نشر من غيمه رداء ند، وأسكب من قطره ماء ورد، وأبدى من برقه لسان نار، وأظهر من قوس قزحه حنايا آسى جفت بنرجس وجلنار، والروض قد نفث رباه، وبث الشكر لسقياه، فكتب إلى الطيب أبي مُحَمَّد المصري (خفيف).

أيها الصاحب الذي فارقت عيني	ونفسي منه السنا والسناء
نحن في المجلس الذي يهب الرا	حة والسمع والغنى والغناء
نتعاطى التي تسمى من اللذ	ة والرقة والهوى والهواء
فأته تلف راحة ومحيا	قد أعدا لك الحياة والحياء

فوافاة وألفى مجلسه وقد أتلعت فيه الأباريق أجيادها، وأقامت فيه خيل السرور طرادها، وأعطته الأماني انطباعها وانقيادها، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها، وخلعت عليه الشمس شعاعها، ونشرت فيه الحدائق إيناعها، فأدبرت وتعوطيت الأقداح، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح، وأظهر المعتمد من إيناسه ما به نفوس جلاسه، ثم دعا بكبير، فشربه كما غربت الشمس في ثبير، وعندما تناولها قام المصري ينشد أبياتًا تمثلها:

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا ... بشاد مهر ودع غمدان لليمن

فأنت أولى بتاج الملك تلبسه ... من هوذة بن علي وابن ذي يزن(١٣٧)

وواضح من البيتين الأخيرين أن التاج هو اسم القبة التي تعلو مجلس المعرس، والشاد مهر هو البستان، ونستدل على اسم المعرس من الأبيات الآتية التي كتبها ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون، وكان حاضرًا المجلس المذكور:

يا جمال الموكب الغادي إذا ... سار فيه يا بهاء المجلس

شرفت بكر المعالي خطبة ... بك فانعم بسرور المعرس

وارتشف معسول ثغر اشنب ... تجتنبه من حجاج العس

واغتبق بالسعد ذي دست المنى ... يصبح الصنع دهان الأكؤسي(١٣٨)

وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يؤثر النزول في هذا المجلس كلما حل بإشبيلية، ويصفه الفتح بقوله: "وهو موضع مستبدع كأن الحسن فيه مودع، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم، وروض كما وشت البرد يد راقم، وزهر يحسد رياه، ويتمنى الصبح أن تسم به محياة"(١٣٩).

ولعله هو نفس الموضع الذي أقام أبو يعقوب يوسف الموحدي بالقرب منه قصور البحيرة خارج باب جهور(١٤٠) .

وكان يشق تلك الرياض الممتدة خارج باب جهور وادٍ متفرع من الوادي الكبير كان يعرف حتى عهد قريب قبل أن يردم باسم تاجاريتي Tagarete وكانت تتخلله خارج باب جهور بحيرة ذكر ابن عذاري أنها كانت تقع خارج هذا الباب(١٤١) استغلها أبو يعقوب يوسف في إنشاء بحيرة صناعية اختطها داخل صوره التي ابتناها فيما وراء باب جهور وعرفت بقصور البحيرة(١٤٢) ، ولعلها نفس البحيرة التي يسميها الفتح بن خاقان باسم البحيرة العظمى تمييزًا لها عن بحيرتين صغيرتين أو بركتين صناعيتين كانتا تتورطان بهوى الثريا والزاهي، وكانت تحف بالبحيرة الكبرى زمن المعتمد بن عباد الأشجار، وتنعكس عليها النجوم فتبدو على صفحة مياهها كالأزهار(١٤٣) .

ج- منتزة وادي مطلح:

كان المعتمد كثيرًا ما ينتاب هذا الوادي مع رميكيته، وهي اعتماد جاريته وأم أولاده، وكانت لها معرفة بالغناء، حسنة الحديث، حلوة النادرة كثيرة الفكاهة(١٤٤) . ويذكر المقري أن وادي الطلح واد بشرق إشبيلية ملتف بالأشجار كثير ترنم الأطيار وأرضه تحف بها الأزهار(١٤٥) ويذكر ابن سعيد اسم هذا الوادي بجهة حصن القصر(١٤٦) .

ثالثا: قصور الموحدين المجاورة لقصور بني عباد:

اهتم خلفاء الموحدين في الأندلس ببناء القصور، وحظيت إشبيلية حاضرتهم في الأندلس، بعنايتهم، فأسسوا بالإضافة إلى قصور بني عباد قصر للإمارة ملاصقًا لبعض قاعات القصر المبارك والثريا، كما أقاموا قصور البحيرة

خارج باب جهور، وقصور أخرى للسادة الأمراء خارج باب الكحل، هذا إلى إعادة بنيان حصن الفرج في الموضع الذي كان يقوم فيه الحصن الزاهر.

١- قصور البحيرة:

في شهر صفر سنة ٥٦٧هـ . (١١٧١م) أمر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أثناء مقامه في إشبيلية ببناء "قصور المكرمة السعيدة المعروفة بالبحيرة خارج باب جهور من إشبيلية"، كما أمر بأن تختط بحيرة هذه القصور في الجنة المنسوبة لابن مسلمة القرطبي، بعد أن انتزع منه ملكيتها مقابل عوض صحيح من الجنات مثلها، وفي هذا الموضع ابتنى العرفاء القصور المذكورة ودورًا للأمراء فاقت القصور التي ابتناها العريف مُحَمَّد بن المعلم لأخيه السيد أبي حفص على وادي إشبيلية خارج باب الكحل، وقد تولى بناء قصور البحيرة ودور الأمراء العريف أحمد بن باسه عريف[١٤٧] البنائين في الأندلس، فاستكمل بناءها، وجاءت من الحسن يحار فيها الوصف" أربت على مباني الخورنق والسدير، وطلعت بباب جهور كالبدر المنير"[١٤٨] ، ضم سورها بأسوار مبنية من الجيار والرمل والحصى، وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف قد عهد إلى كل من القاضي أبي القاسم أحمد بن مُحَمَّد الحوفي الإشبيلي (ت ٥٨٨هـ) أبي بكر مُحَمَّد بن يحيى الحذاء أمام جامعة إشبيلية (ت ٦٠٠هـ) والموثق باختطاط ما يلزم لإقامة بساتين ملحقة بالقصور تغرس بأشجار الزيتون والأعناب والكمثرى والأجاص المسمى بالعبقر والأرزة والتفاح، فاختصا ما أمرهما به، وكان الملتزم للحفر في غرس البحيرة المذكورة الشيخ أبو داود بلول بن جلدا سن مشرف إشبيلية وأعمالها تحت إشراف السيدين أبي العلاء إدريس الوزير وابنه يحيى[١٤٩] .

ثم نظر الخليفة أبو يعقوب يوسف في مشكلة توصيل المياه إلى قصوره بإشبيلية والبحيرة، وعهد بذلك إلى المهندس الحاج يعيش، وكان خارج باب قرمونة أثر قديم بعد به العهد من بنيان جسر روماني قديم علت عليه الأرض، وأصبح مجرد خيط رفيع من حجارة لم يكن معروفًا الهدف منه، فأخذ الحاج يعيش المهندس يتتبعه، وحفر حوله، فإذا به جسر قديم للمياه يرجع تاريخه إلى العصر الروماني "سرب قد جلب فيه الماء قديمًا إلى إشبيلية من عمل الأوائل الملوك من الروم الماضية والقرون الخالية"(١٥٠) فما زال الحاج يعيش يتتبعه بالحفر حتى أوقعه الحفر في العين القديمة المسماه عند أهل إشبيلية بعين الغبار، فتبين بعد فحصها أنها ليست عينًا كما كان الظن، وإنما كانت فتقا في الجسر الروماني، فاستمر يعيش يواصل الحفر حتى اهتدى إلى أصل الجسر قرب قلعة جابر(١٥١) Alcala de Guadaria فأصلحه المهندس الحاج يعيش وأجراه إلى داخل إشبيلية حتى البحيرة ثم أمر الخليفة الموحدي بإجرائه إلى داخل إشبيلية وإلى قصور بني عباد لتعم الفائدة وينتفع الناس من مياهه في شربهم ومرافقهم، كما أمر ببناء محبس للماء في حارة ميور(١٥٢) El callejon dei agna وتقابلها اليوم حارة الماء.

وما زالت بقية من هذا الجسر قائمة خارج باب قرمونة من إشبيلية، وبعض عقوده في هذا القطاع من الآجر، وبعضها الآخر من الحجر.

٢- أعمال الموحدين داخل قصور بني عباد بإشبيلية :

من العسير استخلاص ما أقامه الموحدون في مجموعة الأبنية التي تؤلف اليوم قصر إشبيلية فقد كان يتألف من قصور مختلفة في مركزين رئيسين: قصر

الملك بدور الذي أقامه في سنة ١٣٦٤م على أبنية إسلامية، والقصر المسمى بالقصر القديم.

ولا نشك في أن الموحدين هدموا جانبًا من قصور ابن عباد وأقاموا مكانها قاعات جديدة تتفق زخارفها ويتناسب تخطيطها مع الأسلوب الشائع في فنون الموحدين، ويتميز بالجمع بين البساطة التي اتسمت بها عمائرهم في المغرب والغلو في الحشد الزخرفي والميل إلى التعقيد وهما خاصتان بارزتان في فنون الأندلس في عصري الخلافة والطوائف، وقد شاع في فن الموحدين استخدام شبكات المعينات في المسطحات المراد زخرفتها كما هو الحال في صومعة جامع إشبيلية وفي بائكه بهو الجص بقصر إشبيلية، ولم يتبق من إضافات الموحدين في قصور بني عباد سوى البائكة المذكورة، والبهو المصلب المجاور، هذا إلى جانب بهو العدل، وسنعود إلى الحديث عنها عندما نتعرض لدراسة آثار هذه القصور، وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف قد أقام القصبة الداخلية والخارجية في سنة ٥٦٧هـ ـ (١١٧١م): أما الداخلية فتضم قصور بني عباد وما أضيف إليها من قصور الموحدين داخل نطاق المدينة(١٥٣) ، وكان المشروع يستهدف كذلك ضم بنيان المسجد الجامع بالقصبة، وأما القصبة الخارجية فقد أقيمت خارج باب الكحل(١٥٤) ، وكانت تحيط بقصور السادة الأمراء أخوة الخليفة وأبنائه، ويحدد ابن صاحب الصلاة امتداد أسوار القصبة الداخلية فيذكر أنها كانت تبدأ من رحبة ابن خلدون داخل إشبيلية، وتضم جامع القصبة ودار الصناعة حتى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل(١٥٥) ، ولكن أعمال البناء في أسوار القصبة الداخلية لم تلبث أن توقفت بعد وفاة الخلية(١٥٦) لأن أبا يوسف يعقوب المنصور الخليفة الموحدي الجديد أعرض عن بنيان هذا السور(١٥٧) ، وكان الموحدون قد هدموا أسوار قصور بني عباد واستخدموا أحجارها في بنيان

أسس صومعة جامع إشبيلية وكانت من النوع العادي أو القديم المسمى بالطحون[١٥٨] ، وهي أحجار من نفس نوعية أحجار الركائز الباقية بجامع ابن عدبس، ومن المعروف أن هذا المسجد أقيم بناؤه من أحجار السور الروماني كالشأن في صور قصر الإمارة العبادي، ولهذا فقد أعاد ابن باسه استخدام أحجار سور القصر العبادي في بناء القسم الأدنى من الصومعة بما فيه الأسس، وما زالت كتلتان تحملان بعد نقشا لاتينيًا، والظاهر أن ابن باسه توفي قبل شروعه في بنيان القسم الأدنى من الصومعة بالحجر، فتوقف على إثر ذلك البنيان بالأحجار واستبدل بها البنيان بالآجر وتم ذلك على يد علي الغماري.

٣- قصور السادة الموحدين:

يؤكد ابن صاحب الصلاة أن مُحَمَّد بن المعلم العريف تولى الإشراف على مباني السيد أبي حفصة أخي الخليفة أبي يعقوب يوسف، التي ابتناها له على وادي إشبيلية خارج باب الكحل، في موقع يمكن تحديده من سور القصبة البرانية ودار الصناعة، ويعتقد الأستاذ خوليو جنثالث أن هذا الموضع نفس موضع القصر المسمى بسان تيلمو (١٦٨٢– ١٧٣٣) استنادًا إلى أنه كانت تقوم فيه منية في عصر الاسترداد[١٥٩] .

وهناك قصور أخرى كانت تقوم عند سقوط المدينة في أيدي القشتاليين بالقرب من الباب المسمى فيما بعد بباب الباركيتا La Earqueta فقد منح الملك ألفونسو العاشر أخاه الأمير دون فادريكي Fa drique إقطاعًا ضخمًا يقع بين دير سانتا كلارا والباب المذكور، ويضم من بين محتوياته قصرًا وبساتين ممتدة، وفي هذا الإقطاع شيد برجًا اتبع في بنائه الأسلوب القوطي، ما يزال قائمًا حتى اليوم ويحمل اسمه[١٦٠] ، ولكن لم تكد تمضي سنوات على ذلك حتى صار

ألفونسو العاشر ممتلكات دون فادريكي بسبب خلاف وقع بينهما، وقدم الملك قسمًا من هذه الممتلكات إلى منظمة قلعة رباح الدينية في ١٨ مارس ١٢٧٣م، في حين قدم سانشو ألجسو قسمًا آخر منها هبة إلى طائفة الراهبان الكلاريات الفرنتشكانيات في سنة ١٢٨٩م، وفي هذا القسم أقيم الدير القائم في الوقت الحاضر، وقد أقامت منظمة قلعة رباح في البساتين المجاورة لباب الرجل كنيسة سان بيتو San Benito ودور الرئيس القساوسة وكان سانتا لوثيا يتميز بشوارعه الضيقة ومن بينها شارع الشمس وشارع الأفران، ومبانيه التي كان يسكنها المدجنون في القرون الثلاثة التي أعقبت وفاة فرناندو الثاني وفي وسط شارع الشمس، كان يقوم البيت المسمى ببيت الملك المسلم Casa delrey inoro ويعتقد ثليستينو لوبث مرتينث بعد دراسة حول التفسيرات المختلفة لاسم هذا الملك أن المقصود بالملك المسلم هو ابن محفوظ صاحب لبلة والغرب[١٦١] الذي نزل في هذا البيت أو القصر في سنة ٦٦٢هـ – (١٢٦٢م) [١٦٢] ، وقد يكون المقصود بالملك المسلم ملك يباشر بالفعل الحكم في إسبانيا الإسلامية، ولعله السلطان الغالب بالله مُحَمَّد بن الأحمر الذي قدم إلى إشبيلية في سنة ٦٦٢هـ – (١٢٦٣م) ليجدد معاهدة الصلح المعقودة بينه وبين الملك ألفونسو العاشر ملك قشتالة، وكان بصحبه صهراه الزعيمان أبو مُحَمَّد وأبو إسحق ابنا أشقيلولة مع قوة غرناطية من خمسمائة فارس، فخرج إليهم الملك ألفونسو العاشر لتلقيهم، ودعاهم لزيارته داخل المدينة، فاستجاب ابن الأحمر، ودخل إشبيلية مع صهريه وجماعة من فرسانه، فنزلوا بالعبادية منها وهو زقاق ضيق من إشبيلية، وفي الصباح الباكر أبلغ بأن القشتاليين سدوا الدروب الموصلة إلى مكانه أثناء الليل بالخشب المسمرة تعويقًا لسير الخيل، فخشي على نفسه، وشم رائحة الغدر به، وبالزعيمان ابني أشقيلولة فأمر رجاله بكسر هذا الخشب وارتحل مع أصحابه فغادرا إشبيلية، مغاضب لألفونسو، ولم

يقتنع بأعذار ألفونسو الذي أقسم أنه لم يأمر بسد الدروب إلا بقصد حمايته من اللصوص[١٦٣].

وواضح من هذه الرواية أن البيت المسمى ببيت الملك المسلم يمكن أن يقصد به القصر الذي نزله السلطان الغرناطي، إذ أن ابن محفوظ صاحب لبلة كان قد أخرج أهل لبلة منها قبل أن يدخلها القشتاليون، ووصل مع قومه إلى مراكش في خلافة المرتضي الموحدي.

وإذا كان الأستاذ جيريرولوبيو يعتقد أن زقاق العبادية هو القصر فهذا الاعتقاد فيما يبدو خاطئ لأن شارع الشمس كان يقع في أقصى الشمال الشرقي من إشبيلية قريبًا من باب قرطبة، أو بين هذا الباب وباب الفتح المجاور لباب قرمونة وإذا كان قد سمي بالعبادية، فلعل هذه التسمية ترجع إلى الدار القديمة التي كان يسكنها في إشبيلية القاضي إسماعيل بن عباد.

رابعا: الآثار الباقية من قصور بني عباد والموحدين

١- آثار القصر المبارك وقصر الإمارة العبادي والقصر الزاهي:

بعد أن نهب المرابطون آل عباد، وأسروا عميدهم المعتمد ونفوه إلى العدوة ومنها إلى أغمات، ووقع النهب في قصره[١٦٤]، هبت على إشبيلية ريح عاتية من التدمير شملت قصوره التي كان قد ابتناها للهوه ومرحه، أما القصر فقد رجحنا أنه كان مقامًا في نفس الموضع الذي يقوم عليه اليوم برج الذهب، والمنطقة المجاورة له من جهة القصر حتى برج الفضة، وأما القصر الزاهر فلم يتبق منه في عصر الموحدين إلا آثار دراسة وجدران واهية فبناه المنصور حصنًا أسماه حصن الفرج، كان يشتمل على قباب وقصور، وأما القصر المعرس ومجلس

التاج، فقد ظل يحتفظ بعناصره في عصر المرابطين وكان يتردد عليه الأمير علي بن يوسف، ولكنه تعرض بدوره للتدمير في موجة الاضطرابات التي واكبت نهاية العهد المرابطي في الأندلس، ولم يبق من آثاره سوى البحيرة الكبرى الواقعة خارج باب جهور، وأما القصر المبارك وما كان يضمه من مجالس فخمة كالثريا والوحيد وقصر الإمارة، فقد أبقى عليها المرابطون، وظلت تحتفظ إلى حد كبير بعناصرها الأولى طوال عهدهم وبداية عهد الموحدين.

وقد ظل القصر المبارك مقرًا لضيوف دولتي المرابطين والموحدين، ونستدل في ذلك على النصوص التاريخية التي زودنا بها كل من ابن صاحب الصلاة وابن عذاري، وتشير هذه النصوص إلى أنه بعد وفاة ابن مردنيش وغلبة الموحدين على مرسية، بادر هلال بن مردنيش بإظهار طاعته للخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف في إشبيلية، فقدم مع آله وأصحابه ليعلن طاعته للخليفة، فأرسل الخليفة إلى لقائه أخويه السيد أبا زكريا يحيى وأبا إبراهيم مع علية أبناء أشياخ الجماعة من الموحدين، فتلقوه بالتكريم على أميال من إشبيلية، وصحبوه إليها، فدخل "في صحبتهم إلى القصبة العتيقة إلى مجلس الخليفة ﷺ"[١٦٥] وذلك في أول رمضان سنة ٥٦٧هـ، ولما تمت مبايعته للخليفة، أنزله "في قصر[١٦٦] مُحَمَّد بن عباد أمير إشبيلية الرفيع الشأن، العظيم البنيان، وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به[١٦٧] ، وقد أعدت لهم الفرش والبسط والمطاعم والمكارم والمشارب والمآرب، وأفهموا أنهم الأقارب والأصحاب"[١٦٨] .

وفي العام التالي (في الثامن من ربيع الأول سنة ٥٦٨هـ) عاد الخليفة الموحدي من زيارته لمرسية وبصحبته جميع أولاد مُحَمَّد بن مردنيش وعيالاتهم وعيال أبيهم وأخواتهم، فأنزلهم الخليفة أضيافًا في قصر ابن عباد وفي الدور المتصلة به، واشترى لهم دورًا بإشبيلية من أربابها لسكناهم غير أن القصر المبارك

لم يلبث أن هجر بعد أن ابتنى أبو يعقوب يوسف قصور البحيرة، والظاهر أن بعض جدران القصر تصدعت وسقطت، واتفق ذلك مع شروع العريف أحمد بن باسه في بناء صومعة جامع القصبة بإشبيلية وحاجته إلى كمية من الأحجار الضخمة، فاستخدم في ذلك الأحجار المقتلعة من سور قصر ابن عباد، وهكذا أخذ السور الخارجي للقصر المبارك وقصر الإمارة العبادي يتهدم ويعاد استخدام أحجاره في أبنية الموحدين الأخرى، أما القصر نفسه بمجالسه وقاعاته فقد ظل يحتفظ بكيانه، ويذكر المراكشي أن القصر المبارك كان ما يزال قائمًا في عهده(١٦٩) ويؤدي وظيفته كمقر ضيافة للوافدين على إشبيلية من ضيوف الدولة الموحدية ففي سنة ٦٣٢هـ - (١٢٣٤م) دخل الأمير أبو عبد الله مُحَمَّد بن يوسف بن نصر مدينة إشبيلية بحيلة دبرها وقتل شيخها أبا مروان الباجي غدرًا، وأقام في القصبة شهرًا (أي قصر الإمارة) ولكن أهل إشبيلية أخرجوه منها وجددوا بيعتهم لأبي عبد الله مُحَمَّد بن هود(١٧٠).

فلما سقطت إشبيلية في أيدي القشتاليين في (٢٧ رمضان ٦٣٦هـ) ٢٢ من ديسمبر سنة ١٢٤٨م، وأصبحت قاعدة لملوك قشتالة اتخذ هؤلاء قصر إشبيلية مقرًا لهم، وأصبح هذا القصر والمجموعة العبادية والموحدية مقر فرناندو الثالث وألفونسو العاشر العالم وبدروا الأول القاسي ملوك قشتالة، وشاركت إشبيلية شقيقة طليطلة في شغل مكان الحاضرة الرئيسة لملوك قشتالة القدامى(١٧١). ثم أقدم ألفونسو العاشر العالم على إحداث بعض التغييرات في قصور المسلمين، فأسس قصرًا على الطراز القوطي بقيت منه قاعدة طويلة منخفضة تعلوها قنوات قوطية تعرف اليوم باسم حمامات ماريا دي باديم Banos de Maria de Padill كما تبقت ثلاث قاعات كبيرة تغيرت معالمها في عهد شارلكان(١٧٢)، ثم أقام الملك دون بدرو الأول الذي عرف بحبه

للفنون الإسلامية وصداقته الحميمة بسلطان غرناطة، إلى الجنوب الغربي من قصر الموحدين الذي كان يشغل على وجه التقريب موضع بعض الدور المطلة على بهو البنود، بالإضافة إلى بهو العدل وقصر الجص وقاعة كراكول Cuarts de caracol الدارسة(١٧٣) ، وأقام قصرًا جديدًا أقرب ما يكون إلى قصور بني نصر بغرناطة مستغلًا في بنائه مواضع من القصور العبادية ومستعينًا بعرفاء مدجنين من طليطلة وإشبيلية، وعرفاء مسلمين استقدمهم من مملكة بني الأحمر بغرناطة، ومن المعروف أن القصور الإسلامية كانت تمتد حتى الموضع الذي تشغله دار التجارة مع الهند Casa de la contratacion de les Indias ويقع فيما بين مباني القصر الحالية والكاتدرائية، وكانت تعرف في سنة **١٣٣٢**م باسم القصر القديم(١٧٤) .

وبينما تولى الملك خوان الثاني ترميم القصور الإسلامية والمسيحية(١٧٥) أقام الملكان الكاثوليكيان قاعات ومصليات داخل نطاق القصر، كما أجرى الملك شارلكان إضافات جديدة وفقًا لطراز عصر النهضة، كذلك أضاف كل من فيليب الثالث والخامس إضافات جديدة(١٧٦) ولقد تعرض بعض هذه العمائر للحرق(١٧٧) والهدم والترميم كما حدث في عهد إيزابيلا الثانية (**١٨٥٤/ ١٨٥٧**)(١٧٨).

ومع كل ما سبق ذكره من إضافات وهدم وترميم فقد كان قسم من القصر المبارك ما يزال قائمًا في عهد بدرو الأول صحيح أن ألفونسو العاشر قد أسس قصره القوطي بالقرب من القصر المبارك أو داخل قسم منه، وذلك حول البهو المعروف ببهو المصلب el Patis del crucero ، كما أقام نفس الملك قاعته المعروفة بقاعدة العدل في قطاع القصر الموحدي ومن الجائز أنه هدم لهذه المنشآت التي أقامها قسمًا كبيرًا من القصر المبارك وقصر الإمارة العبادي ومع

ذلك فقد أبقى على قسم لا بأس به من القصر المبارك، ولا نشك في أنه ساعد على إقامة المنشآت الجديدة وتصدع المنشآت الإسلامية أو سقوط بعضها وتخربه في أعقاب الحصار الطويل (خلال ١٧ شهرًا) الذي أحكمه القشتاليون حول إشبيلية ، وما تبع ذلك من قذف هذه المنشآت بالمنجانيق[١٧٩] وقد عبر الشاعر الإشبيلي أبو موسى هارون عن ذلك في قصيدته التي رثى بها إشبيلية، ووصف ما نال أهلها من الشدة، ومنها:

أنا إلى الله قد حل المصاب وما	من حيلة في الذي أمضى وما حتما
في كل حين ترى صرعى مجدلة	وآخرين أسارى خطبهم عظما
وقد أحاطت بنا الأعداء فاغرة	أفواهها تبتغي أرواحنا طعما
عفت يد الشرك ما شاد الخلايف من	قصر ومن مصنع ضخم حكى أرما
من ينصر المنزل الأعلى يقل ولها	ما خط قط لذا أسى ولا رسما
أين القباب التي كانت محجبة	فيها الملوك تفيض الجود والكرما[١٨٠]

ويعتقد الأستاذ جيريرولوبيو في بحثه القيم عن القصر المبارك أنه لم يندثر في جملة ما اندثر من أبنية الموحدين، ويعتقد أيضًا أنه تبقى منه أثر هام لعله نفس مجلس الثريا، استنادًا إلى بعض العناصر المعمارية التي تحتفظ بها قاعة السفراء بقصر إشبيلية الحالي، وهي لا تختلف كثيرًا من حيث كثافة زخارفها ودقة تنميقاتها وتنوعها أو حتى من حيث التخطيط عن نظيرتها في قصر الحمراء بغرناطة اللهم إلا في وجود العقد المنفوخ ثلاثي الفتحات الذي يشبه نظيره في القاعات الملكية بقصبة مالقة من عصر الطوائف، وكلاهما استوحى فكرة العقد ثلاثي الفتحات من المجلس الغني بقصر الزهراء (انظر الشكل) ، ويؤكد الأستاذ جيرير ولوبير أن قرطبة كانت مصدر إلهام فني لملوك الطوائف إلهامًا تجاوز

أشكال العقود إلى أسماء القصور، ويخرج من مناقشة الطويلة بنتيجة حاسمة ومقبولة وهي أنه وصلت إلينا من قصر المعتمد أجزاء رئيسة من أهم أبنيته داخل نطاق المجموعة المعمارية الكبرى التي يمثلها القصر الحالي، وأن هذه الأجزاء لا تعدو المجلس الرائع الذي اتخذه المعتمد داخل المبارك وسماه الثريا، ولكنها وصلت إلينا في ثوب مخالف لما كانت عليه زمن المعتمد، فقد تجردت من كسوتها الزخرفية القديمة، وكسيت زخارف مغايرة، إلا أن جوهر الثريا ما يزال واضحًا من حيث التخطيط والعناصر المعمارية التي تنطبق على قاعة السفراء(١٨١).

وإذا أحصينا البقايا الأخرى التي وصلت إلينا من القصر المبارك نضيف إلى ما سبق العقدين التوأمين المنفوخين على شكل حدوة الفرس، وهو النوع الشائع استخدامه في العصر الأموي وعصر الطوائف، ينفتحان في الجدار الخلفي من واجهة بهو الجص، ونعتقد أن هذين العقدين يمثلان جانبًا من القصر المبارك أو الزاهي وأن الموحدين أعادوا استخدامها بعد أن كسوهما بزخارف حصينة من طابع زخارف الموحدين، ويتوسط البهو المذكور حوض لعله كان قائمًا من عصر المعتمد على غرار الأحواض والبرك الصناعية في قصور الزهراء، وقد تكون هي نفسها البركة التي أشرنا آنفًا أنها أقيمت في القصر الزاهي، وذكرنا أن تمثالًا لفيل كان منصوبًا على حافتها يمج الماء من فيه، وقد تكون هناك في مجموعة القصر الحالي بقايا أخرى من قصور المعتمد ما تزال دفينة في باطن قاعاته وأبهائه، أو طمست معالمها بكسوات زخرفية تغطي جدرانها ولكن الكشف عنها يحتاج إلى دراسات أثرية وحفريات وهو أمر يصعب تحقيقه لأن الآثار التي وصلت إلينا من مجموعه القصر، وإن كانت غير متجانسة من حيث

الأسلوب الفني والمعماري، إلا أنها تؤلف مجموعة متكاملة يتعذر التضحية ببعضها في سبيل الكشف عن آثار غير مؤكد العثور عليها.

٢- أثار قصور الموحدين داخل مجموعة القصور العبادية :

من العسير استخلاص ما أقامه الموحدين في مجموعة الأبنية التي تؤلف اليوم قصر إشبيلية فقد كان يتألف من مركزين رئيسين: قصر الملك دون بدرو الذي أقامه في سنة ١٣٦٤م على أبنية إسلامية والقصر المسمى بالقصر القديم، والذي يهمنا دراسة آثار القصر الموحدي الذي أقامة أبو يوسف يعقوب على أنقاض أحد قصور المعتمد بن عباد، هذا القصر لم يتبق منه اليوم سوى قاعة الجص ببهوها الضيق الصغير الذي يتخذ شكل مستطيل يقوم في أحد جانبيه القصيرين صف من العقود يتألف من عقد كبير منكسر يتوسط من كل جانبيه الأيمن والأيسر ثلاثة أقواس صغيرة تتكئ على أعمدة أعيد استخدامها من قصر المعتمد بن عباد، ويؤلف حافات العقود السبع خطوط متموجة. وبنيقتا العقد الأوسط تغطيهما شبكة من أشرطة منحنية متشابكة على شكل معينات، في حين تمتد العقود الجانبية وتتقاطع منحرفة لتحدث معينات مخرمة، ويقابل هذه البائكة في الجدار المقابل جوفة من ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس تتكئ على عمودين مركزيين، كذلك تبقت من القصر الموحدي قبة ذات اثني عشر ضلعًا متقاطعًا فيما بينها في غرفة بالمنزل رقم ٣ من بهو البنود، غير بعيد من بهو الجص، وتشبه هذه القبة كثيراً من حيث التخطيط قبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان (١٨٢)، وهي قبه يرجع تاريخ إنشائها إلى عصر المرابطين، تقوم على أساس تقاطع ١٢ ضلعًا دقيقًا بارزًا من الآجر، ويشعل الفراغ المركزي الناشئ من تقاطع ضلوع القبة قبوة مقربصة ما تزال في المرحلة الأولى من مراحل تطور نظام المقرنصات ولكن هذا التشابه يقل عند مقارنتها

بقبة المحراب بالمسجد الجامع برباط تازا التي ازدادت تنميقًا وتأنقًا لزخارفها الكثيفة وتوريقاتها المتطورة [١٨٣]، ويميل الأستاذ توريس بلباس إلى نسبتها أي نسبة قبة القصر الإشبيلي- إلى عصر المرابطين لتشابهها الكبير بقبة المحراب بجامع تلمسان، مع الفارق في زخارف التوريق الكثيفة المخرمة التي تغمر تلمسان[١٨٤]، ولكنني أعتقد أنها موحدية وأن تاريخها يرجع إلى بداية عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب الموحدي، لأن طابع المقرنصات التي تشغل مركز القبة أقرب إلى نفس طابع مقرنصات ديلاس أو يلجاس ببرغش.

٣- أثار حصن الفرج:

تقع قرية سان خوان دي حصن الفرج San Juan deAznalfarache إلى الجنوب الغربي من ربض طريانة قبلي إشبيلية، وكانت بحصنها المنيع وبموقعها الاستراتيجي الهام على قمة مرتفع مسطح تشكل الخط الدفاعي الأمامي عن إشبيلية في عصر الموحدين والمركز الدفاعي الرئيس عن منطقة الشرف، ونستدل من كتاب تقسيم إشبيلية Sevilla بعد أن استولت عليها قوات القشتاليين، أنه لم تكن بهذا الحصن في عصر الموحدين حامية لها قيمتها بخلاف شلوقة San Lucar وطلياطة Tejada ولا نستبعد أن يكون هذا الحصن قد هجر وتعرض للتخريب بعد سقوط إشبيلية بدليل أن الملك وهبه في سنة ١٢٨٤م لمدينة إشبيلية، وبفضل هذه الهبة تحول الحصن بالتدرج إلى قرية تحمل اسم المنظمة الدينية العسكرية التي آل إليها وهي سان خوان ثم اسم الحصن وهو حصن الفرج[١٨٥].

ومن المعروف أن حصن الفرج كان من الحصانة بحيث لم تتمكن قوات القشتاليين اقتحامه بسهولة فقد اكتفى دون بلايو كوريا Don Pelayo

Correa بالمرابطة بقواته أدنى الحصن دون أن تنال قواته منه شيئًا[١٨٦] ، إلى أن دخلته في سنة ١٢٤٦ بعد مقاومة عنيفة، ويؤكد دي ثوينجيا مؤرخ إشبيلية مناعة الحصن بقوله: "إن إطلالة تشهد بمناعة قلعته، وتقع في أعلى نشر مجاور للوادي وبه تنتهي المرتفعات من سلاسل جبال سيرامورينا مشرفة على سهول طريانة"[١٨٧].

ولم يتبق اليوم من حصن الفرج إلا آثار السور الذي كان يحيط بالقلعة، إذ أن القرية الحالية هي مجموعة من الأبنية الحديثة، ومادة بنيان هذا السور من الملاط، أما الأبراج وكلها رباعية الشكل فقد توزعت في ستارة السور على مسافات متقاربة، وهي صماء حتى الارتفاع الذي نشاهده اليوم، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تشتمل على غرف عليا في مستوى ممشى السور على غرار أبراج سور مقرانة بإشبيلية.

وبخلاف ذلك لم يتبق أي أثر للقصر ولا لقبابه التي أبدع الشعراء في وصفها، وحتى هذه الأسوار الباقية، لا تحتفظ تمامًا لحالتها الأولى بعد أن تعرضت لأعمال الإصلاح والترميم عدة مرات.

نبذة عن قصور دولتي المرابطين والموحدين:

كنا نجهل ما كانت عليه قصور المرابطين في إسبانيا الإسلامية حتى أمكن الكشاف عن بقايا قصير "ميتقوط" في سهل مرسية على بعد أربعة كيلو مترات شمال شرقي هذه المدينة، ويعتبر هذا القصر المثل الأول الذي احتذاه الموحدون في قصورهم بإشبيلية ومالقة وقرطبة، والذي احتذاه بنو نصر من بعدهم في بهو السباع بحمراء غرناطة، وأهم ما يتميز به التناسق التام في مخارج سوره ومداخله وفي توزيع غرفه، ويتوسط هذا القصر صحن مستطيل يطل على جانبيه

القصيرين جوسقان مربعان بارزان يمهدان لجوسقي بهو السباع بغرناطة، ويتقاطع ممشيان يؤلفان محوري البناء على شكل صليبي، وتمتلئ المستطيلات الأربعة الناشئة من هذا التقاطع بأشجار البرتقال والليمون. وقد اقتبس هذا النظام نفسه بعد ذلك بقرنين من الزمان في جامع القرويين بفاس، وفي بعض قصور أمراء بني مرين بمراكش.

ولم يذكر مؤرخو العرب جهود الموحدين في بناء القصور، ومع ذلك فإن عصر الموحدين يعتبر من أزهى العصور في البناء والتشييد، فقد أقاموا الدور والقصور في غرناطة وقرطبة ومالقة وإشبيلية، وقد نوهت كتب التاريخ بما بذله أبو يوسف يعقوب من بنائه قصر البحيرة خارج باب "جهور" من أبواب إشبيلية وأمده بالمياه من قلعة جابر وقرمونة، وأضاف سنة ٥٦٧هـ - (١١٧١م) قاعات أخرى إلى قصر بني عباد بإشبيلية بقيت منها أجزاء تعد غاية في الروعة والجمال وسط خليط من الإضافات المسيحية، ولا تزيد هذه البقايا عن جزء من قاعة الجص وقبوة من المقرنصات والضلوع بالمنزل رقم ٣ في بهو البنود بالقصر وبقايا سور وأبراج كانت تحيط بالقصر القديم.

قصور الحمراء بغرناطة:

لم تكن غرناطة زمن الفتح الإسلامي سنة ٧١٢ ميلادية سوى قرية صغيرة افتتحها المسلمون عنوة، وضموا اليهود إلى قصبتها، ولعل ذلك كان سببًا في تسميتها بعد ذلك "بغرناطة اليهود". ومنذ الفتح لم يعرها المسلمون اهتمامًا إذ استقر جند دمشق في البيرة التي ظلت حاضرة كورة البيرة زمن بني أمية، ولكن غرناطة أخذت تنمو شيئًا فشيئًا منذ القرن العاشر، وأصبحت مدينة كبيرة، فلما سقطت الخلافة بقرطبة، استولى البربر على البيرة، فخلت وانتقل أهلها منها إلى

غرناطة، وبزغت شمس غرناطة وأصبحت حاضرة كورة البيرة، ثم أخذ اسم غرناطة يسيطر تدريجيًا على الكورة، وأخيرًا حل محل اسم البيرة.

وكان لموقع غرناطة على الضفة اليمنى من نهر شنيل واختراق نهر حدرة لها– أثر كبير في إحاطة الجنان والبساتين بها، وكانت تشرف من الناحية الجنوبية الغربية على فحص فسيح، وكان يطل عليها من الشرق والغرب جبل شلير الذي لا يفارقه الثلج شتاء أو صيفًا (Sierra Nevada). وكان للمرتفعين اللذين يفصل بينهما نهر حدرة واللذين عليهما مدينة السلاطين وحي البيازين– أهمية استراتيجية عظيمة كان لها أثر كبير في مناعة المدينة.

ولما سقطت غرناطة في أيدي البربر جعلها زاوي بن زيري عام ١٠١٣ ميلادية عاصمته، وقد مدنها حبوس الصنهاجي وحصن أسوارها وخلفه ابنه باديس بن حبوس فكملت في أيامه. وظلت غرناطة عاصمة بربر صنهاجة حتى استولت عليها جيوش المرابطين عام ١٠٨٩ ميلادية ويغلب على الظن أنهم جعلوها حاضرة دولتهم في الأندلس، ثم فتحها الموحدون عام ١١٤٦ ميلادية، وفي نهاية عهدهم نجح ابن هود ملك بلنسية سنة ١٢٣١ ميلادية في ضم غرناطة إلى ملكه، وبعد وفاته سنة ١٢٣٧م ضمها إليه مُحَمَّد بن يوسف بن نصر سيد حصن أرجونة وبسطة ووادي آش وشريش وجيان ومالقة، وجعلها عاصمة مملكته.

وكانت إسبانيا الإسلامية إذ ذاك قد تحطمت أعوادها وانكمشت رقعتها أمام الدفع السريع للاسترداد القومي الإسباني على إثر سقوط المدن الكبرى كقرطبة سنة ١٢٣٦م ومرسية سنة ١٢٣٩م وإشبيلية سنة ١٢٤٨م في أيدي النصارى، وكانت الأحوال السياسية وقتئذٍ تحتم تأليف جبهة قومية قوية أمام

الخطر الجاثم، فقامت مملكة غرناطة التي دامت ما يقرب من قرنين ونصف القرن من الزمان بالرغم من الصراع غير المتكافئ بين النصرانية والإسلام، وبالرغم مما عانته مملكة غرناطة من حروب داخلية، وكان توسل بني الأحمر بسلاطين بني مرين في الجانب الآخر من الزقاق، ثم عقدهم محالفات سياسية مع ملوك قشتالة– عاملًا قويًا في إطالة أمد هذا الصراع، وترك مُحَمَّد الأول عام ١٢٧٢م ملكًا قويًا يستطيع الثبات أمام الأعداء، وكان تقلص الإسلام قد أدى إلى تركيز أهل الفنون بالأندلس في غرناطة، فوفد إليها أهل الحرف والصناع، وأقاموا فيها واستغلوا كل شبر من أراضيها، فنهض فن العمارة وأقام مُحَمَّد الأول قصبته الحمراء وبنى فيها برج الطليعة Torre de la vela وبرج التكريم Torre de Homenage كما أقام فيها بعض الأسوار القوية، وخلفه ابنه مُحَمَّد الثاني "١٢٧٢– ١٣٠٢" وكان سياسيًا حصيفًا استطاع أن يوطد سلطانه في البلاد، وكان لا يتردد في الاستنجاد ببني مرين كلما أحس بشبح الاسترداد يهم بمملكته، وتلاه مُحَمَّد الثالث، ومع أنه كان ضريرًا فقد كان نشيطًا عالما، مولعًا بالفنون والعمارة فبنى قصرًا بالحمراء، كما بنى المسجد الجامع بالقصر(١٨٨) ، وقد هدم في طليعة القرن السابع عشر ولم يبق منه سوى ثريا برنزية محفوظة بمتحف الآثار بمدريد.

على أن العصر الذهبي لدولة بني نصر يبدأ بعهد أبي الحجاج يوسف الأول، فقد كان حاميًا للآداب والفنون، فأقام أول نواة لقصر الأساطير بما فيه برج قمارش والبرج المعروف بقصر متشوكة والحمام الملكي وباب الشريعة وبرج الأسيرة ومصلى البرطل، وظل يوسف الأول يحكم سنين كلها رخاء، حتى قتل عام ١٣٥٤م وهو يؤدي الصلاة في جامع الحمراء، وخلفه ابنه مُحَمَّد الخامس الغني بالله الذي أكمل في الحمراء ما كان قد بدأه أبوه فيها، ودام عهده حتى

سنة ١٣٩١م ثم تولى الحكم بعده ملوك ضعاف، وتوالت الأحداث في العهد الأخير الذي سبق مباشرة سقوط غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس في أيدي النصارى، وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكة، وقامت الثورات تأييدًا لأحدهم على الآخر، وكانت آخر حلقة في سلسلة هذه الفتن ذلك الصراع بين الزغل وابن أخيه أبي عبد الله بن أبي الحسن الذي أدى إلى تسليم مدينة غرناطة في ٢ من يناير ١٤٩٢م.

ويشهد قصر الحمراء بغرناطة هذه الأحداث، وتروي قاعاته وأبراجه قصة هذا الصراع الأليم الذي انتهى بضياع الأندلس، وتعتبر حمراء غرناطة مقبرة الحضارة الإسلامية، ففيها وضع رجال الفن من مسلمي الأندلس خلاصة فنهم وعصارة ما وصلت إليه عبقريتهم، ومن أهم مزايا الفن الغرناطي أنه فن دنيوي على نقيض فن المرابطين، ولم يكن بناء بني نصر للمساجد إلا نتيجة للتوسع الاجتماعي الذي فرضته هجرة سكان المدن التي سقطت تباعًا في أيدي النصارى، وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التي تلهي المسلم عن صلاته وتجعل من هذه المساجد قصورًا خيالية تسبح في زخارفها وتنميقاتها الأبصار دون ملل أو كلل، بل إن هذه الزخارف كانت تغطي جدرانًا رقيقة ضعيفة، وتكسوها كما لو كانت أبسطة، وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية: هي رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور في التمتع بحاضره والشك في غده، وكذا كانت الأبنية التي زخرت بها غرناطة قصورًا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف في نطاق طبيعي لا مثيل لجماله. وكان المجال الذي يحيط بهذه القصور يتجاوب وهذا التمتع، ونجح عرفاء بني نصر في إحداث تأثير جمالي يصحب فن توزيع الحمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعي بالعمارة، فالحمراء تجلي لنا أروع أمثلة هذا الفن، بل هي تعتبر واحة خضراء في إقليم قاحل جاف تحرقه

الشمس، ولا تدع غابة الحمراء التي تحيط بالقصر السلطاني وكثافة الفروع- أي مجال لنفاذ أشعة الشمس، كما أن هذه النسمات المنعشة التي تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة والماء الذي ينساب بين الصخور، والطيور التي تغرد على الأشجار وبين الأغصان والأفنان- كل ذلك- يجعل من قصر الحمراء قصرًا أسطوريًا أو جنة الله في أرضه، ويحمل المرء على أن يحيا في عالم خيالي لا يفكر فيه إلا في القصور التي كانت تعيش فيها أميرات ساحرات، وهنا يبلغ الفن الغرناطي الذروة، فقد أعد كل ذلك إعدادًا دقيقًا لتخدير المشاعر عن إدراك الحقيقة التي لا سبيل إلى التغافل عنها، وهي انتهاء دولة الإسلام في الأندلس.

ويعتبر قصر الحمراء وقصر البرطل وجنة العريف أكمل مجموعة إسلامية للقصور الإسبانية، وأقدم آثار الحمراء حصن القصبة الذي ينسبونه إلى مؤسس الأسرة مُحَمَّد بن نصر المعروف بمحمد الأول (١٢٤٨- ١٢٧٢م) ، ويغلب على الظن أنه أقام هو وابنه مُحَمَّد (١٢٧٣- ١٣٠٢م) في قصر ما خارج القصبة، وكل ما بقي منه باب النبيذ (Puerta del vino) الذي ما يزال قائمًا في معزل عن بقية الأبنية الأخرى داخل سياج أحدث منه، وبنى مُحَمَّد الثالث بدوره (١٣٠٢- ١٣٠٩م) نحو الشرق بقليل مسجدًا سلطانيًا لا أثر له اليوم، إذ أمر فيليب الثاني بهدمه سنة ١٥٧٦م.

أعمال يوسف الأول: وينسب إلى يوسف الأول (١٣٣٤- ١٣٥٤م) وابنه مُحَمَّد الخامس (١٣٥٤- ١٩٣١م) بناء القصور السلطانية بالحمراء وهي التي أقيمت حول صحني الريحان والسباع، وما ينسب إلى يوسف الأول يشتمل على السور الحصين الذي يحيط بمرتفع الحمراء بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة الذي ينم نظام بنائه عن أصالة وعن فن إسلامي بحت لا دخل

للعناصر المسيحية فيه، وقد تم بناؤه في ١٣٤٨م وفقًا لما احتواه النقش الكتابي، وقد أطلق عليه باب العدل نسبة لصورة يد مفتوحة ومفتاح، ترمز الأولى إلى العدالة ويرمز المفتاح إلى مدخل قصور الحمراء، كما أطلق عليه اسم باب الشريعة نسبة إلى المصلى الذي كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات إلى الله أوقات الشدة والقحط والجفاف.

ومن أقدم قصور الحمراء التي ترجع إلى عهد يوسف الأول قصر البرطل(١٨٩) ويعنون به في الأندلس الظلة التي تقوم على بائكة هذا القصر بين برج السيدات (Las Damas) مصلى صغير، وتتألف ظلة هذا القصر من خمسة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعًا، ويطل هذا البرطل على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط- بالمياه، وراء هذا البرطل وفي ركن منه قاعة مربعة تشبه البرج يمكن الارتقاء منها إلى طبقة أعلى عن طريق درج إلى اليسار، ويغطي الجدران التي تعلو عقود البائكة شبكات من زخرفة المعينات، ويحيط بالجدران إزار من الزليج تتعدد فيه الرسوم الهندسية الملونة، وتقوم عقود البائكة على أربعة أرجل من الآجر.

وإلى يمين البرطل من شرقه وعلى درب السور أو ممشاه مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة، ويتناقض هذا البناء الصغير في بهاء عمارته ونوافذه المفتوحة على كلا الجانبين وبناء الأسوار والأبراج المجاورة له في حمرتها وعرائها من الزخرف، ويبلغ طول هذا المسجد ٤,١٦ من المتر وعرضه ٣ أمتار، وفي رأسه محراب يقابل الباب ويتجه نحو الجنوب الشرقي وتعلوه قبوة مقرنصة. ونستطيع أن نرجع بناء هذا المسجد من أسلوب زخارفه إلى عهد يوسف الأول.

ولا يبعد برج الأسيرة كثيرًا عن قصر البرطل، إذ يقوم على مرتفع يعلو الحفير الفاصل بين الحمراء وجنة العريف، ويضم هذا البرج قصيراً يتألف من قاعة أساسية تكتنفها شرفات ومخادع جانبية، ويتوسط البرج صحن داخلي صغير يحيط به من جهاته الأربع مجنبات، وزخرفة قاعات هذا البرج لا سيما تربيعاته الزليجية الملونة والزخرفة الجصية الرائعة التي ما زالت تحتفظ ببقايا ألوان وتذهيب، تجعل هذا القصر من أجل ما شيده يوسف الأول.

وبرج الشرفات أو الأسنة بين مصلى البرطل وبرج الأسيرة، وقد سمي كذلك نسبة إلى شرفاته المدببة وميازيبه البارزة على أحد جوانبه، ويناقض هذا البرج الأبراج الإسلامية الأخرى، إذ من اليسير ملاحظة أثر العمارة المسيحية في بنائه، ويغلب على الظن أن أسيراً مسيحياً ساهم في بنائه، والقبوة التي تعلو قاعة الطبقة الأولى منه تقوم على تقاطع العقود القوطية، وفي أسفل البرج تنفتح بوابة صغيرة، وهنا تجلي منظر من الشعر الحزين ذلك هو أحدور الملك الصغير (Cuesta del rey chico).

وإلى يسار برج السيدات برج مخدع الملكة (de la Reina) ويضم هذا البرج– شأنه في ذلك شأن برج الأسيرة– قصرًا صغيرًا لطيفًا يرجع إلى يوسف الأول، ويتصل هذا البرج بقصر الريحان وبرج قمارش، وقد تغيرت الأجزاء العليا منه في القرن السادس عشر، وازدانت بروائع من فن التصوير الإيطالي، وقد أعيد إلى هذه القاعة مظهرها القديم.

قصر بهو الريحان: ويتألف قصر الحمراء من ثلاث مجموعات: اثنتان منهما ترجعان إلى عصر يوسف الأول، والثالثة ترجع إلى عصر مُحَمَّد الخامس، وقد ضاعت معالم المجموعة الأولى التي كانت تشتمل على مجموعة من الأبنية لم يبق

منها سوى أسسها، ويجاورها صحن في جهته الشمالية مجنبة تتقدم برجًا يعرف اليوم باسم برج متشوكة، وهو مهندس شارلكان، وإلى جانبه كان قصر العدل أو المشوار، وفيه كانت تجرى الأحكام.

وتضم المجموعة الثانية– وترجع أيضًا إلى عهد يوسف الأول– قصر السلطان ومقر الحكم. ويعتبر هذا القصر أروع ما شيده السلطان يوسف الأول، ويتوسط هذا القصر بهو الريحان، وفي جهته الشمالية برج قمارش الذي يشتمل في داخله على قاعة السفراء، ومن قمريات هذه القاعة ومنظراتها يمكن إمتاع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الساحرة، وتنتقل العين في نهر حدرة الذي تندفع مياهه أدنى البرج إلى حي البيازين في المرتفع الآخر المقابل للحمراء.

وزخارف هذا العصر يعجز عنها الوصف، وتتألف من زخرفة جصية ملونة هندسية ونباتية وكتابية، ويعلوه سقف خشبي تكسوه زخرفة هندسية، ويسبق قاعة السفراء رواق مستطيل يعرف باسم "رواق البركة Barca" ويعزون ذلك إلى قبوته التي تشبه الزورق كما يعزون آخرون إلى كلمة البركة العربية، ويطل على بهو الريحان بائكة مؤلفة من سبعة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعًا، وهو أروع مثال للصحن الأندلسي، إذ تشغل وسطه بركة كبيرة مستطيلة الشكل تحف بها أشجار الريحان، ومن هنا سمي أيضًا باسم بهو البركة، ويقابل هذه الواجهة جنوبًا واجهة أخرى مماثلة في المحور نفسه، ويتألف هذا الجانب الجنوبي من طبقتين.

وإلى شرقي مجلس قمارش وبهو الريحان الحمامات السلطانية وهي من أقدم أبنية القصر. وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الأبنية، وترجع إلى عهد يوسف الأول الذي سجل اسمه في نقش كتابي، ويسبق الحمامات إلى الشمال قاعة يطلق عليها اسم قاعة الأسرة، وقد أجريت عليها إصلاحات عدة في

القرن السادس عشر غيرت كثيرًا من معالمها القديمة، ويسقف القاعة الأساسية في الحمامات قبة تخترقها مناور أو مضاوي وهي أشكال نجمية لإنفاذ الضوء، وتكسو الجزء الأدنى من الجدران تربيعات رائعة من الزليج، وتحمل العقود المتجاوزة المنكسرة أعمدة صغيرة رشيقة.

أعمال محمد الخامس:

ذكرنا فيما سبق أن مُحَمَّداً الخامس أتم وأصلح أبنية أبيه، مثل ذلك قصر الريحان ورواق البركة على وجه خاص، إذ إن زخارفه تختلف تماماً عن زخارف قاعة السفراء، كما أنه زود قصر أبيه بمدخل رائع يطل على صحن المشوار ويتصل به أسطوان على شكل المرفق يفضي إلى صحن الريحان. وتشبه واجهة هذا المدخل واجهة القصر بإشبيلية الذي أسسه في العصر نفسه بدرو القاسي ملك قشتالة.

وقد توج مُحَمَّد الخامس أعماله المعمارية بتشييده المجموعة الثالثة في قصور الحمراء، وهي مجموعة قصر السباع، والمحور الأساسي لهذا القصر الجديد يتعامد هو ومحور بهو الريحان، ونظامه جديد في تاريخ العمارة الغرناطية في القرن الرابع عشر، إذ إنه بدلًا من القاعتين اللتين تقعان في الطرفين القصيرين للمستطيل في بهو قصر جنة العريف وبهو الريحان، أحاط بالصحن المركزي المعروف ببهو السباع في واجهاته الأربعة– أربع بوائك ، ويتوسط الصحن فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء: النافورة، والحوض الأعلى ببيلته، ثم الأدنى من الفوارة استدار تحتها اثنا عشر أسداً تمج الماء من أفواههم، ويدور بالحوض طراز كتابي في مدح مُحَمَّد الخامس، وتدور بالصحن أربع بوائك تقوم على عمدها الرفيعة الرشيقة عقود نصف أسطوانية مطولة تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية، ونقرأ في

جدران هذا القصر نقوشاً عربية منها: "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله" كما تزخر الجدران بأشعار ابن زمرك في مدح هذا السلطان.

وصحن السباع على شكل مستطيل طوله ٢٨,٥ متراً وعرضه ١٥,٧٠ متراً، ونظام هذا الصحن يماثل نظام صحن قصير منقوط بمرسية، إذ على جانبيه القصرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة، ويتقاطع محورا الصحن وقد اتخذا شكل قناتين للمياه بحيث يؤلفان شكلًا صليبياً. ويذكر الأستاذ لامبير أن الشكل العام لصحن السباع بما يحيط به من بوائك في جهاته الأربعة يبدو متأثراً بنظام أبهاء الأديرة المسيحية [١٩٠] وإن كنا نعتقد اعتقاداً جازماً أنه متأثر بنظام أبهاء المساجد أو الأربطة.

وخلف الجوسق الغربي قاعة فسيحة تغيرت معالمها الإسلامية، في حين أن خلف الجوسق الشرقي قاعة الملوك أو قاعة العدل[١٩١] ، وتزخر بالعقود المتعارضة التي تحشد في بواطنها المقرنصات الدقيقة. أما القاعتان الجانبيتان للصحن شمالًا وجنوباً فهما من أروع ما جاد به فن العمارة الإسلامية في الأندلس، فالقاعة الجنوبية وتعرف بقاعة بني سراج تتوسطها بيلة من الرخام بها آثار بقع حمراء يقال: أنها من دماء بني سراج بعد أن قضى عليهم ملوك بني نصر، وتعلو القاعة قبة رائعة الجمال من المقرنصات الدقيقة نجمية الشكل، أما القاعة الشمالية المقابلة لها فاسمها قاعة الأختين نسبة إلى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين في الشكل كانتا تكسوان الأرضية، وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة التي تشبه خلايا النحل، وتؤدي هذه القاعة إلى شرفة تطل على حي البيازين، وجميع جدران هذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة تتخللها كتابات كوفية نسخية وأدعية للسلطان، والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج والفسيفساء.

وقصر السباع يضم أكثر من تأثير للفن المسيحي، ويمكننا أن نفسر هذه الظاهرة بالعلاقات الودية التي أخذت تزدهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر بين غرناطة من جهة وإشبيلية وطليطلة من جهة أخرى، بين مُحَمَّد الخامس وبدرو القاسي، وقد نتج من ذلك حوادث تبادل فني بين عاصمتيهما، ومن هنا نشأت صلات غربية الشأن بين الفن الإسلامي بغرناطة والفن المدجن بإشبيلية وطليطلة، أو بينه وبين الفن القوطي المسيحي على نقيض ما حدث بين غرناطة وشمالي إفريقية في القرن الرابع عشر، ومن مظاهر هذا التأثير المسيحي تعقد الزخرفة والغلو في حشدها، كما أننا نلمح فيها ظهور عناصر جديدة أكثر، يقال عنها: أنها طبيعية، وتتجمع هذه العناصر عادة في أكاليل على النحو الذي اتبعته الزخارف المدجنة المعاصرة، وتمتزج بهذه الزخارف رنوك على مثال الرنوك التي تزين الأبنية المسيحية.

قصر جنة العريف:

ونختم حديثنا عن القصور بذكر قصر جنة العريف، فبخلاف قصور الحمراء ترتفع عدة تلال بحيث تشرف على وديان نهر حدرة ونهر شنيل، وتستقي هذه التلال من مياه نهر حدرة عن طريق القنوات والحنايا والنواعير والأنابيب الماصة التي تخترق الوديان، وبذلك أمكن إنشاء جنات فيحاء تحيط بدور اللهو التي كان يشيدها أمراء المسلمين وقد زالت كل هذه الجنان حين كفت المياه عن الوصول إلى تلك الدور، إلا في جزء أقل ارتفاعاً، ولكنه أكثر خصبًا هو جنة العريف.

وقد تبارى الكتاب إبان القرن السادس عشر في وصف ومدح هذه الجنان التي نضب ماؤها في وقتنا هذا، وإن كانت تزودنا مع ذلك بصورة شاحبة لمجدها الغابر الدارس وعيونها الرائعة وأشجارها وغاباتها التي تظلل قصورها.

والبناء الأساسي في مجموعة أبنية جنة العريف يتألف من صحن شديد الاستطالة تقوم في طرفيه أبنية، وفي وسطه قناة تنحدر فيها المياه، وتنتصب في الجهة الجنوبية مجموعة من العقود المتصلة، ونظام البناء يماثل نظام القصر السلطاني في مجموعه وإن كان يسبقه تاريخيًا، إذ إنه يحتوي على نقش كتابي فيه ذكر للسلطان إسماعيل الذي جدد القصر عام ١٣١٢م.

وقد أقام سلاطين غرناطة في هذا القصر وما يجاوره من القصور المرتفعة رغبة في التمتع بالهدوء والاتصال الوثيق بالطبيعة، وكل شيء في جنة العريف بسيط في مظهره قوي في تأثيره على النفس، ولا دخل لليد البشرية في تعديل ذلك، إذ ترك للطبيعة كل شيء، كما أنه كان من شأن زخارف هذا القصر وتوزيع منظراته ونوافذه وإحاطة نطاق طبيعي رائع به– ما يهيئ للمرء أن يحس بالراحة وأن يتمتع بكل ما يحيط به.

ويبدو لنا مما سبق عرضه أن من الظلم أن نتهم عرفاء بني نصر بأنهم أهملوا فن العمارة وأقبلوا على الزخرفة، وأنهم كانوا مزخرفين منمقين ولم يكونوا مهندسين معماريين، فإن النظام الرائع بقصر الريحان وقصر السباع والتناسق التام بين أجزائهما المختلفة– تبين أن فناني السلطان محمد الخامس على الأقل أحرزوا درجة عالية في فن العمارة، والجمع بين توزيع الفراغ والكتل، كما وفقوا في الجمع بين العمارة والطبيعة، وكلها مقومات هامة لا بد أن تتوافر في فن العمارة والبناء.

وإذا كانوا قد وجهوا النقد على ضعف البناء فيكفي ردًا على هذا النقد أن قصر الحمراء مازال قائمًا في صورته الأصلية دون أن تتصدع جدرانه أو تنهار قاعاته، ويكفي دلالة على المظاهر المعمارية لقصور الحمراء "مظاهرة الحمراء" التي حدثت في ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٢م حين اجتمع وفد مؤلف من ٢٤ مهندسًا معماريًا في قصر الحمراء للتفكير في وضع أسس لعمارة قومية جديدة، وكل ما يمكننا أن نستخلصه من قرارهم أن "قصر الحمراء مستودع رائع للعمارة الإسبانية".

الهوامش

(١) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق من ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧، ص ١٩.

(2) Juan Mata de carriazo, las Murallas de sevilla, en "Archivo Hispaliense" No 48- 49, p. 21, 22.

(٣) أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق لافونتي القنطرة، مدريد ١٨٦٧ ، ص ١٦.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفسه، ويذكر ابن الأثير أنها "من أعظم مدائن الأندلس بيانًا وأعزها أثارا"، الكامل في التاريخ، طبعة صادر بيروت ١٩٦٥م ج ٤ ، ص ١٤.

(٦) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة م١٩٤، ج ٤، ص ١٣.

(٧) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٤٨م، ص ٢٤٩.

(٨) نفس المصدر، ص ٢٥٤.

(٩) نفسه، ص ٣٢٩.

(١٠) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢ ، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٤٠ ويذكر ياقوت أنها حصن باليمن ياقوت، معجم البلدان، مادة مقراية .

Collantes de Teran, La Torre y la puerta de Macarena, en Archivo Hispaliense, No 43- 44, Seirlla, 1950, p. 202.

(١١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، نشره ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٤٨، وطبعه ١٩٦٢م، ص ٢٤٩.

(١٢) نفس المصدر، ص ٤٢١.

(١٣) نفس المصدر ص ٤٢٣.

(١٤) نفسه ص ٤٦٠.

(١٥) ابن حيان، قطعة من المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، نشرها الأب ملشور أنطونية، باريس ١٩٣٧م، ص ٧٤، وراجع كذلك.

Levi- Provencal.

J'Espagne musulnane an xe siecle, Paris 1932, p. 19, Histoire de l'Espafegne in usnlmane, t. III, Paris, 1953, p. 18.

(١٦) طالع النقش التذكاري لإنشاء هذا الجامع في: M Ocanan Jeimenez وقارت

Inscripcion fundacional de la mezquita de Ibn Adabbas de Sevilla, al-Andalus, vol. XII, 1947, fasc. I, pp; 145- 151, Levi-provencal, Ins-criptions arabes d'Espagne, 2 Vols, Paris 1931.

وقد توصل الأستاذ أوكانيا خمينث إلى قراءة النقش قراءة صحيحة على النحو التالي: "يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل الـ هندي الآمر ببنيان هذا المسجد على يدي مر بن عدبس قاضي إشبيلية في سنة أربعة عشرة ومائتين وكتب عبد البر بن هارون"، وهذه القراءة أصح من قراءة كل من أمادور دي لوس ريوس في ١٨٧٥، ١٩١١، وليفي بروفنسال في سنة ١٩٣١، ولكني أرجح أن اسم القاضي هو عمر بن عدبس بدلًا من عمر بن عدبس الشائع ذكره في الروايات العربية، واسم عدبن أكثر شيوعًا بين الأسماء العربية من عدبس. ومن الجدير بالملاحظة أن النقش التذكاري يخلو من النقط وحروفه من الطابع الكلاسيكي البدائي الذي يذكرنا بالكتابات الكوفية القديمة، الأمر الذي

يدعونا إلى قراءة الاسم هكذا حدد ابن حيان مدة حكم إبراهيم بن حجاج المقتبس، تحقيق منشور، ص ٨٥ في حين يخطئ ابن عذاري في تحديدها فيجعلها قبل ٢٨٨هـ ويجعل ولاية أبيه عبد الرحمن من ٢٨٨ إلى ٣٠١هـ ٢ ص ١٢٩ بينما يذكر في ص ١٤٨ اسم إبراهيم بن حجاج بين وفيات عام ٢٩٨.

(١٧) السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت.

(١٨) ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد ١٨٦٨م، ص ٦٥، وذكر ابن القوطية أن الوزراء أشاروا عليه ببنيان سور إشبيلية فوجه لذلك عبد الله بن سنان رجل من الموالي الشاميين، وكان قريب الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم وهو ولد ثم استقدمه وهو خليفة، ثم حج البيت فقدم من الحج ووافق هذه الحركة فأخرج لبنيان السور بإشبيلية واسمه على أبوابها. "ويذكر الحميري أن سور إشبيلية من بناء الإمام عبد الرحمن بن الحكم، بناه بعد غلبة المجبوس عليها بالحجر وأحكم بناءها" الحميري، ص ٢٠ ، كذلك أشار معاوية بن هشام القرشي الشبنيسي إلى هذا السور الذي أمر عبد الرحمن الأوسط ببنائه بناء على توجيه من عبد الملك بن جيب" ارجع إلى الملحق في كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، بيروت ١٩٦٥م، ص ٢٤٤ .

(١٩) ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت ١٩٥٦م، ص ٢٤.

(٢٠) يذكر ابن الخطيب أنه كان يضاهي الملوك، وأن حاله حال الملوك مصافًا وإنعامًا المصدر السابق ص ٣٥ .

(٢١) ابن الآبار، الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٣م، ج ٢ ، ص ٣٧٦- ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦.

(٢٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢ ، طبعة ليفي بروفنسال وكولان، ص ١٢٧.

(٢٣) ابن الآبار، المصدر السابق ص ٣٧٦- ابن عذاري، المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٧.

(٢٤) نفس المصدر، ص ٣٧٧- ابن عذاري، المصدر السابق، ص ١١٨.

(٢٥) ابن حيان، المقتبس، نشر أنطونية ص ١٣١، ابن عذاري، نفس المصدر، ص ١٢٨.

(٢٦) ابن عذاري، نفس المصدر، ص ١٢٨، المقري، نفح الطيب ج ٤ ، ص ١٣٧.

(٢٧) المقري، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٢٨) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ٢٠، ٢١ وقارن ذلك بابن حيان، المقتبس الجزء الخامس، نشره شالميتا، مدريد ١٩٧٩م، ص ٨٠، وابن عذاري، المصدر السابق ج ٢ ، ص ١٦٤.

(٢٩) ابن عذاري، ج ٢ ، ص ١٦٤.

(٣٠) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١١٦، وراجعه السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ١، بيروت ١٩٧١م، ص ١.

(٣١) ياقوت، معجم البلدان، مادة إشبيلية.

(٣٢) الحلل الموشية، تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء ١٩٧٩م، ص ٩١ – ٩٧، وراجع ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ، ص ٣١٩.

(٣٣) عن النشاط المعماري للموحدين في إشبيلية، راجع عبد الملك بن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت ١٩٦٤- ابن عذاري، البيان المعرب، القسم الثالث، تحقيق أمبروسيد أويثي ميراندا ومحمد بن تاويت، أنطوان ١٩٦٣- ابن أبي زرع، كتاب الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الجزء الثاني طبعة تورنبرج أو بسالة ١٨٤٣،

Henri Terrasse, L'art Hispano maures eue, Paris, Paris 1932.
Henri Terrase, Sanctuaires et Forteresses alu ohades, Paris 1932.
L. Torres "Balbas, Ars Hispaniae, Vol. IV, Madrid.

(٣٤) السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس.

مجموعة اقرأ ١٩٥٨- السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢: المغرب الإسلامي، الإسكندرية ١٩٦٦.

(٣٥)المقري، نفح الطيب، ج ١ ص ٩٣.

(٣٦) الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن ١٩٦٨م، ص ١٧٨.

(٣٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة إشبيلية.

(٣٨) المقري، نفح الطيب، ج ١ ، ص ١٢١.

(٣٩) نفس المصدر، ج ٤، ص٢٠٠.

(٤٠) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، قسم ٢ مجلد ١، بيروت ١٩٧٨م، ص ١١.

(41) Italia Sacra, to III, A pud. Repartimiento de Seirlla, estudies y edicion preparada por Juslis gonzalez, t. I,- Madrid 1951- p.

(42) Pablo de Espinosa de los Monteros, Antiguedades y grandeza de Sevilla, p. 22.

(43) Zuniga Diego Ortiz de : Anales Eclesiasticas y seculars, t. I, Hadrid 1796, p. 131.

(٤٤) العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مدريد ١٩٦٥ ص ٥.

(٤٥) ابن غالبة الأندلس، قطعة من كتاب فرحة الأنفس نشرها الدكتور لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٣.

(٤٦) المقري، نفح الطيب، ج ١ ص ١٥١ وفي هذا النص يذكر أنها "من أحسن مدن الدنيا".

(٤٧) يسمي ابن مفلح إشبيلية "عروس بلاد الأندلس لأن تاجها الشرف وفي عنقها سمط النهر الأعظم". المقري، ج ١ ص ١٩٣.

(48) Gestoso, Sevilla mounmentaly artistica, t. I, pp. 15, 16.

(49) Caro Todrigo : Antiguedades y principado de la ilustrisima ciudad de seirlla, Seirlla, 1934.

(50) Cronica General de Espana, Alfonson X, ed. Menendez Pidal, pp. 768- 769.

(٥١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١١.

(٥٢)ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٤.

(٥٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق أنطونية ملشور، ص ٧٧، وراجع التفاصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

(٥٤) نفس المصدر، ص ٧٧.

(٥٥) نفس المصدر، ص ٧٥.

(٥٦) نفس المصدر، ص ٧٩.

(٥٧) ابن حيان، المقتبس، الجزء الخامس، تحقيق بدرو شالميتا، مدريد ١٩٧٩م، ص ٧٩ ، واسم الأخيضر يطلق أيضًا على قصر أو حصن أقيم في العصر العباسي الأول ويرجع تاريل ببيانه إلى منتصف القرن الثاني للهجرة علي مُحَمَّد مهدش، الأخيضر، بغداد ١٩٦٩م ، ص ٧١ . ومن المعروف أن أمراء بني أمية أطلقوا على مجالس قصورهم أسماء قصور عباسية أقيمت في العراق من ذلك قصر التاج الذي ورد ذكره في جملة مجالس قصر الإمارة بقرطبة ويذكرنا بقصر التاج العباسي الذي أقامه الخليفة المعتضد في بغداد، وكذلك قصر المعشوق بقرطبة، يذكرنا بنظيره في سامراء وكذلك قصر البديع وقصر المختار بقرطبة وهما اسمان لقصرين من قصور العباسيين في سامراء راجع السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ١ ، ص ١٩١ وواضح أن استخدام الأمويين لأسماء قصور عباسية إنما يعكس التأثيرات العراقية في البناء الحضاري الأندلسي.

(٥٨) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٠٢.

(٥٩) ابن عذاري، ج ٢ ، ص ١٣٠.

(٦٠) نفس المصدر، ص ١٦٣.

(٦١) ابن حيان، المقتبس، الجزء الخامس ص ٧٩، ويؤيد الحميري في الروض المعطار هذا التاريخ ، ص ٢٠.

(٦٢) نفس المصدر، ص ٨٠، ٨١.

(٦٣) في ذلك يقول ابن عذاري: "خرج محمَّد بن حجاج من قرموية بجيشه، فوصل إشبيلية عند الصباح، فهجم عليها وكان بعض سورها مهدمًا، فطمع فيها، فخرج إليه العامل عليها من قبل السلطان فهزمه عنها، فرجع إلى قرمونة" ابن عذاري، ج ٢ ، ص ١٣٠، ١٣١ ومع ذلك ففي موضع آخر يذكر ابن عذاري أن الحاجب بدر هدم أسوارها ص ١٦٤ .

(٦٤) ابن حيان، المصدر السابق ، ص ٨٠.

(٦٥) نفسه ، ص ٨٢.

(٦٦) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي، بيروت ١٩٦٨م، ص ١١٤.

(٦٧) ابن حيان، المقتبس، الجزء الخامس، نشر شالميتا، ص ٩٨.

(٦٨) نفس المصدر، ص ٢١٤.

(69) Jose Guerrero Lovillo, al- Qasr al- Mubarak, Sevilla, 1974, p. 99.

(70) José Querrero Lovillo, op. cit, p. 90.

(٧١) كانت الحوانيت السياحية تتوزع على جانبي الشارع الضيق المواجه للسور الغربي من بهود البنود ويسمى حاليًا شارع دون خواكين روميرو ميروبي، بحيث تحجب رؤية تفاصيل السر المذكور، إلى أن أمر العالم الأثري الإشبيلي الصديق المرحوم دون عواكين روميرو ميروبي مدير قصر إشبيلية منذ ما يقرب من ٢٥ عامًا بإزالة هذه الحوانيت المساندة للسور، فتكشف بذلك بنيان السور المذكور، وأمكن مشاهدة هذا الباب المسدود، وللأسف لم يقدم أي باحث أثري منذ ذلك الحين على دراسة هذا الكشف الهام ولقد تنبهت منذ سنوات مضت وبالذات منذ سنة ٩٧٥- عندما زرت إشبيلية لإلقاء سلسلة من المحاضرات في جامعتها بدعوة منها- إلى أهمية هذا الكشف، وعزمت آنذاك على الكتابة عنه، وواتتني الفرصة في سنة ١٩٧٨ وحتى ١٩٨٠م لذلك عندما انتدبت مديرًا للمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد مستشارًا ثقافيًا للسفارة المصرية فعاودت الزيارة عدة مرات، وكتبت في ١٩٧٩م بحثًا عن تحقيق أسماء قصور بني عاد بإشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون،

بمجلة أوراق التي يصدرها المعهد الإسباني العربي للثقافة، العدد الثاني، سجلت فيه إشارة إلى هذا الاكتشاف ص ٣٢- ٣٤ .

(٧٢) العذاري، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٧٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣ ، عصر الطوائف، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس ١٩٣٠م، ص ١٣٤، ١٩٦.

(٧٤) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم ١، مجلد ٢، القاهرة ١٩٤٢م، ص ١٧.

(٧٥) وجده عطاف نعيم دخل بالأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري، واستقر مع بنية في قرية يومين من إقليم طشانة من أرض إشبيلية ابن الآبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٣٥ .

(٧٦) ابن عذاري، ج ٣ ، ص ٣١٥. وذكر ابن عذاري في موضع آخر أنهم كانوا جماعة منهم بنو أبي بكر الزبيدي النحوي، وبنو مريم، وبنو العربي وغيرهم من نظرائهم.

(٧٧) نفسه، ص ١٩٦- ابن الآبار، الحلة السيراء ، ص ٣٧.

(٧٨) استولى على أمور طليطلة عند قيام الفتنة فعمر من رؤسائها منهم ابن مسرة ومحمد بن يعيش المذكور وسعيد بن شنظير ويعيش بن محمد بن يعيش الذي انفرد في نهاية الأمر بالسلطان. راجع الحلة السيراء لابن الآبار، ج ٢ ، ص ٣٧ ، هامش ٥ للدكتور حسين مؤنس .

(٧٩) ابن عذاري، ج ٣ ، ص ١٩١.

(٨٠) ابن عذاري، ج ٣ ، ص ٣١٥ ، ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس ،ج ٥ ، ص ٢٢.

(٨١) نفس المصدر، ص ١٩٩، ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام، طبعة بيروت، ص ١٥٤.

(٨٢) نفس المصدر، ص ٣١٥.

(٨٣) كان المعتضد بالله عباد رغم استبداده وسطوته وكثرة جرائمه السياسية التي سجلها عهده "لم يصبر عن الهمم العلية والرتب الملوكية، فابتنى القصور السامية، واعتمر العمارات المغلة، واقتنى الأعلام النفسية" ابن عذاري، ج ٣ ص ٢٠٥– ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٨٤) وفي قصر المعتضد هذا دفنه ابنه المعتمد في نفس تربة جده القاضي محمد بن إسماعيل ابن الآبار، الحلة السيراء، ج ٢ ، ص ٥٣ ونستنتج من ذلك أن هذا القصر كان يضم روضة أو مقبرة لأصحاب القصر والهمم، على نحو ما كان معروفًا في قصر الخلافة بقرطبة، وروضة الحمراء بغرناطة.

(٨٥) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ٩٩.

(٨٦) ابن عذاري، ج ٣ ، ص ٢٤٤.

(٨٧) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، القاهرة ١٣٢٠هـ. ص ٥.

(٨٨) يعتقد الأستاذ دون خوسي جيريرو لوبيو في بحثه القيم عن القصر المبارك أن صفة المكرم وهي نفسه صفة جامع قرطبة الذي سمي بالمكرم أطلقت على قصر آخر غير قصر المبارك ولكنه أحدث منه عهدًا، كما يعتقد أن هذا القصر كان يشغل الموقع الذي تشغله اليوم شوارع أمبارو، وفيريا وأبو سنتادرويس، وريخينا، وخيروينمو ارناندث المسمى قديمًا بشارع العربي، شارع سورا نخيلا دي لاكروش المسمى قديمًا بشارع القصور وتتوسطها جميعًا الكنيسة المعروفة اليوم بسان خوان دي لا بالما، ويستند الأستاذ لوبيد في هذا الرأي على الأسماء القديمة لبعض هذه الشوارع ويشير بعضها إلى وجود قصور، كما يستند على أن هذا القصر من الأبنية والشوارع كان يتلقى مياهه من الأنبوب المكسور، ومن البئر المقدمة، وهما نبعان يقعان في هذه الجهة ظل حتى بداية العهد المسيحي يقومان بوظيفتهما، ومما يعزز رأيه أن تم الكشف في هذا القطاع نفسه عن عدد من الآثار أو شارع ليستا رقم ٩ عثر في نهاية القرن الماضي على حوض للمياه رائع كان ينتصب في إحدى مجالس الزاهرة، ثم أعيد استخدامه في إحدى قاعات القصر العبادي الذي يفترض أن يكون موقعه في ذلك الموضع كما عثر بعد ذلك في النواحي القريبة على لوحة تذكارية مثبتة بأحد الجدران

الخارجية لكنيسة سان خوان دي لا بالما محفوظة اليوم بالمتحف الأهلي للآثار في إشبيلية نقشت فيها بخط كوفي رائع كتابة تشير إلى إنشاء مسجد بأمر السيدة زوج المعتمد بن عباد، وكان يقع بالقرب من هذه الكنيسة في الشارع المعروف اليوم باسم أبو سنتا درويش، حمام كبير مزود بعدة قاعات فسيحة كان ما يزال يقوم بوظيفته حتى القرن السادس عشر، ويرى الأستاذ لوبيو أن العثور على هذه الآثار في منطقة محددة تحديدًا دقيقًا مع نقش يتضمن اسم أحد أفراد أسرة المعتمد، يحملنا على الظن بأن هذه الآثار على علاقة وثيقة بقصر عبادي كبير انظر:

Nerrero Lovillo, al- Qasr al- Mubarak, p. 96 .

غير أن الأدلة التي يستند عليها الصديق العالم الأثري دون خوسي جيريرو لوبيو ليست من القوة بحيث يمكن الاعتماد عليها لتأكيد وقوع قصر عبادي بهذه المنطقة، فالنقش الذي يشير إلى بناء المسجد في هذه المنطقة لا يعني بأي حال أن مسجد السيد كان قائمًا داخل إشبيلية زمن الموحدين أبو عبد الله مُحَّد بن مُحَّد بن عبد الملك الأنصاري كتاب الذيل والتكملة، تحقيق الدكتور مُحَّد بن شريفة، سفرا، قسم ١، بيروت ،ص ٢٨ . وقد ثبت أن هذه السيدة هي أم المعتضد عباد أبو عبد الله بن مُحَّد بن عبد الملك الأنصاري، نفس المصدر، السفرة، قسم ٢ ،تحقيق الدكتور إحسان عباس، ص ٥٣٩ وأنها أكملت مسجدها المنتسب إليها في إمارة ابنها المعتضد، وأن أحد العلماء واش فرج بن حديدة البطليوس تولى الإقراء في هذا المسجد إلى أن توفي في ١٣ المحرم سنة ٤٨٠هـ فإنه لا يتعلق إذن بموقع قصر وإنما بموقع مسجد ينسب إلى شخصية ما شأنه شأن مئات المساجد التي كانت تزخر بها إشبيلية في عصر ولا يعرف أن مؤسس المعتمد قصرًا في هذه المنطقة المكتظة بالسكان، وكل ما في الأمر أن عمل السيدة زوج المعتمد لا يعدو عملًا من أعمال البر في منطقة شعبية من مناطق إشبيلية، وكثيرًا ما قامت نساء أمراء بني أمية وجارياتهم بأعمال مماثلة في قرطبة مثل مسجد شفاء ومسجد مدثر ومسج طروب ومسجد أم سلمة ومسجد متعة ومسجد عجب، دون أن يكون لمواقع هذه المساجد أي علاقة بقيام قصور أو منشآت أميرية، أما اكتشاف حوض المياه من المدينة الزاهرة فلا يشكل شذوذ أو يعبر عن غرابة، فقد كان شائعًا في عصر بني عباد. بل وفي عهد الموحدين إعادة استخدام مواد بنائية وتماثيل من أبنية قديمة، بدليل أن صومعة جامع إشبيلية تضم عددًا كبيرًا من تيجان أعمدة قرطبية،

وكذلك يضم بهو الجص بل قاعة السفراء نفسها التي يرجع تاريخ بنائها إلى عهد الملك القشتالي دون بدور الأول، والقاعة التي تعلوها في قصر إشبيلية عددًا منها، فالمعروف أن ابن باشه والوزير ابن السقاء استغلا أطلال الزهراء استغلالًا فاحشًا ومنظمًا، فاستأصلاها بالهدم والتخريب لبيع أنقاضها من رخام وحجر وقراميد ومرمر وبلور وخشب ورصاص القنوات ونحاس الأبواب ابن بسام، الذخيرة، قسم ١، مجلد ٢ ، ص ٨٢ وبدأ الهدم الفعلي لقصور الزهراء والزاهرة في أيام أبي الوليد مُحَمَّد بن جهور، "وكان رسل الأملاك يقصد رسل ملوك الطوائف تأتي لشراء تلك الآلات بأغلى الأثمان ابن بسام، الذخيرة، قسم ١ ،مجلد ٢ ،ص ١١١ وقد زار أبو يوسف يعقوب المنصور أطلال الزهراء في سنة ٥٨٦ للتأمل في آثار العهود الأموية البائدة، وأمر بنزع تمثال الزهراء فأزيل واقتلع من آثارها ما بقي من أعمدة أعيد استخدامها في مئذنة جامع إشبيلية بل نقل بعضها إلى غرناطة ومراكش.

وهكذا لا ينهض الحوض الأموي في هذه المنطقة دليلًا على وجود قصر عبادي كبير فيها، كما أن وجود حمام كبير في المنطقة لا يعني وجود قصر، فما أكثر الحمامات التي أقيمت في إشبيلية في العصر الإسلامي، وقد اكتشفت حماما يرجع تاريخه إلى عصر المرابطين داخل حانوت لشراب الفقاع والنبيذ يسمى "بار الخيرالدا" وسجلت عنه دراسة علمية صدرت في مجلة Archivo Hispalense بعنوان Al Sayyid Salem, Restos de un bano musuluman en sevilla, en Archivo Hispalense, ano 1916, No 80, Sevilla, pp. 173- 177

كما اكتشفت أخيرًا حمامًا إسلاميًا داخل مطعم في نفس الشارع المتعامد على صومعة جامع إشبيلية يعرف بالميسون El Meson بقيت منه بعض قبوات وعقود.

ومع ذلك فإني مقتنع تمامًا بأن وجود هذه الآثار جميعًا في منطقة واحدة إنما يشير إلى أهمية المنطقة عمرانيًا، ولكن الأهمية العمرانية يمكن أن تقلل على أساس عمراني بحت، باعتبار أنها تمثل القلب من إشبيلية الإسلامية بعد أن تناهت في الاتساع زمن المرابطين والموحدين، وليس ضروريًا على الإطلاق أن يكون لهذه الأهمية ثمة علاقة بوجود قصر للمعتمد، فيكفي أن تشيد زوجة مسجدًا حتى يجتذب هذا المجد أفواجًا من السكان ويكون هذا المسجد مقدمة لعديد من الأبنية والدور.

(٨٩) ابن صاحب الصلاة، كتاب المن بالأمانة، ص ٣٥، ٤٦٤.

(٩٠) الفتح بن خفاقان، قلائد العقيان، طبعة مصر ١٣٢٠هـ، ص ٢٤- المقري ج ٦ ، ص ١٠ ، ومن المعروف أن ابن المبارك والثريا والوحيد والزاهي أسماء قصور بني عباد، أما النهر فالمقصود به نهر الوادي الكبير الذي تطل عليه هذه القصور وأما التاج فيقصد به مرتفعات الشرف المطلة على النهر، وقد جرت العادة في العصر الإسلامي أن يطلق عليه اسم التاج، فيقال تاج الشرف ابن عذاري، ج ٤ ، ص ١٥٣ وقد يكون التاج اسمًا لقبة المعدس وهو الأرجح، فقد ورد ذكره في شعره.

(٩١) ديوان ابن زيدون، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة ١٩٥٦م ، ص ١١٥.

(٩٢) نفس المرجع ، ص ١٥٦.

(٩٣) نفس المرجع، ص ١٥٨.

(٩٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق ، ص ١٨٥.

(٩٥) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢٢.

(٩٦) ابن بسام، الذخيرة، قسم ٤ مجلد ١ تحقيق د. إحسان عباس ، ص ٢٦٢.

(٩٧) نفس المصدر ، قسم ٢ مجلد ١ تحقيق د. إحسان عباس ، ص ٥٢١.

(٩٨) ابن بسام، الذخيرة، قسم ٢، مجلد ١ تحقيق د. إحسان عباس ، ص ٥١٨.

(٩٩) نفس المصدر، القسم الرابع، المجلد الأول تحقيق د. إحسان عباس ، ص ٣٣٤، ٣٣٥.

(١٠٠) يتمثل ذلك في قول ابن اللبانة:

بكـــت ثـــرياه لا غمـــت كواكبهـــا   بمثـل نـوء الثـريا الـرائح الغـادي

(١٠١) المراكش، المعجب، ص ١٢٥، ١٢٧.

(١٠٢) يشير ابن بسام إلى أن هذا الموضع الذي سجن فيه ابن عمار داخل القصر كان على مقربة منه ابن بسام، مجلد ١ ، قسم ٢ ، ص ٤٢٩ بحيث أتاه في سجنه وقتله فيه، ونستدل منه.

(١٠٣) ابن الآبار، الحلة السيراء، ص ١٦٠.

(١٠٤) ابن بسام، المصدر السابق، قسم ٢، مجلد ١، ص ٤٢٩، ٤٣٠.

(١٠٥) نفس المصدر، ص ٤٣٠، ونستدل من ذلك على أن أبنية جديدة استحدثت في زمن المرابط قريبًا من القصر المبارك.

(١٠٦) ابن الآبار، الحلة السيراء، ص ٥٣.

(١٠٧) ابن صاحب الصلاة، المن بالأمانة، ص ٢٩٨.

(١٠٨) الذيل والتكملة، السفر الأول قسم أول، ص ٢٢٢.

(١٠٩) ابن خاقان، قلائد العقيان، مصر ١٣٢٠هـ، ص ٢٤.

(١١٠) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢٥ ،وقد وصفه الأستاذ هنري بريس

Henri Pérès, La Poesie and alouse en arabe classique au XI siede, Paris, 1937, p. 139.

وكان مزود بأبراج مرتفعة والحقيقة أن الشاعر لا يذكر أبراجًا قط وإنما يشير إلى عظم ارتفاع القصر ويكتب عليه الأمر فينسب نزهات للمتعة إلى الزاهي بدلا من الزاهر مع أن: ابن خاقان يحدد الاسم بوضوح كما أنه يشير إلى موقعه على النهر بحيث يشرف على القصر ويكتنفه شجر الزيتون ويلتف به.

(١١١) ابن الآبار، الحلة السيراء، ج ٢ ، ص ٦٩– المقري، ج ٥ ، ص ١٤٦.

(112) Pérès, la Poesie and alouse, p. 137.

(113) Ibid, p. 136, No 3.

(114) Jose Gnerreés lovillo, op. cit, p. 91.

(١١٥) الفتح بن خاقان، المصدر السابق ، ص ٢٢.

(١١٦) المقري، نفح الطيب، ج ٥ ، ص ٣٧٩.

(١١٧) ابن بسام، المجلد الأول، القسم الثاني تحقيق د. إحسان عباس ، ص ٥٠٨، ٥٠٩.

(١١٨) نفس المصدر، ص ١٠٩، ٤٧٢.

(١١٩) ابن بسام، مجلد ١ قسم ٢، ص ٤٧٢، ٤٧٣.

(١٢٠) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢٤.

(١٢١) المقري، نفح الطيب، ج ٦ ، ص ١٢.

(١٢٢) ذكر الإدريسي أن الشرف سيمتد "مسافة أربعين ميلًا، ولهذه الأربعون ميلًا كلها تمشي في ظل شجر الزيتون والتين، أوله بمدينة إشبيلية وآخره بمدينة لبلة، وكله شجر الزيتون وأن سعته عشر أميال، أو أكثر، وفيه فيما يذكر ثمانية آلاف قرية عامرة آهلة بالحمامات والدار الحسنة" الإدريسي، المصدر السابق ، ص ١٧٨ وقد لخص الحميري هذا النص مع ذكر نفس الرقم الذي أورده الإدريسي عن عدد القرى بإقليم الشرف راجع: الحميري، ص ١٩ وذكر المقري نقلًا عن ابن مفلح أن الناس يتعاطون السرح من جانبي نهر إشبيلية عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة المقري، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(١٢٣) يذكر العذري أسماء بعض هذه الأبراج ومنها حصن شذفيلة وحصن شيت طريس Siete Torres الأبراج السبعة انظر العذري، المصدر السابق ص ١٠٢، ١٠٤ وحصن شذفيلة المذكور من بياء يحيى عبد الله عبد الملك بن هشام من البربر في زمن الأمير عبد الله الأموي العذري .

(١٢٤) ابن عذاري، ج ٤، ص ١٨٩ ، يؤكد ابن عذاري أنه كان موضع حصن الفرج من قبل حصن ينظر إشبيلية يسمى بهذا الاسم، ويضيف نقلًا عن صالح بن سيد: وفي سنة اثنين وسبعين وأربعمائة جدد المعتمد على الله حصن الفرج".

(125) 1 J. guerrero Lovillo, op. cit., p. 94 Julis gonzalez, Repartimiento

وراجع: de sevilla, t. 1, p. 495

(١٢٦) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ١٠.

(١٢٧) ابن الآبار، الحلة السيراء، ج ٢ ، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(128) 1 Torres Balb as, Aznalfarache, al- Andalus, Vol, XGV, p. 223.

ولكن ابن عذاري يذكر أن البرتغاليين خرجوا من جهة شنترين والاشبونة ووصلوا في غارتهم إلى قرية شلوقة Sanlucar من الشرق، وأغاروا على حصن القصر وغيره، دون أن يذكر اسم حصن الزاهر ص ١١٨ وفي نفس السنة يذكر ابن عذاري أن

العدو تغلب على حصن شنتغيلة وهو نفس حصن شذفيلة الذي سبق الإشارة إليه ص ١١٩ .

(١٢٩) ابن عذاري، القسم ٣ ، ص ١٨٩ .

(١٣٠) نفس المصدر، قسم ٣ ، ص ١٣٢، ١٩٣ .

(١٣١) المراكش، المعجب ، ص ٢٩٣ .

(١٣٢) ابن عذاري، ص ١٩٨ .

(١٣٣) نفس المصدر، ص ٢٠٤ .

(١٣٤) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص ٩ ، المقري، نفح الطيب، ج ٦ ، ص ١٤ .

(١٣٥) ابن صاحب الصلاة، المن بالأمانة، ص ٤٦٤ .

(١٣٦) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٦– المقري، المصدر السابق، السابق، ج ٦ ص ١٧ .

(١٣٧) الفتح بن خاقان، ص ٧ – المقري، ج ٦ ، ص ١٨ .

(١٣٨) نفس المصدر، ص ٧ .

(١٣٩) نفس المصدر، ص ١٧٨، المقري، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(١٤٠) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق ، ص ٤٦٤ .

(١٤١) ابن عذاري، قسم ٣ ، ص ١٩٢. وفي ذلك يقوم بمناسبة وصول المنصور الموحدي إلى إشبيلية في سنة ٥٩١هـ قبل توجهه لمحاربة القشتاليين وحلفائهم من دول إسبانيا المسيحية في موقعة الأرك "ولما وصل المنصور على إشبيلية نزل بظاهر بحيرة باب جهور، فخرج الملأ من أهل البلد إليه برسم السلام عليه".

(١٤٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالأمانة، ص ٦٤٦ . حيث يقول في معرض حديثة عن موضع قصور البيرة المعروفة عند الناس قديمًا بلقيم فرعون "واختط بيرته منه في الجنان المنسوب لابن مسلمة". راجع أيضا ابن عذاري، قسم ٣ ، ص ٩٥ .

(١٤٣) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص ١٠٣

(١٤٤) المقري، نفح الطيب، ج ٦ ، ص ٨.

(١٤٥) نفس المصدر، ج ٢ ، ص ٢٠٨.

(١٤٦) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، ج ١ ، ص ٢٩٦.

(١٤٧) ينتمي أحمد بن باسه إلى أسرة أندلسية متخصصة في فن البناء.

(١٤٨) ابن صاحب الصلاة، ص ٤٦٧.

(١٤٩) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٧٦.

(١٥٠) نفس المصدر، ص ٤٦٨.

(١٥١) تقع قلعة غابر شرقي إشبيلية على مقربة من قرموية وإليها ينسب عامر بن خدوش القلعي الذي يقول:

ألا يا سقي الرحمن قلعة جابر.. فكم لي فيها من ليال زواهر راجع ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ج ١ تحقيق د. شوقي ضيف، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٢٩١ .

(١٥٢) ابن صاحب الصلاة، ص ٤٦٩.

(١٥٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٣٨.

(١٥٤) ابن صاحب الصلاة، المن بالأمانة، ص ٢٣٥.

ومن المعتقد أنها كانت تقوم في نفس موضع قصر سان تيلمو "San Telmo" وحدائق مار لويسا المطلة على الوادي الكبير.

(١٥٥) نفس المصدر، ص ٤٨٠.

(١٥٦) ذكر ابن صاحب الصلاة أنها بنيت حتى نصفها المن بالأمانة، ص ٢٣٥ .

(١٥٧) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٨٢.

(١٥٨) نفسه. ولعل الطحون تعريف من كلمة "Tajon" الإسبانية ومعناها كتلة من الحجر الجير.

Diccionario ae la lengua Espanola, Publicado por la Real Academia Espanola, Madrid 1947.

(159) 1 Julis Gonzalez, Repartimiento de seirlla, t. I, p. 493.

(160) Elie Lambert, L'art gothique a Seville p. 160- Santiago Moutoto, Nueva Guia de Sevilla, Madrid, 1951, p. 126.

(١٦١) ابن عذاري القسم الثالث، ص ٤٣٦.

(162) Celes tino Lopez Martinez, Mudejares y morisos, p. 19.

وقد أيد سانتياجو مونتوتو Santiago Montot هذا الرأي في كتابه عن شوارع إشبيلية

Santiago Montoto, Las Calles de Seirlla

حيث يسمى هذا الملك باسم Abemafor 1950 p. 426 أي ابن مفحوظ.

(١٦٣) ابن عذاري، البيان المغرب، القسم الثالث، ص ٤٣.

(١٦٤) المقري، ج ٦ ، ص ٢٠ . ويذكر عبد الواحد المراكشي أن البربر بعد دخولهم إشبيلية لم يتركوا لأحد بين أهلها سبدًا ولا لبدًا، "وانتهبت قصور المعتمد نهبًا قبيحًا" المراكش، المعجب، ص ١٤٢ .

(١٦٥) ابن صاحب الصلاة، ص ٤٧٢. ويستدل من النص المذكور أن الخليفة الموحدي اتخذ من قصر الإمارة العبادي مقرًا للحكم.

(١٦٦) المقصود به القصر المبارك بثرياه.

(١٦٧) والمقصود بهذه الدور بعض الملحقات الخاصة بهذا القصر.

(١٦٨) ابن صاحب الصلاة، ص ٤٧١، ٤٧١ – وابن عذاري، ص ٩٦.

(١٦٩) ابن عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٢٥. يقول في معرض حديثه عن قيام المعتمد بحبس ابن عمار: وجعله في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك. وهو باق إلى قوتنا هذا .

(١٧٠) ابن عذاري، قسم ٣، ص ٣٢٢.

(171) Elie Lambort, L'art gothique a Seirlle apris la recon quete, Revue Archeolgique, Paris, 1932, p. 155.

(172) Ibid, p. 161.

(173) Guerrero Lovillo, guia de Sevilla, ed. Aries, Barcelona, 1952, p. p. 11- Lamperez V. , Arquitecture civil espanola, del los siglos I al XVIII, Madrid, Vol, I, 1922, p. 599.

(174) Torres Balbas Ars Hispaniae, T. IV., arte Almohade, Madrid, 1949, p. 30.

(١٧٥) أرسل الملك دون خوان عددا من الرسائل أصدرها من شقوبية من بينها رسالة من هذه المدينة في ٣ نوفمبر سنة ١٤٢٧ تتضمن إشارات هامة إلى مجموعة من الفنايين المدجنين الذين يعملون في ترميم قصر إشبيلية.

(176) Contreras, Estudis descriptivo de los monumentos arabes gramada, Seivlla y cordoba, Madrid 1885, p. 100.

(177) Conteras, op. cit., p. 115.

(178) Cuerrero Lovillo, op. cit., p. 11.

(١٧٩) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم ٣ ص ٤٣٧.

(١٨٠) راجع القصيدة في البيان، ص ٣٨٢ – ٣٨٤ . ولاحظ ما ذكره الشاعر في الأبيات الواردة بالمتن بشأن ما آلت إليه القصور العبادية والموحدية من مصير سيئ وما أصابها من تدمير بحيث شوه معالمها وأطاح بقبابها التي كانت تعلو على عمران إشبيلية مطلة على الوادي الكبير.

(181) Jose Guerrero Lovillo, op. cit., p. 104- 109.

وقد أطلعني الأستاذ جيريرو أيضًا في مقابلة أخيرة معه على أن قاعة السفراء الحالية ليست في الواقع سوى قاعة من قاعات قصر الثريا أعيد كسوة جدرانه وفق الأسلوب الغرناطي زمن السلطان مُحَمَّد الخامس الذي كان صديقًا للملك القشتالي بدور الأول، ويعتقد أن قبة هذه القاعة الحالية أقيمت مكان قبة مقربصة آثارها ما زالت موجودة حاليًا، وفي هذه الحالة تصبح قبة قصر الثريا أو قبة مقربصة أقيمت في مبنى إسلامي في الأندلس وأقدمها، ولست أوافقه على هذا الرأي لأن القباب المقربصة لم تظهر في المغرب والأندلس قبل عصر المرابطين راجع مقالي

Elsayed A. Salem, Algunos aspectos del florecimients economico de alveria islamica durante el periodo de los Taifns y de los Taifas y de los Almoravides, Revista del Instituto Egipcio de Madrid, Vol. XX, 1979, p. 17, No, 1.

(١٨٢) راجع التفاصيل في:

Henri Terrasse, L'art Hispano Mauresque, Paris, 1932, p.; 235.

Georges Marcais, l'architecture musulmane d'occident, Paris, 1954, p. 195.

مايويل جومث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة د. أحمد لطفي عبد البديع ود. السيد عبد العزيز سالم، القاهرة ١٩٦٨، ص ٣٤٥.

(183) Henri Terrasse, La grande mosquee de Taza, Paris, 1943, p. 28, Goorges Marcais l'architecture musulmane d'Occiednt, p. 268.

(184) Leopoldo Torres Balbas, Ars Hispaniae, arte almohade, Nazari y mudejar, Vol, Iv, Madrid, 1949, p. 31.

(185) Yulio Gonzales, op. cit, I. I, p. 497.

(186) Alfonso X, Cronica General, PP. 750, 751.

(187) Oritz De Zuniga, Anales eclesiasticas, t. I, p. 11.

(١٨٨) يذكر ابن الخطيب "السلطان مُحَّد بن مُحَّد بن يوسف بن نصر توفي سنة ٨١٠هـ وأعظم مناقبه ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء في غرناطة على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش من فخامة العمد وإحكام أتوار الفضة وإبداع ثرياتها ووقف عليه الحمام بإزائه" انظر اللمحة البدرية في الدولة النصرية طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧هـ، ص ٥٠.

(١٨٩) تعني هذه الكلمة المظلة أو السقيفة وقد وردت في نفح الطيب، ج ١ ، ص ٣٦٦ طبعة محيي الدين عبد الحميد عند ذكره استقبال الخليفة الناصر للملك أردون عند باب الأقباء بالزهراء.

(190) Lambert, L'alhambra de Grenade, revue de l'art LXIII, p. 144- 164.

(١٩١) تزدان بعض أسقف هذه القاعة بصور لملوك عرب ومناظر للطعان والحرب وغيرها، ولكنها صور يبدو فيها التأثير الجاد للمدرسة الإيطالية مما يجعلنا نظن أن فنانين مسيحيين ساهموا في زخرفة هذه القاعة.

قصور الحمراء بغرناطة

د. السيد عبد العزيز سالم

لم تكن غرناطة زمن الفتح الإسلامي سنة ٧١٢ ميلادية سوى قرية صغيرة افتتحها المسلمون عنوة، وضموا اليهود إلى قصبتها، ولعل ذلك كان سببًا في تسميتها بعد ذلك "بغرناطة اليهود". ومنذ الفتح لم يعرها المسلمون اهتمامًا إذ استقر جند دمشق في البيرة التي ظلت حاضرة كورة البيرة زمن بني أمية، ولكن غرناطة أخذت تنمو شيئًا فشيئًا منذ القرن العاشر، وأصبحت مدينة كبيرة، فلما سقطت الخلافة بقرطبة، استولى البربر على البيرة، فخلت وانتقل أهلها منها إلى غرناطة، وبزغت شمس غرناطة وأصبحت حاضرة كورة البيرة، ثم أخذ اسم غرناطة يسيطر تدريجيًا على الكورة، وأخيرًا حل محل اسم البيرة.

وكان لموقع غرناطة على الضفة اليمنى من نهر شنيل واختراق نهر حدرة لها- أثر كبير في إحاطة الجنان والبساتين بها، وكانت تشرف من الناحية الجنوبية الغربية على فحص فسيح، وكان يطل عليها من الشرق والغرب جبل شلير الذي لا يفارقه الثلج شتاء أو صيفًا (Sierra Nevada). وكان للمرتفعين اللذين يفصل بينهما نهر حدرة واللذين عليهما مدينة السلاطين وحي البيازين- أهمية استراتيجية عظيمة كان لها أثر كبير في مناعة المدينة.

ولما سقطت غرناطة في أيدي البربر جعلها زاوي بن زيري عام ١٠١٣ ميلادية عاصمته، وقد مدنها حبوس الصنهاجي وحصن أسوارها وخلفه ابنه باديس بن حبوس فكملت في أيامه. وظلت غرناطة عاصمة بربر صنهاجة حتى

استولت عليها جيوش المرابطين عام ١٠٨٩ ميلادية ويغلب على الظن أنهم جعلوها حاضرة دولتهم في الأندلس، ثم فتحها الموحدون عام ١١٤٦ ميلادية، وفي نهاية عهدهم نجح ابن هود ملك بلنسية سنة ١٢٣١ ميلادية في ضم غرناطة إلى ملكه، وبعد وفاته سنة ١٢٣٧م ضمها إليه مُحَمَّد بن يوسف بن نصر سيد حصن أرجونة وبسطة ووادي آش وشريش وجيان ومالقة، وجعلها عاصمة مملكته.

وكانت إسبانيا الإسلامية إذ ذاك قد تحطمت أعوادها وانكمشت رقعتها أمام الدفع السريع للاسترداد القومي الإسباني على إثر سقوط المدن الكبرى كقرطبة سنة ١٢٣٦م ومرسية سنة ١٢٣٩م وإشبيلية سنة ١٢٤٨م في أيدي النصارى، وكانت الأحوال السياسية وقتئذٍ تحتم تأليف جبهة قومية قوية أمام الخطر الجاثم، فقامت مملكة غرناطة التي دامت ما يقرب من قرنين ونصف القرن من الزمان بالرغم من الصراع غير المتكافئ بين النصرانية والإسلام، وبالرغم مما عانته مملكة غرناطة من حروب داخلية، وكان توسل بني الأحمر بسلاطين بني مرين في الجانب الآخر من الزقاق، ثم عقدهم محالفات سياسية مع ملوك قشتالة– عاملًا قويًا في إطالة أمد هذا الصراع، وترك مُحَمَّد الأول عام ١٢٧٢م ملكًا قويًا يستطيع الثبات أمام الأعداء، وكان تقلص الإسلام قد أدى إلى تركيز أهل الفنون بالأندلس في غرناطة، فوفد إليها أهل الحرف والصناع، وأقاموا فيها واستغلوا كل شبر من أراضيها، فنهض فن العمارة وأقام مُحَمَّد الأول قصبته الحمراء وبنى فيها برج الطليعة Torre de la vela وبرج التكريم Torre de Homenage كما أقام فيها بعض الأسوار القوية، وخلفه ابنه مُحَمَّد الثاني "١٢٧٢– ١٣٠٢" وكان سياسيًا حصيفًا استطاع أن يوطد سلطانه في البلاد، وكان لا يتردد في الاستنجاد ببني مرين كلما أحس بشبح الاسترداد يهم

بمملكته، وتلاه محمد الثالث، ومع أنه كان ضريرًا فقد كان نشيطًا عالما، مولعًا بالفنون والعمارة فبنى قصرًا بالحمراء، كما بنى المسجد الجامع بالقصر[1]، وقد هدم في طليعة القرن السابع عشر ولم يبق منه سوى ثريا برنزية محفوظة بمتحف الآثار بمدريد.

على أن العصر الذهبي لدولة بني نصر يبدأ بعهد أبي الحجاج يوسف الأول، فقد كان حاميًا للآداب والفنون، فأقام أول نواة لقصر الأساطير بما فيه برج قمارش والبرج المعروف بقصر متشوكة والحمام الملكي وباب الشريعة وبرج الأسيرة ومصلى البرطل، وظل يوسف الأول يحكم سنين كلها رخاء، حتى قتل عام ١٣٥٤م وهو يؤدي الصلاة في جامع الحمراء، وخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله الذي أكمل في الحمراء ما كان قد بدأه أبوه فيها، ودام عهده حتى سنة ١٣٩١م ثم تولى الحكم بعده ملوك ضعاف، وتوالت الأحداث في العهد الأخير الذي سبق مباشرة سقوط غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس في أيدي النصارى، وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكة، وقامت الثورات تأييدًا لأحدهم على الآخر، وكانت آخر حلقة في سلسلة هذه الفتن ذلك الصراع بين الزغل وابن أخيه أبي عبد الله بن أبي الحسن الذي أدى إلى تسليم مدينة غرناطة في ٢ من يناير ١٤٩٢م.

ويشهد قصر الحمراء بغرناطة هذه الأحداث، وتروي قاعاته وأبراجه قصة هذا الصراع الأليم الذي انتهى بضياع الأندلس، وتعتبر حمراء غرناطة مقبرة الحضارة الإسلامية، ففيها وضع رجال الفن من مسلمي الأندلس خلاصة فنهم وعصارة ما وصلت إليه عبقريتهم، ومن أهم مزايا الفن الغرناطي أنه فن دنيوي على نقيض فن المرابطين، ولم يكن بناء بني نصر للمساجد إلا نتيجة للتوسع الاجتماعي الذي فرضته هجرة سكان المدن التي سقطت تباعًا في أيدي

النصارى، وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التي تلهي المسلم عن صلاته وتجعل من هذه المساجد قصورًا خيالية تسبح في زخارفها وتنميقاتها الأبصار دون ملل أو كلل، بل إن هذه الزخارف كانت تغطي جدرانًا رقيقة ضعيفة، وتكسوها كما لو كانت أبسطة، وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية: هي رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور في التمتع بحاضره والشك في غده، وكذا كانت الأبنية التي زخرت بها غرناطة قصورًا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف في نطاق طبيعي لا مثيل لجماله. وكان المجال الذي يحيط بهذه القصور يتجاوب وهذا التمتع، ونجح عرفاء بني نصر في إحداث تأثير جمالي يصحب فن توزيع الحمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعي بالعمارة، فالحمراء تجلي لنا أروع أمثلة هذا الفن، بل هي تعتبر واحة خضراء في إقليم قاحل جاف تحرقه الشمس، ولا تدع غابة الحمراء التي تحيط بالقصر السلطاني وكثافة الفروع- أي مجال لنفاذ أشعة الشمس، كما أن هذه النسمات المنعشة التي تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة والماء الذي ينساب بين الصخور، والطيور التي تغرد على الأشجار وبين الأغصان والأفنان- كل ذلك- يجعل من قصر الحمراء قصرًا أسطوريًا أو جنة الله في أرضه، ويحمل المرء على أن يحيا في عالم خيالي لا يفكر فيه إلا في القصور التي كانت تعيش فيها أميرات ساحرات، وهنا يبلغ الفن الغرناطي الذروة، فقد أعد كل ذلك إعدادًا دقيقًا لتخدير المشاعر عن إدراك الحقيقة التي لا سبيل إلى التغافل عنها، وهي انتهاء دولة الإسلام في الأندلس.

ويعتبر قصر الحمراء وقصر البرطل وجنة العريف أكمل مجموعة إسلامية للقصور الإسبانية، وأقدم آثار الحمراء حصن القصبة الذي ينسبون إلى مؤسس الأسرة مُحَمَّد بن نصر المعروف بمحمد الأول (١٢٤٨- ١٢٧٢م) ، ويغلب

على الظن أنه أقام هو وابنه محمد (١٢٧٣- ١٣٠٢م) في قصر ما خارج القصبة، وكل ما بقي منه باب النبيذ (Puerta del vino) الذي ما يزال قائمًا في معزل عن بقية الأبنية الأخرى داخل سياج أحدث منه، وبنى محمد الثالث بدوره (١٣٠٢- ١٣٠٩م) نحو الشرق بقليل مسجدًا سلطانيًا لا أثر له اليوم، إذ أمر فيليب الثاني بهدمه سنة ١٥٧٦م.

أعمال يوسف الأول: وينسب إلى يوسف الأول (١٣٣٤- ١٣٥٤م) وابنه محمد الخامس (١٣٥٤- ١٩٣١م) بناء القصور السلطانية بالحمراء وهي التي أقيمت حول صحني الريحان والسباع، وما ينسب إلى يوسف الأول يشتمل على السور الحصين الذي يحيط بمرتفع الحمراء بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة الذي ينم نظام بنائه عن أصالة وعن فن إسلامي بحت لا دخل للعناصر المسيحية فيه، وقد تم بناؤه في ١٣٤٨م وفقًا لما احتواه النقش الكتابي، وقد أطلق عليه باب العدل نسبة لصورة يد مفتوحة ومفتاح، ترمز الأولى إلى العدالة ويرمز المفتاح إلى مدخل قصور الحمراء، كما أطلق عليه اسم باب الشريعة نسبة إلى المصلى الذي كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات إلى الله أوقات الشدة والقحط والجفاف.

ومن أقدم قصور الحمراء التي ترجع إلى عهد يوسف الأول قصر البرطل(٢) ويعنون به في الأندلس الظلة التي تقوم على بائكة هذا القصر بين برج السيدات (Las Damas) مصلى صغير، وتتألف ظلة هذا القصر من خمسة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعًا، ويطل هذا البرطل على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط- بالمياه، وراء هذا البرطل وفي ركن منه قاعة مربعة تشبه البرج يمكن الارتقاء منها إلى طبقة أعلى عن طريق درج إلى اليسار، ويغطي الجدران التي تعلو عقود البائكة شبكات من زخرفة المعينات، ويحيط بالجدران إزار من

الزليج تتعدد فيه الرسوم الهندسية الملونة، وتقوم عقود البائكة على أربعة أرجل من الآجر.

وإلى يمين البرطل من شرقه وعلى درب السور أو ممشاه مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة، ويتناقض هذا البناء الصغير في بهاء عمارته ونوافذه المفتوحة على كلا الجانبين وبناء الأسوار والأبراج المجاورة له في حمرتها وعرائها من الزخرف، ويبلغ طول هذا المسجد ٤,١٦ من المتر وعرضه ٣ أمتار، وفي رأسه محراب يقابل الباب ويتجه نحو الجنوب الشرقي وتعلوه قبوة مقرنصة. ونستطيع أن نرجع بناء هذا المسجد من أسلوب زخارفه إلى عهد يوسف الأول.

ولا يبعد برج الأسيرة كثيرًا عن قصر البرطل، إذ يقوم على مرتفع يعلو الحفير الفاصل بين الحمراء وجنة العريف، ويضم هذا البرج قصيراً يتألف من قاعة أساسية تكتنفها شرفات ومخادع جانبية، ويتوسط البرج صحن داخلي صغير يحيط به من جهاته الأربع مجنبات، وزخرفة قاعات هذا البرج لا سيما تربيعاته الزليجية الملونة والزخرفة الجصية الرائعة التي ما زالت تحتفظ ببقايا ألوان وتذهيب، تجعل هذا القصر من أجل ما شيده يوسف الأول.

وبرج الشرفات أو الأسنة بين مصلى البرطل وبرج الأسيرة، وقد سمي كذلك نسبة إلى شرفاته المدببة وميازيبه البارزة على أحد جوانبه، ويناقض هذا البرج الأبراج الإسلامية الأخرى، إذ من اليسير ملاحظة أثر العمارة المسيحية في بنائه، ويغلب على الظن أن أسيراً مسيحياً ساهم في بنائه، والقبوة التي تعلو قاعة الطبقة الأولى منه تقوم على تقاطع العقود القوطية، وفي أسفل البرج تنفتح

بوابة صغيرة، وهنا تجلي منظر من الشعر الحزين ذلك هو أحدور الملك الصغير (Cuesta del rey chico).

وإلى يسار برج السيدات برج مخدع الملكة (de la Reina) ويضم هذا البرج– شأنه في ذلك شأن برج الأسيرة– قصرًا صغيرًا لطيفًا يرجع إلى يوسف الأول، ويتصل هذا البرج بقصر الريحان وبرج قمارش، وقد تغيرت الأجزاء العليا منه في القرن السادس عشر، وازدانت بروائع من فن التصوير الإيطالي، وقد أعيد إلى هذه القاعة مظهرها القديم.

قصر بهو الريحان: ويتألف قصر الحمراء من ثلاث مجموعات: اثنتان منهما ترجعان إلى عصر يوسف الأول، والثالثة ترجع إلى عصر محمد الخامس، وقد ضاعت معالم المجموعة الأولى التي كانت تشتمل على مجموعة من الأبنية لم يبق منها سوى أسسها، ويجاورها صحن في جهته الشمالية مجنبة تتقدم برجًا يعرف اليوم باسم برج متشوكة، وهو مهندس شارلكان، وإلى جانبه كان قصر العدل أو المشوار، وفيه كانت تجرى الأحكام.

وتضم المجموعة الثانية– وترجع أيضًا إلى عهد يوسف الأول– قصر السلطان ومقر الحكم. ويعتبر هذا القصر أروع ما شيده السلطان يوسف الأول، ويتوسط هذا القصر بهو الريحان، وفي جهته الشمالية برج قمارش الذي يشتمل في داخله على قاعة السفراء، ومن قمريات هذه القاعة ومنظراتها يمكن إمتاع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الساحرة، وتنتقل العين في نهر حدرة الذي تندفع مياهه أدنى البرج إلى حي البيازين في المرتفع الآخر المقابل للحمراء.

وزخارف هذا العصر يعجز عنها الوصف، وتتألف من زخرفة جصية ملونة هندسية ونباتية وكتابية، ويعلوه سقف خشبي تكسوه زخرفة هندسية، ويسبق

قاعة السفراء رواق مستطيل يعرف باسم "رواق البركة Barca" ويعزون ذلك إلى قبوته التي تشبه الزورق كما يعزون آخرون إلى كلمة البركة العربية، ويطل على بهو الريحان بائكة مؤلفة من سبعة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعًا، وهو أروع مثال للصحن الأندلسي، إذ تشغل وسطه بركة كبيرة مستطيلة الشكل تحف بها أشجار الريحان، ومن هنا سمي أيضًا باسم بهو البركة، ويقابل هذه الواجهة جنوبًا واجهة أخرى مماثلة في المحور نفسه، ويتألف هذا الجانب الجنوبي من طبقتين.

وإلى شرقي مجلس قمارش وبهو الريحان الحمامات السلطانية وهي من أقدم أبنية القصر. وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الأبنية، وترجع إلى عهد يوسف الأول الذي سجل اسمه في نقش كتابي، ويسبق الحمامات إلى الشمال قاعة يطلق عليها اسم قاعة الأسرة، وقد أجريت عليها إصلاحات عدة في القرن السادس عشر غيرت كثيرًا من معالمها القديمة، ويسقف القاعة الأساسية في الحمامات قبة تخترقها مناور أو مضاوي وهي أشكال نجمية لإنفاذ الضوء، وتكسو الجزء الأدنى من الجدران تربيعات رائعة من الزليج، وتحمل العقود المتجاوزة المنكسرة أعمدة صغيرة رشيقة.

أعمال محمد الخامس:

ذكرنا فيما سبق أن مُحَّداً الخامس أتم وأصلح أبنية أبيه، مثل ذلك قصر الريحان ورواق البركة على وجه خاص، إذ إن زخارفه تختلف تماماً عن زخارف قاعة السفراء، كما أنه زود قصر أبيه بمدخل رائع يطل على صحن المشوار ويتصل به أسطوان على شكل المرفق يفضي إلى صحن الريحان. وتشبه واجهة هذا المدخل واجهة القصر بإشبيلية الذي أسسه في العصر نفسه بدرو القاسي ملك قشتالة.

وقد توج مُحَمَّد الخامس أعماله المعمارية بتشييده المجموعة الثالثة في قصور الحمراء، وهي مجموعة قصر السباع، والمحور الأساسي لهذا القصر الجديد يتعامد هو ومحور بهو الريحان، ونظامه جديد في تاريخ العمارة الغرناطية في القرن الرابع عشر، إذ إنه بدلًا من القاعتين اللتين تقعان في الطرفين القصيرين للمستطيل في بهو قصر جنة العريف وبهو الريحان، أحاط بالصحن المركزي المعروف ببهو السباع في واجهاته الأربعة– أربع بوائك ، ويتوسط الصحن فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء: النافورة، والحوض الأعلى ببيلته، ثم الأدنى من الفوارة استدار تحتها اثنا عشر أسداً تمج الماء من أفواههم، ويدور بالحوض طراز كتابي في مدح مُحَمَّد الخامس، وتدور بالصحن أربع بوائك تقوم على عمدها الرفيعة الرشيقة عقود نصف أسطوانية مطولة تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية، ونقرأ في جدران هذا القصر نقوشاً عربية منها: "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله" كما تزخر الجدران بأشعار ابن زمرك في مدح هذا السلطان.

وصحن السباع على شكل مستطيل طوله ٢٨,٥ متراً وعرضه ١٥,٧٠ متراً، ونظام هذا الصحن يماثل نظام صحن قصير منقوط بمرسية، إذ على جانبيه القصرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة، ويتقاطع محورا الصحن وقد اتخذا شكل قناتين للمياه بحيث يؤلفان شكلًا صليبياً. ويذكر الأستاذ لامبير أن الشكل العام لصحن السباع بما يحيط به من بوائك في جهاته الأربعة يبدو متأثراً بنظام أبهاء الأديرة المسيحية [٣] وإن كنا نعتقد اعتقاداً جازماً أنه متأثر بنظام أبهاء المساجد أو الأربطة.

وخلف الجوسق الغربي قاعة فسيحة تغيرت معالمها الإسلامية، في حين أن خلف الجوسق الشرقي قاعة الملوك أو قاعة العدل[٤] ، وتزخر بالعقود المتعارضة التي تحشد في بواطنها المقرنصات الدقيقة. أما القاعتان الجانبيتان للصحن شمالًا

وجنوباً فهما من أروع ما جاد به فن العمارة الإسلامية في الأندلس، فالقاعة الجنوبية وتعرف بقاعة بني سراج تتوسطها بيلة من الرخام بها آثار بقع حمراء يقال: أنها من دماء بني سراج بعد أن قضى عليهم ملوك بني نصر، وتعلو القاعة قبة رائعة الجمال من المقرنصات الدقيقة نجمية الشكل، أما القاعة الشمالية المقابلة لها فاسمها قاعة الأختين نسبة إلى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين في الشكل كانتا تكسوان الأرضية، وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة التي تشبه خلايا النحل، وتؤدي هذه القاعة إلى شرفة تطل على حي البيازين، وجميع جدران هذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة تتخللها كتابات كوفية نسخية وأدعية للسلطان، والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج والفسيفساء.

وقصر السباع يضم أكثر من تأثير للفن المسيحي، ويمكننا أن نفسر هذه الظاهرة بالعلاقات الودية التي أخذت تزدهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر بين غرناطة من جهة وإشبيلية وطليطلة من جهة أخرى، بين مُحَمَّد الخامس وبدرو القاسي، وقد نتج من ذلك حوادث تبادل فني بين عاصمتيهما، ومن هنا نشأت صلات غريبة الشأن بين الفن الإسلامي بغرناطة والفن المدجن بإشبيلية وطليطلة، أو بينه وبين الفن القوطي المسيحي على نقيض ما حدث بين غرناطة وشمالي إفريقية في القرن الرابع عشر، ومن مظاهر هذا التأثير المسيحي تعقد الزخرفة والغلو في حشدها، كما أننا نلمح فيها ظهور عناصر جديدة أكثر، يقال عنها: أنها طبيعية، وتتجمع هذه العناصر عادة في أكاليل على النحو الذي اتبعته الزخارف المدجنة المعاصرة، وتمتزج بهذه الزخارف رنوك على مثال الرنوك التي تزين الأبنية المسيحية.

قصر جنة العريف:

ونختم حديثنا عن القصور بذكر قصر جنة العريف، فبخلاف قصور الحمراء ترتفع عدة تلال بحيث تشرف على وديان نهر حدرة ونهر شنيل، وتستقي هذه التلال من مياه نهر حدرة عن طريق القنوات والحنايا والنواعير والأنابيب الماصة التي تخترق الوديان، وبذلك أمكن إنشاء جنات فيحاء تحيط بدور اللهو التي كان يشيدها أمراء المسلمين وقد زالت كل هذه الجنان حين كفت المياه عن الوصول إلى تلك الدور، إلا في جزء أقل ارتفاعاً، ولكنه أكثر خصبًا هو جنة العريف.

وقد تبارى الكتاب إبان القرن السادس عشر في وصف ومدح هذه الجنان التي نضب ماؤها في وقتنا هذا، وإن كانت تزودنا مع ذلك بصورة شاحبة لمجدها الغابر الدارس وعيونها الرائعة وأشجارها وغاباتها التي تظلل قصورها.

والبناء الأساسي في مجموعة أبنية جنة العريف يتألف من صحن شديد الاستطالة تقوم في طرفيه أبنية، وفي وسطه قناة تنحدر فيها المياه، وتنتصب في الجهة الجنوبية مجموعة من العقود المتصلة، ونظام البناء يماثل نظام القصر السلطاني في مجموعه وإن كان يسبقه تاريخيًا، إذ إنه يحتوي على نقش كتابي فيه ذكر للسلطان إسماعيل الذي جدد القصر عام ١٣١٢م.

وقد أقام سلاطين غرناطة في هذا القصر وما يجاوره من القصور المرتفعة رغبة في التمتع بالهدوء والاتصال الوثيق بالطبيعة، وكل شيء في جنة العريف بسيط في مظهره قوي في تأثيره على النفس، ولا دخل لليد البشرية في تعديل ذلك، إذ ترك للطبيعة كل شيء، كما أنه كان من شأن زخارف هذا القصر

وتوزيع منظراته ونوافذه وإحاطة نطاق طبيعي رائع به- ما يهيئ للمرء أن يحس بالراحة وأن يتمتع بكل ما يحيط به.

ويبدو لنا مما سبق عرضه أن من الظلم أن نتهم عرفاء بني نصر بأنهم أهملوا فن العمارة وأقبلوا على الزخرفة، وأنهم كانوا مزخرفين منمقين ولم يكونوا مهندسين معماريين، فإن النظام الرائع بقصر الريحان وقصر السباع والتناسق التام بين أجزائهما المختلفة- تبين أن فناني السلطان محمد الخامس على الأقل أحرزوا درجة عالية في فن العمارة، والجمع بين توزيع الفراغ والكتل، كما وفقوا في الجمع بين العمارة والطبيعة، وكلها مقومات هامة لا بد أن تتوافر في فن العمارة والبناء.

وإذا كانوا قد وجهوا النقد على ضعف البناء فيكفي ردًا على هذا النقد أن قصر الحمراء مازال قائمًا في صورته الأصلية دون أن تتصدع جدرانه أو تنهار قاعاته، ويكفي دلالة على المظاهر المعمارية لقصور الحمراء "مظاهرة الحمراء" التي حدثت في ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٢م حين اجتمع وفد مؤلف من ٢٤ مهندسًا معماريًا في قصر الحمراء للتفكير في وضع أسس لعمارة قومية جديدة، وكل ما يمكننا أن نستخلصه من قرارهم أن "قصر الحمراء مستودع رائع للعمارة الإسبانية".

االهوامش

(١) يذكر ابن الخطيب "السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر توفي سنة ٨١٠هـ وأعظم مناقبه ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء في غرناطة على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش من فخامة العمد وإحكام أتوار الفضة وإبداع ثرياتها ووقف عليه الحمام بإزائه" انظر اللمحة البدرية في الدولة النصرية طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧هـ، ص ٥٠.

(٢) تعني هذه الكلمة المظلة أو السقيفة وقد وردت في نفح الطيب، ج ١ ، ص ٣٦٦ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) عند ذكره استقبال الخليفة الناصر للملك أردون عند باب الأقباء بالزهراء.

(٣) Lambert, L'alhambra de Grenade, revue de l'art LXIII, p. 144- 164.

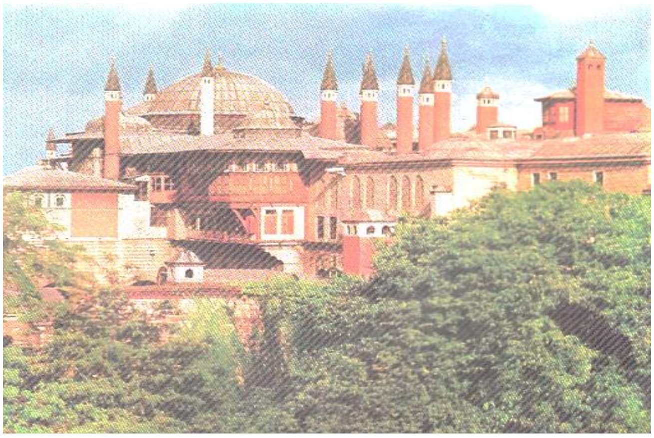
(٤) تزدان بعض أسقف هذه القاعة بصور لملوك عرب ومناظر للطعان والحرب وغيرها، ولكنها صور يبدو فيها التأثير الجاد للمدرسة الإيطالية مما يجعلنا نظن أن فنانين مسيحيين ساهموا في زخرفة هذه القاعة.

جولة دراسية.. في قصر الطوب قابي

مُحَمَّد التميمي

انتقلت عاصمة الخلافة العثمانية من أدرنة إلى استانبول (القسطنطينية) عام ١٤٦٠ بعد أن شهدت حركة عمرانية كبيرة إثر فتحها على يد السلطان مُحَمَّد الفاتح في ٢٩ مايو (آيار) ١٤٥٣.

وكانت مجموعة الأبنية التي تشكل قصر السلطان في هذه الفترة تقع في ميدان بايزيد، أي مكان المبنى الرئيسي لجامعة استانبول اليوم. ولم يعد ثمة أثر لهذه الأبنية التي يطلق عليها في المراجع التاريخية (سراي عتيق) أي القصر القديم. وحيث لم يعجب الفاتح بموقع القصر الذي بناه في مستهل عهده باستانبول، فقد أمر ببناء (القصر الجديد) الذي أصبح يعرف فيما بعد وإلى يومنا هذا بـ «قصر طوب قابي»، أي قصر باب المدفع، وانتقل إليه كما نقل إليه دوائره الرسمية.



برج الديوان الخاص بالحريم السلطاني

بني القسم الأول من القصر خلال الفترة من عام ١٤٧٢ إلى ١٤٧٨، وأُضفيت إليه القصور والمقصورات ودوائر الدولة والأبنية الخاصة بالحاشية والمكتبات والمساجد والمطابخ على فترات مختلفة، حتى أصبح القصر على هيئة مدينة تتربع على مساحة قدرها ٦٩٩٠٠م[٢]. وقد استمد القصر الجديد اسمه من المدافع المنصوبة أمامه.

يحيط بالحديقة الفسيحة المخصصة للقصر أسوار ساحلية منيعة من جهة القرن الذهبي وعبر مرمرة وأسوار داخلية يبلغ طولها ١٤٠٠م، يعلوها ٢٨ برجًا ويطلق عليها اسم الأسوار السلطانية.

يقع المدخل الرئيسي للقصر خلف متحف أيا صوفية، ويطلق عليه (باب همايون) ويؤدي هذا المدخل إلى فناء فسيح تقع على يمينه دائرة الدفتر دار، وعلى يساره كنيسة أيا إيريني. أما المقصورة القاشانية (جينيلي كوشك) ومقصورة الاحتفالات (الهاي كوشكي) فتقعان ضمن هذا الفناء الذي يسمى بالفناء الأول والذي يمتد حتى (باس السلام) الذي يعلوه برجان، حيث تبدأ حدود القصر الأساسية اعتبارًا من هذا الباب المؤدي إلى الفناء الثاني.



السرادق في الطوب قابي

على الجانب الأيمن، الذي يطل على بحر مرمرة من الفناء الثاني، تمتد المطابخ وحجرات الطهاة والحمام والمسجد ومخزن السمن، كما يوجد طريق مرتفع يؤدي إلى الإسطبل الخاص وملحقاته وإلى الدائرة التي كان يجتمع فيها

الصدر الأعظم مع وزرائه والتي تعرف بـ (قبة التي) أي أسفل القبة وهذه الدائرة تلي باب (قسم الحرم).

في نهاية الفناء الثاني، يوجد باب كبير اسمه باب الأغوات البيض، يؤدي إلى الفناء الثالث الذي يسمى أندرون، وكان عرش السلطان يوضع أمام هذا الباب في مراسيم (الجلوس) أو (البيعة) أو الأعياد للسلام عليه. مقابل هذا الباب تقع غرفة العرض التي كانت تستخدم لاستقبال الوزراء والسفراء، وهي غنية بالقاشاني الرائع. وخلف غرفة العرض تقع مكتبة (أندرون)، أكبر مكتبة في القصر وهي أيضًا رائعة القاشاني. على يمين هذا الفناء، تقع مدرسة أندرون وحجرات حاشية القصر وكذلك دائرة الخزينة. أما على الجانب الأيسر، فتقع دائرة الأمانات المقدسة كما تقع مديرية المتحف في هذا الفناء أيضًا.

أما الفناء الرابع والأخير من القصر فكان يطلق عليه حديقة الزنبق، وهي حديقة شاسعة تطل على القرن الذهبي وعلى مضيق البوسفور. وهناك طريقان للنزول إلى الفناء الرابع. وعلى هذين الطريقين تقع حجرات بعض حواشي القصر. وفي الحديقة السفلى من هذا الفناء، يقع برج رئيس الأطباء، حيث كانت الأدوية اللازمة للقصر تحضر في هذا المبنى. وفيه أيضًا مقصورة صوفا التي بنيت في القرن الثامن عشر وهي من الآثار القيمة، وكذلك المقصورتين الشهيرتين «بغداد» و«روان» اللتان أنشأهما السلطان مراد الرابع في القرن السابع عشر.

ومن الأقسام الأخرى التي تقع في هذا الفناء (قمرية الإفطار) التي أنشئت في عهد السلطان إبراهيم لمشاهدة الغروب من جهة القرن الذهبي، وكذلك (غرفة الختان) المزينة بأفخر أنواع القاشاني. كما يضم هذا الفناء آخر ملحقات

القصر وهي المقصورة المجيدية. ومن أمام هذه المقصورة يمكن النزول إلى حديقة كولخانة (حديقة الورود).

وهكذا، فإن متحف قصر طوب قابي يتكون بوضعه الحالي من الأقسام الرئيسية التي ذكرناها. وكانت هناك عدة قصور ومقصورات وأبنية أخرى على شاطئ البحر، إلا أنها تصدعت وتهدمت وتحولت إلى أطلال بعد نهاية القرن التاسع عشر.

أرجاء القصر الرئيسية

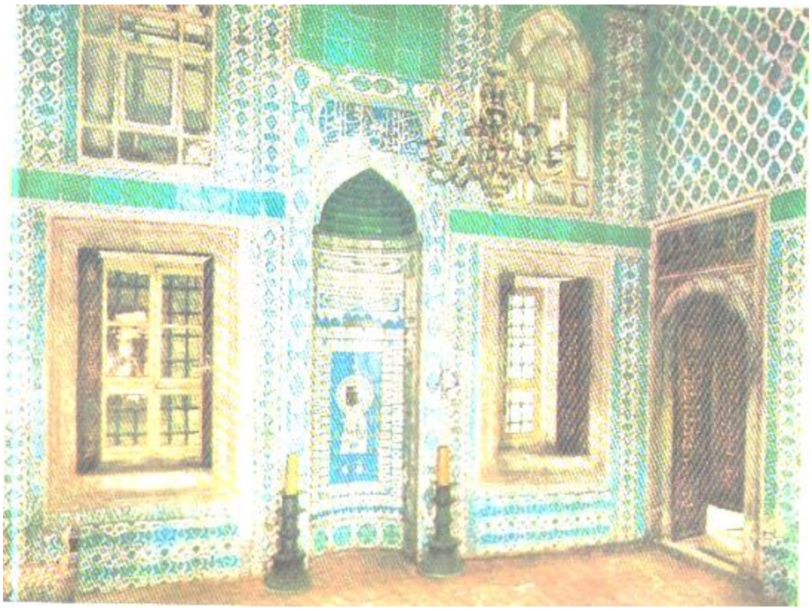
دائرة الحرم:

أضيف قسم الحرم إلى القصر عام ١٥٧٨. وكان هذا القسم يضم والدة السلطان الذي يعتلي كرسي السلطنة وزوجاته وأولاده وجواريه، وقد أضيفت إليه عدة أبنية حسب متطلبات الوقت، حتى أصبح فيه ٤٠٠ غرفة وعدة قاعات بأنماط معمارية مختلفة.

ومن أهم أقسام دائرة الحرم ما يلي:-

(أ) **مسجد الأغوات السود:**

يروى أن شيخ الإسلام كان ينتظر الإدارة السلطانية في هذا المسجد عند قدومه إلى القصر.



مسجد الأغوات السود

(ب) حجرة الأغوات السود:

تتألف هذه الحجرة من ٤ طوابق. الطابق الأول مخصص للغلام الذي يلي رئيس الأغوات في إدارة شئون الحرم، وهناك غرف للاستقبال والنوم والضيافة والطعام. أما الطابق الثاني فكان مخصصًا للأغوات من الرتبة المتوسطة، والثالث للخواص منهم. وكان يسكن الطابق الرابع الأغوات الجدد المتدربين. وكانت وظيفة الأغوات السود الذين يقطنون هذه الحجرات فتح وإغلاق أبواب الحرم صباحًا ومساءً والانتظار أمام الأبواب ومرافقة العربات.

(ج) شقة أغا البنات:

أغا البنات هو رئيس إداري الحرم. وتعتبر شقته من أهم أقسام الحرم. يوجد على يسارها المدخل الرئيسي الذي يعتبر مفتاح دائرة الحرم، إذ يتفرع منه

ثلاثة أبواب، أحدها ينفذ إلى الطريق الذهبي، والتالي إلى بلاط والدة السلطان، والثالث إلى بلاط زوجات السلطان.

(د) بلاط زوجات السلطان:

هذا الباب محاط بثلاثة أروقة وفناء مكشوف يحتوي على ثلاثة شقق وحمام وغرف للجواري ومخزن للمئونة.

(هـ) بلاط قصر والدة السلطان:

عند اعتلاء كرسي السلطنة أحد أبناء الملكات، كن ينتقلن إلى هذا البلاط باحتفال مهيب. ويعتبر هذا القصر أهم قسم في دائرة الحرم بعد المقصورة السلطانية، كما يشكل هذا البلاط بغرفة الطعام وغرفة الدعاء والغرف الأخرى المتعددة الاستعمالات والحمام الذين يحيطون بالبهو نواة دائرة الحرم.

(و) الحمَّام السلطاني:

صمم الحمَّام على الطراز الكلاسيكي، وفيه قسمان، حار وبارد وخلفه حمَّام آخر مخصص لوالدة السلطان. ومن الطريف أن هذين الحمامين يستمدان الحرارة من مصدر واحد، في حين أن مدخليهما منفصلان طبقًا للطراز التركي في تصميم الحمامات الرجالية والنسائية.

(ز) المقصورة السلطانية:

المقصورة السلطانية من إنشاء المعمار سنان في القرن السادس عشر. وتقوم المقصورة على أربعة أقواس، تحملها أربعة أعمدة، تعلوها قبة كبيرة. وقد زينت جدران المقصورة في القرن الثامن عشر على النمط الباروكي – الروكوكو.

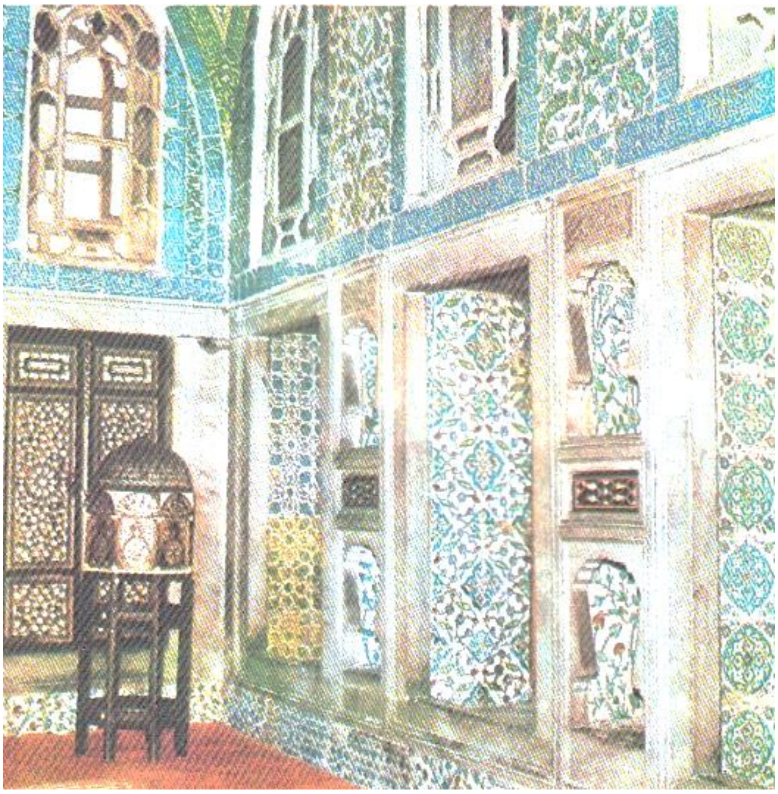
وتحيط بجدرانها آية الكرسي على شريط من الخزف الصيني وكتبت بتاريخ ١٠٧٧هـ.

(ح) غرفة مراد الثالث:

تعتبر هذه الغرفة التي تتصف بطابع البساطة أقل قسم جرى عليه تغييرات في دائرة الحرم. ويوجد فيها ساقية يبرز منها عدة صنابير ماء، يقال أنها صممت حتى يمنع خرير الماء المنبعث منها تسرب الأصوات عند الحديث في مسائل الدولة الهامة.

(ط) غرفة مطالعة أحمد الأول:

بنيت هذه الغرفة في الأصل لتكون قصرًا. ولكن لما عرف عن أحمد الأول كونه شاعرا، ونظرًا لوجود عدة كتب في خزائنها وعدة كتابات على جدرانها فقد أطلق عليها هذا الاسم.



غرفة مطالعة السلطان أحمد الأول

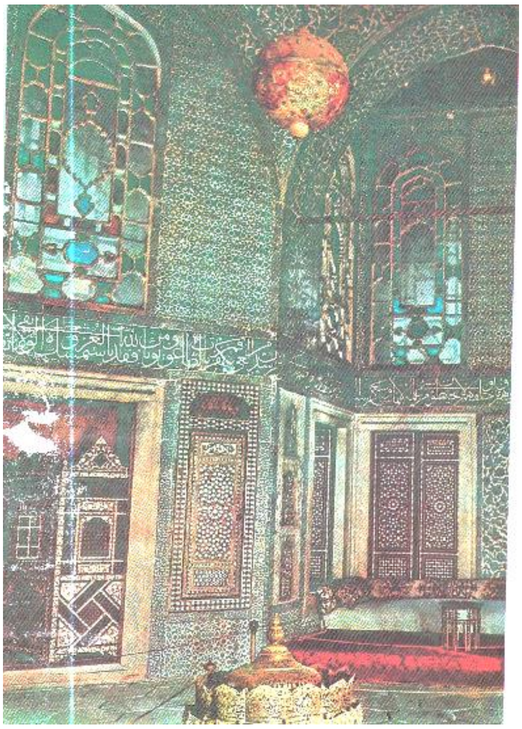
(ى) القصر المزدوج - قصر الأمراء:

يتكون هذا القصر من غرفتين متداخلتين، جدران هذا القصر مكسوة بالخزف الصيني وتزينها آيات قرآنية وقصائد دينية كتبت بماء الذهب ويوجد فيها نوافذ عليا وأخرى سفلى تطل على حجرات الوصيفات.

المقصورات

(أ) مقصورة (كوشك) بغداد:

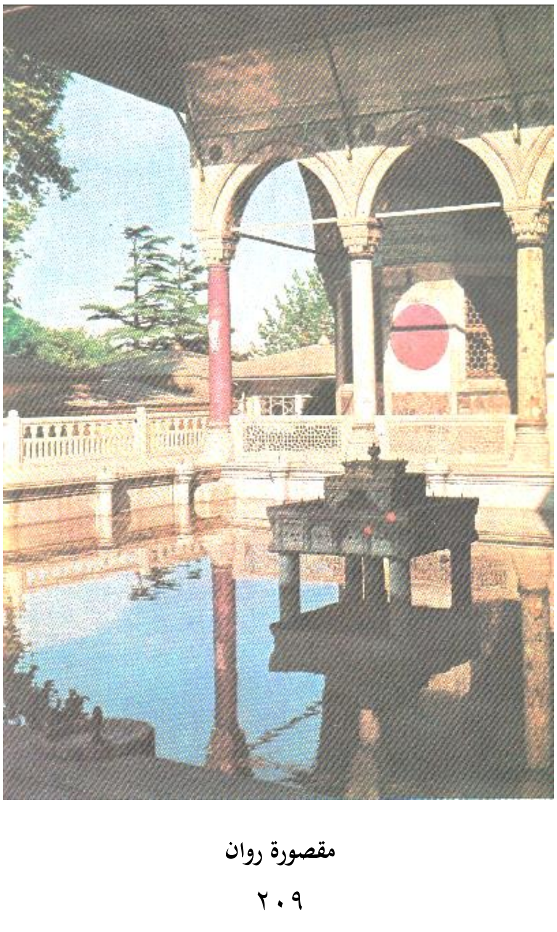
تعتبر مقصورة بغداد من أفخم أجزاء القصر، وقد أمر ببنائها السلطان مراد الرابع عام ١٦٣٩، وهي على شكل ثماني الأضلاع من الداخل، مع أنها تبدو مربعة الشكل من الخارج. يوجد في كل واجهة منها باب، عدا الواجهة التي يقع فيها الموقد. القبة الرئيسية للمقصورة مزينة بأروع نماذج الفن (الملكاري)، الذي كان سائدًا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. يتدلى من أعلى القبة كرة مذهبة ومرصعة باللؤلؤ وهي عبارة عن رمز للسلطنة، إذ تمثل الكرة، الكرة الأرضية واللؤلؤ السلطان الذي يحكمها.



مقصورة كوشك بغداد

(ب) مقصورة روان:

أمر ببناء هذه المقصورة السلطان مراد الرابع عام **١٦٣٥** وهي عبارة عن غرفة واحدة تقع أمام دائرة الأمانات المقدسة. ويطلق عليها في الوثائق غرفة (اللغة) حيث كانت لغات السلطان تحفظ فيها وكان يعنى بها أحد الأغوات ويطلق عليه اسم (غلام الشاش) وكان مسئولًا في نفس الوقت عن نظافة دائرة الأمانات المقدسة، ومن مهام هذه المقصورة الاحتفاظ بالأمانات المقدسة فيها لدى تنظيف الحجرات الخاصة بها استعدادًا للاحتفالات الدينية التي كانت تقام فيها في شهر رمضان من كل عام.



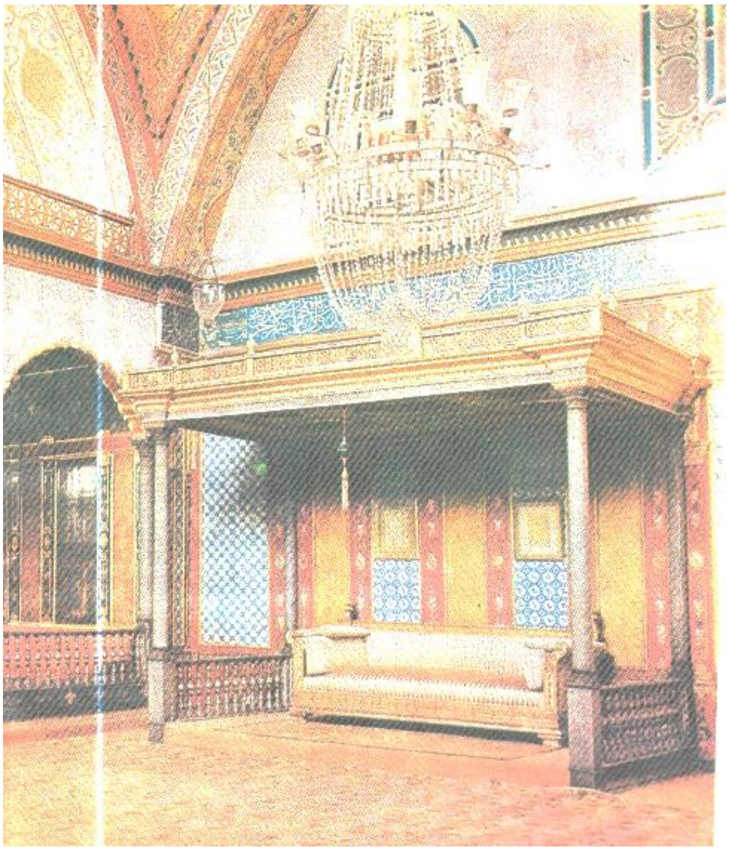
مقصورة روان

(ج) مقصورة صوفا :

تتكون هذه المقصورة من ثلاثة أقسام، هي المدخل والديوان والغرفة الخاصة. التزيينات الداخلية من أروع نماذج في الروكوكو التركي، تطل هذه المقصورة على حديقة الزنبق وعلى حديقة البركة ويشاهد مضيق البوسفور منها. وكانت هذه المقصورة من أحب الأماكن للسلاطين، إذ كانوا يمرون بها يوميًا ويتخذون فيها بعض قراراتهم.

(د) المقصورة المجيدية :

بناها السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩ – ١٨٦١) وهي تمثل الطابع الأوروبي في القرن التاسع عشر. وهي آخر ما شيد في قصر طوب قابي من مقصورات، لذا سميت (بالجديدة). وهي مفروشة على الطراز الأوروبي وجدرانها مزدانة بصور السلاطين من أعمال مشاهير الرسامين الأجانب في ذلك العهد. وتطل على منظر رائع.



جانب من قاعة الجلوس

دائرة الخزينة:

انتقلت الخزينة العثمانية إلى قصر طوب قابي بعد عام ١٤٧٨. وكان تنحصر في البداية في القسم المخصص للأسلحة حاليًا في البناء الثاني، ويرجح أنها كانت تستخدم لحفظ الهدايا الثمينة التي أرسلت في عهد مُحَمَّد الفاتح من مختلف بلدان الشرق بمناسبة الفتح. وزادت مقتنيات الخزينة بعد فتوحات السلطان سليم الثالث في الشرق في القرن السادس عشر، فوضعت الغنائم والتحف النادرة في الغرف التي يتكون منها قصر مُحَمَّد الفاتح. وإضافة إلى الهدايا

والغنائم التي كانت ترد من الخارج، فقد زاد عدد الصناع المهرة في القصر إلى أن بلغ عددهم ٢٠٠٠، وكانوا يعملون تحت إمرة رئيس الخزانة ويصنعون نفائس الأشياء للسلطان والأمراء وكبار رجال القصر، وهكذا فقد تجمعت في دائرة الخزينة أفخم وأثمن التحف والجواهر واللآلىء على مر خمسة قرون وأصبحت تشكل مجموعة من أثرى المجموعات العالمية بتعدد وتنوع نفائسها التي يصعب وصفها ويحلو للمشاهد الاستمتاع برؤيتها والنظر إليها.

دائرة الأمانات المقدسة:

تعتبر دائرة الأمانات المقدسة من الأقسام الرئيسية في المتحف وخاصة بالنسبة للزوار المسلمين، إذ تحتوي هذه الدائرة التي أمر ببنائها السلطان سليم الأول على بردة الرسول ﷺ وعلى سجادته ونعليه وقوسه ونشابه وقبضة سيفه وهي ما يطلق عليها الأمانات المقدسة، وكذلك عدة سيوف وأشياء تعود لبعض الأنبياء والخلفاء والصحابة وبعض مفاتيح الكعبة المعظمة ودرفتي باب التوبة ومصحف سيدنا عثمان ابن عفان رضي الله عنه، والعديد من الأشياء القيمة والفريدة. وجدران هذه الدائرة مزينة بالآيات الكريمة والعبارات السامية. وكان يجرى احتفال ديني مهيب في كل سنة في شهر رمضان المبارك، يشارك فيه السلطان والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة والقصر ويقومون خلاله بزيارة هذه الأمانات ويتبركون بها.

*كاتب الدراسة باحث متخصص في العمارة والفنون الاسلامية ، وعمل بمركز الأبحاث والفنون الإسلامية – استانبول.

الفهرس